د. الهادي المبروك الدالي

مَملكة مَالي الإسلاميّة
وعلاقاتها مع المغرب وليبيا



د. الهادي المبروك الدالي

مملكة مالي الإسلامية
وعلاقاتها مع المغرب وليبيا
من القرن 13 - 15 م

صفحات من تاريخ العلاقات
العربية الافريقية



تقديم:
د. محمد رزوق
عضو هيئة التدريس بجامعة الحسن الثاني
كلية الآداب وقسم التاريخ

مملكة مالي الإسلامية
وعلاقاتها مع المغرب وليبيا

الطبعة الأولى

2001 م

الناشر



دار الملتقى للطباعة والنشر

بيروت ـ لبنان ـ ص. ب: 136582

ليماسول ـ قبرص ـ ص. ب: 6527

Internet: www.al-multakapublishing.com

E-mail: multaka@cyberia.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

اهتم الأوروبيون منذ وقت غير يسير بدراسة التاريخ الافريقي ، فدرسوا عادات وتقاليد وديانات المجتمعات الأفريقية في اتجاه خدمة أغراضهم . وكثيراً ما لمحوا ـ وأحياناً أخرى أظهروا ذلك صراحة للأفارقة ـ بأن سبب تخلفهم هو هذه الحضارة الإسلامية التي اعتنقوها منذ قرون عديدة ، وأن الحل يكمن في التخلي عنها وتقمص الحضارة الغربية الطارئة . وقد تصدى عدد من المصلحين الأفارقة أنفسهم لذلك ، فكتبوا ووعظوا الناس ، واتجهوا إلى الأقطار الإسلامية لدق ناقوس الخطر على ما يتهدد أفريقيا المسلمة من أخطار ، لكن المساعدات كانت ضئيلة ، والاستجابة بصفة عامة لم تكن في مستوى دقة المرحلة التي كانت تجتازها أفريقيا . وزاد الأمر سوءاً أن الكتابات العربية عن أفريقيا المسلمة قليلة وقليلة جداً إذا ما قورنت بما كتبه الأوروبيون ، إذ الأصوات الثقافية التي تنادي بضرورة وضع العلاقات العربية الأفريقية في إطارها الصحيح قليلة جداً .

ومن هذه الأصوات الباحث الليبي الهادي المبروك الدالي ، الأستاذ حالياً بالجامعات الليبية . فقد اختار موضوعاً نعتقد أنه أفاد به الباحثين والأفارقة ، إذ أثار انتباههم إلى العديد من القضايا التي لا تزال تحتاج إلى بحث وتنقيب .

ودراسة العلاقات بين مالي وأقطار الشمال الإفريقي هامة جداً ، خاصة خلال العصر الوسيط ، إذ كانت مالي آنذاك تمثل ثقلاً سياسياً يحظى باحترام

جيرانها ، وثقلاً اقتصادياً بفعل تعدد مواردها من ذهب وملح ونحاس ، وثقلاً علمياً بتعدد معالمها الثقافية خاصة جامعة سنكري . وكل هذا ساعد مالي على ربط علاقاتها مع أقطار الشمال الأفريقي ، خاصة المغرب ، مما نجده مسطراً في مصادر تلك الفترة . وهكذا فقد قسَّم الباحث موضوعه إلى خمسة فصول تسير وطبيعة الخطة التي حاول انتهاجها لإبراز القضايا الأساسية التي حاول إثارتها ، كما أغنى الدراسة بمجموعة من الملاحق والصور والخرائط ، بالإضافة إلى سجل واف بالمصادر المخطوطة والمطبوعة .

غير أن المهم في هذا كله هو ارتحال الباحث إلى عين المكان متنقلاً بين مدن مالي وقراها باحثاً مستفسراً ، وتوج ذلك بزيارته مركز الشيخ المختار الكنتي للمخطوطات وزيارة مركز أحمد بابا التنبكتي ، بالإضافة إلى زيارته لأقطار المغرب العربي لجمع ما يتعلق بموضوعه ، وأعتقد أن هذا العمل بذل فيه صاحبه مجهوداً كبيراً يستحق عليه الشكر .

د . محمد رزوق

الدار البيضاء

1993/10/15م

مقدمة

بدأت اهتماماتي بالدراسات الأفريقية أيام كنت طالباً بالمرحلة الجامعية ، وزاد تعلقي بمثل هذه الدراسات عندما كنت أدرس في دبلوم الدراسات العليا ، فكان أستاذ مادة العلاقات العربية الأفريقية يكلفنا بورقات عمل على أفريقيا ، فكنا نجد في إعدادها صعوبة بالغة ، نظراً لقلة ما كتب عن أفريقيا وخاصة أفريقيا جنوب الصحراء . ولذلك زاد إصراري على السير في هذا المجال لما له من قيمة علمية في ذاته وفي نفسي من تعلق بمثل هذه الدراسات . وقد كنت حريصاً على دراسة هذه المنطقة من غرب أفريقيا باعتبارها قوة سياسية حظي حكامها باحترام جيرانهم ومعاصريهم ، وقوة اقتصادية لتعدد مواردها من الذهب والملح والنحاس ، وقوة علمية أبرز معالمها جامعة سنكري ومعاهدها العلمية وما حوته من كتب وما قام به علماؤها من نشاط علمي بالنسبة لمراكز الشمال الأفريقي ، وقد كانت ولا تزال الحزام الأمني لها ، فدراستها جد مهمة . وقد كان اختياري لهذه الفترة بالذات لأنها تعد أرقى حقبة تاريخية مرَّت بها المنطقة . وتبعاً لذلك فإنها تعتبر أخصب وأمتن فترات العلاقات العربية الأفريقية حيث تنوعت فيها العلاقات السياسية والاقتصادية والعلمية .

ففي بداية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، ظهرت مملكة مالي الإسلامية وهي من الدول التي قامت في السودان الغربي ما بين القرنين (7-9 هـ) (13-15م) على أنقاض دولة غانا الوثنية .

وقد قام بتأسيسها رجال أدوا دوراً مهماً في تاريخها ، أولهم الملك سندياتا كيتا (633-635 هـ/ 1235-1255م) الذي عمل على انتزاعها من أيدي قبائل الصوصو ، ثم تولى بعده عدد من الملوك ، لبعضهم أدوار مهمة في هذه المملكة إلى أن آلت إلى السلطان منسا موسى عام 713 هـ/ 1312م الذي عدَّت فترته من أزهى فترات مالي سياسياً واقتصادياً وعلمياً .

فعلى الصعيد السياسي ، تمت حركة التوسع في البلاد حيث ضم السلطان إلى نفوذه بعض مناطق الشمال مثل جاو وتوات وغيرهما ، كما عمل على مصاهرة ومصادقة رؤساء القبائل التي قد تثير القلاقل عليه ، فاستتب له الأمن وتفرغ لبناء دولته .

كما اشتهرت رحلات ملوكها للحج لدى الشرق والغرب ، فتلك الرحلات ، وخاصة رحلة السلطان منسا موسى ، كانت فرصة للتعريف بهذه المنطقة فهي تعتبر بمثابة نشرة إعلامية عنها .

أما على المستوى الاقتصادي ، فقد شهدت البلاد حركة تجارية نشطة ، في الداخل حيث ازدهرت التجارة بين مدنها ، وفي الخارج حيث ارتبطت مالي بمدن الشمال الأفريقي والشرق العربي ، في مقدمتها المغرب الأقصى وليبيا ومصر . وكانت دروب الصحراء ومنافذها حلقة الوصل بين الجانبين ، ونشطت قوافل التجارة من غدامس وطرابلس وفزان وسجلماسة وفاس في حركة ناشطة مع نظيراتها في السودان الغربي ، مثل تنبكت وجاو وجنى وغيرها من المراكز الحضارية .

وفي المجال العلمي ارتبطت مملكة مالي الإسلامية بالمغرب الأقصى وليبيا فتوافد على المؤسسات العلمية بمالي البعثات المتعددة من ليبيا والمغرب الأقصى للتعليم والتعلم ، كما تم تبادل مناهج الدراسة بين الجانبين ، فكانت كتب عياض وزروق والحسن بن علي والحطاب والتاجوي وغيرها تعج بها مراكز العلم في مالي ، كما امتزجت الثقافة العربية والخط العربي بالثقافة الأفريقية ، واكتسبت اللغات الأفريقية مثل الفولانية والهوسا والسوحلية الكثير من

مفردات اللغة العربية وتراكيبها ، وكتبت بأحرف عربية . علاوة على ذلك امتزج الدم الزنجي بالدم العربي عن طريق المصاهرة التي تمت بين الجانبين ، وكل ذلك راجع إلى فضل العروبة والإسلام على هذه الشعوب التي وحدت بينها ، بعد أن كانت شيعاً وأحزاباً .

بقيت تلك المملكة فترة من الزمن على درجة كبيرة من الرقي الحضاري ، ثم بدأ الوهن والضعف ينخران أوصالها نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية التي حلت بها ، حتى سقطت في أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) على أيدي قبائل صنغي بقيادة (سني علي) مؤسس دولة صنغي التي تبوأت فيما بعد مكان مملكة مالي الإسلامية .

لذا فقد حاولت إبراز تلك العلاقات المتميزة إحقاقاً للحق ، نظراً لقلة ما كتب عنها الدارسون العرب ولسد فراغ تعانيه المكتبة العربية الأفريقية . بالرغم من أن بعض الدارسين قد تناولوا هذه المنطقة من غرب أفريقيا ، وكان جلهم من الأوروبيين الذين كان اهتمامهم في تلك الفترة منصباً على تجميع المعلومات ودراسة المنطقة التي تطمح دولهم إلى استعمارها . لذلك تركّز اهتمام أغلبهم بالدرجة الأولى على تزويد دولهم بما يمكنها من تحقيق تلك الأطماع والسيطرة على هذه المنطقة وتفتيتها سياسياً واقتصادياً وثقافياً .

ومن ثم جاءت كتاباتهم في كثير من الأمور بطريقة شوهت الحقائق العلمية وموهتها بحيث تخدم أهدافهم الاستعمارية ، وذلك بتركيزها على إبراز عجز العرب المسلمين عن مواكبة العصر ومواجهة تحدياته والادعاء بأن العرب هم السبب المباشر في تأخير الأفارقة ، في الوقت الذي حاولوا فيه إظهار دور الأوروبيين الحضاري وعملهم على الأخذ بأيدي الأفارقة وأنهم جاؤوا لإنقاذهم مما لحقهم من جهل وتخلف . ومن أمثال هؤلاء جيمس دافي James Duffy الذي قال : «إني ألاحظ أنه على خريطة أفريقيا السياسية توجد قارتان لأفريقيا ، ويفصل هاتين القارتين الأفريقيتين محيط هائل من الرمال والفراغ وهي الصحراء . ففي شمال الصحراء توجد أفريقيا التي تعتبر جزءاً من

الشرق الأوسط أكثر من كونها منطقة أفريقية ، وتلك هي أفريقيا المسلمة التي تضرب في أغوار التاريخ بحضارتها العريقة البارزة . أما جنوب الصحراء فتقع أفريقيا التي تسمى أحياناً أفريقيا السوداء وهي جديدة على التاريخ والجغرافيا ، لم تكشف حدودها الخارجية إلا منذ عهد قريب وتختلف عن أفريقيا الشمالية اختلافها عن بقية أنحاء العالم» .

فإلى جانب روح الرغبة في التفتيت من أجل السيطرة التي نلمسها في ثنايا هذه العبارات نلاحظ أن التاريخ والجغرافيا عند هذا الكاتب لا يتعديان حدود ما تم اكتشافه فعلاً على أيدي هذه الفئة .

ولعله قد وقع عنده خلط حول الصلة بين اكتشاف الشيء بعد أن كان موجوداً وبين وجوده الفعلي الذي لا علاقة له بإدراكه أو عدم إدراكه .

كذلك نجد ما أورده هيجل في درس له حول فلسفة التاريخ عام 1830م : «إن أفريقيا ليست جزءاً تاريخياً من العالم ، فهي ليست لها أحداث ولا تطورات يمكن إبرازها ، أي أنها ليست لها أحداث تاريخية خاصة بها» .

وما جاء عند السيد كوبلاند Coupland في كتاب له عن تاريخ أفريقيا الشرقية : «إنه حتى زمن دليفنجستون يمكن القول بأن أفريقيا لم يكن لها تاريخ ، فالسواد الأعظم من سكانها ظلوا لفترات مجهولة غارقين في البربرية . ويبدو أن ذلك كان حكم الطبيعة عليهم ، وقد مكثوا جامدين لا يتقدمون ولا يتأخرون» .

وأما السيد جاسوت Gaxotte فكتب يقول : «إن هذه الشعوب لن تقدم شيئاً للإنسانية ولا بد أن ما في طبيعة ذاتهم يمنعهم من ذلك» .

ووصف السيد شارل أندريه جوليان Charles André Julien ، أفريقيا في إحدى كتاباته بأنها بلاد بلا تاريخ وقال : «إن أفريقيا السوداء وهي أفريقيا الحقيقة خالية من التاريخ» .

لهذا رأيت أن أكشف النقاب عن تاريخ أفريقيا الزاهر بالأمجاد وعن دور العرب المسلمين في نشر الحضارة العربية الإسلامية في أفريقيا وإبراز العلاقات

العربية الأفريقية في هذه الفترة وتوضيح الدور العظيم الذي اضطلع به العرب في تمكين الشعوب الأفريقية التي اتصلوا بها وخالطوها من أجل التقدم وتسفيه مزاعم الكتاب الأوروبيين بالحقائق العلمية الدامغة .

هذا وقد قسمت الموضوع إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة .

ففي **الفصل الأول** تناولت العوامل التي أدت إلى قيام مملكة مالي الإسلامية ودولة غانا الوثنية . ثم دور المرابطين في سقوط غانا وأهم الشخصيات البارزة في مملكة مالي الإسلامية سندياتا كيتا ومنسا موسى والمستوطنات العربية والمراكز التجارية بالمنطقة ، جني والتكرور وأودغست .

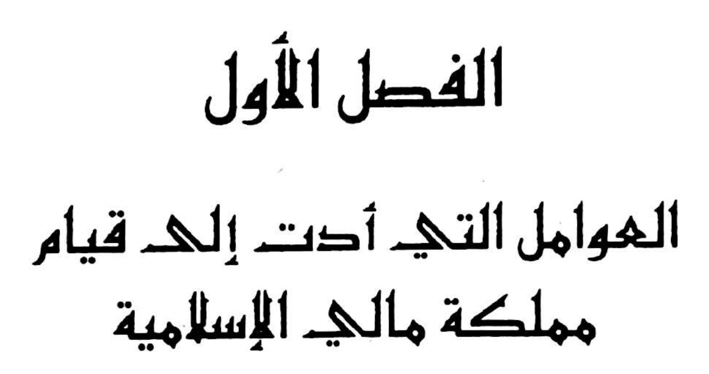
وفي **الفصل الثاني** تعرّضت للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمملكة مالي الإسلامية .

أما في **الفصل الثالث** فكانت مدينة تنبكت هي محور الحديث ، فقد تناولت تأسيسها والحياة الاقتصادية والثقافية بها .

أما في **الفصل الرابع** فقد تطرقت إلى جانب العلاقات العربية الأفريقية أي علاقة شمال الصحراء بجنوبها علاقة المغرب الأقصى المتميزة مع مملكة مالي الإسلامية من جوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية .

أما **الفصل الختامي** فهو الآخر في إطار العلاقات العربية الأفريقية الثقافية والاقتصادية بين ليبيا ومملكة مالي الإسلامية ، تناولت فيه العلاقات الثقافية والتأثير الليبي في جنوب الصحراء ، ومن بعد خلصت إلى العلاقات التجارية بين طرابلس وغدامس ومالي ، ثم تعرضت إلى حي الغدامسية بمدينة تنبكت وما يمثله من بُعد سياسي واقتصادي وثقافي .

المؤلف


الفصل الأول
العوامل التي أدت إلى قيام
مملكة مالي الإسلامية

دولة غانا الوثنية

تعدّ غانا من أقدم الدول الأفريقية التي نهضت في السودان الغربي وبلغت عظمة مجدها ما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين الموافقين التاسع والحادي عشر الميلاديين .

وكان إسم غانا يطلق على الملوك وعلى البلاد والعاصمة[1] وقد اختلف المؤرخون في مَن حكموا غانا ، وقد أورد كعت أنه يرجح أنهم من صنهاجة[2] .

أما السعدي فقد أورد أنهم من (البيضان)[3] ، غير أنه لم يستطع نسبتهم إلى فئة معينة[4] .

---

(1) أمين توفيق الطيبي ، «دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس» ، (ليبيا ـ تونس : الدار العربية للكتاب 1984م) ص305 . وأمين توفيق الطيبي ، «الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي في القرون الوسطى ، ممالك غانا ومالي وسنغاي» مجلة البحوث التاريخية . (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، يوليه 1980م) ، ع2 . س2 . ص42 .

(2) محمود كعت ، «تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس» (باريس ، نشر هوداس وبنيه 1964م) ص42 .

(3) يقصد بالبيضان عرب الشمال الإفريقي . ويذهب البعض إلى أن الذين حكموا دولة غانا كانوا قد قدموا من المناطق الشرقية من ليبيا في القرن الثاني الميلادي .
Abdoulaziz Dialo, "serie de conferences relatives aux relations entre le Mali et Monde Arabo-Islamique a partir du moyen age", le centre culturel Islamique. Bamako - Mali. première partie: l'Empire du Ghana. Aout, 1980, p: 1.

(4) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان (باريس ، نشر هوداس وبنيه 1964م) ص9 .

وقال البكري : «وغانة سمة لملوكهم وإسم البلد أوكار وإسم ملكهم البوم وكان محمود السيرة محباً للعدل مؤثراً للمسلمين»[1] .

أما بعض المؤرخين المحدثين فيجمعون على أن حكام غانا كانوا من قبائل السوننك التي تتفرع إلى عدة بطون ، منها :

الديالي والسيون وآل بكر والسليون والساخو[2] إلخ .

بلغ عدد ملوك غانا من البيضان وحدهم حوالى أربعة وأربعين ملكاً[3] وقد ورد اسم واحد منهم كان يعاصر الرسول صلى الله عليه وسلم في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) ، يدعى «كنسعي» ، واستمر الملوك يحكمون غانا حتى قرب نهاية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)[4] .

وقد ضمت دولة غانا المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر السنغال ونهر النيجر إلى مشارف الصحراء الكبرى . وفي عام 380 هـ/ 990م وصل نفوذها إلى أودغست وشملت عدة ولايات وإمارات[5] .

---

(1) أبو عبيد الله البكري ، «المغرب في ذكر أفريقيا والمغرب» ، (بغداد : مكتبة المثنى ، بدون تاريخ) ص174 .

(2) ابراهيم علي طرخان ، «امبراطورية غانا الإسلامية» ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970) ص20 .

(3) أحمد شلبي ، «موسوعة التاريخ الإسلامي» ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية العامة للتأليف والنشر 1963م) ح6 ، ص103 . آدم عبد الله الألوري ، «موجز تاريخ نيجيريا» ، (بيروت : دار مكتبة الحياة ، 1965م) ص152 .

(4) أحمد شلبي ، ح2 ، ص180 .

(5) نفسه ، ص181 . يحيى محمد محمود أحمد : «ابن الأمين الشنقيطي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية والأدبية» . (رسالة ماجستير غير منشورة) قسم اللغة العربية ، (جامعة الفاتح - طرابلس 1984م) ورقة 1 . عبد الله حشيمة ، «في أفريقيا السوداء» ، (بيروت : المطبعة الكاثوليكية 1962م) ، ص21 .

اتخذت دولة غانا عاصمة لها عرفت بإسم (كومبي صالح)[1] كانت مقسمة إلى مدينتين : مدينة يقطنها المسلمون ، وهي مدينة كبيرة وجميلة يوجد بها اثنا عشر مسجداً[2] . وقد انفرد لوثروب ـ على حد علمي ـ بإيراد هذه المعلومة حيث قال : «كانت في غانا لأوائل القرن الثامن للميلاد اثنتا عشرة مدرسة للقرآن»[3] . وكانت هذه المساجد والمدارس تعج بأرباب العلم الذين يعملون على تفقيه الأهالي في أمورهم الدينية وتدرس فروع العلوم الأخرى ، كما يمارسون فيها شعائرهم الإسلامية .

أما المدينة الثانية فهي مدينة الملك وتبعد ستة أميال عن المدينة الأولى ، وتعرف بالغابة ومبانيها متصلة بعضها ببعض مبنية بالحجارة ومسقوفة بخشب السنط ، وبها قصر الملك يحيط به سور ، وبقرب مجلس الملك يوجد مسجد يصلي فيه المسلمون الذين يفدون على الملك وحول المدينة «دكاكيرهم»[4] وسجونهم ، وبها قبور ملوكهم وكان لها حراس يقومون على حراستها[5] . وقد عمل ملوك غانا على تولية المسلمين أرفع المناصب في الدولة فقد كان منهم وزراء وأمراء جيوش وحراس وأمناء صناديق ومترجمون للملك[6] .

---

(1) كومبي صالح في لغة الزنج تعني مدينة ، وصالح اسم عربي . والكلمتان مجتمعتين تعنيان مدينة صالح . وصالح هو المؤسس الأول للمدينة ولذلك اشتق اسم المدينة من مؤسسها . يؤكد لنا اسم المدينة على أن المد العربي وصل إلى تلك الديار منذ تسميتها بكومبي صالح وما يذكره بعض المؤرخين من أن الذي أسس غانا من البيضان هو أقرب للصحة من غيره .

(2) البكري ، ص175 .

(3) لوثروب ستودارد ، «حاضر العالم الإسلامي» ، نقله إلى العربية عجاج نويهض ، ط : 2 (دار الفكر 1971م) المجلد الأول ، ج . الأول ، ص368 .

(4) الدكاكير : تعني معبوداتهم التي كانوا يصنعونها من الأحجار .

(5) البكري ، ص175 ، عصمت عبد اللطيف دندش ، «دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا 1038-1121م» ، (بيروت : دار الغرب الاسلامي 1988م) ص111 . أمين الطيبي ، مجلة البحوث التاريخية ، ع2 . س2 ، يوليه 1980م ، ص263-264 .

(6) البكري ، ص175 ، مجهول ، «الاستبصار في عجائب الأمصار» ، نشر وتعليق سعد زغلول (الدار البيضاء : دار النشر المغربية 1985م) ، ص220 . أمين الطيبي ، «دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس» ، ص306 . حسين مؤنس ، «أطلس تاريخ الإسلام» ، (القاهرة : الزهراء للإعلام العربي1987م) ص372 .

نستنتج مما تمّ عرضه ما كان المسلمون يتمتعون به من مكانة رفيعة لدى الملك وعامة الرعية ، حتى أنه كانت لهم مدينة خاصة بهم في حاضرة غانا ، بها مساجد ومدارس يمارسون فيها شعائرهم الدينية ، ولديهم مسجد في مدينة الملك فإذا ما حضروا للملك وجدوا المكان الذي يمارسون فيه دينهم . ونستخلص كذلك من النصوص السابقة أن العرب المسلمين تقلدوا أرفع المناصب في عهد دولة غانا ، الأمر الذي يعد بحق مؤشراً يقودنا إلى تحليل الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

أما من حيث الوضع السياسي فيتضح لنا ما كان يتحلى به العرب المسلمون من حنكة ودراية وبُعد أفق ودقة في التخطيط لأمور الحكم ، وهذا يدل على أن لهم معرفة بهذه المناصب لا في عهد دولة غانا فحسب ، بل كانت لهم خبرة عالية من قبل وأنهم على معرفة بإدارة شؤون الحكم . ولهذا تقلدوا أرفع المناصب السياسية في عهد دولة غانا .

أسند حكام غانا بعض المناصب العسكرية لرجال من الشمال الأفريقي ، بناء على دراية مسبقة بأن هؤلاء العرب المسلمين كانوا على درجة من الخبرة العسكرية استعمالاً للسلاح وتفنناً في التخطيط إلى غير ذلك .

أما من الناحية الاقتصادية فإن عرب الشمال الأفريقي أدوا دوراً مهماً في اقتصاد المنطقة ، وإن ممارستهم لحرفة التجارة لم تكن عبثاً أو عشوائية كما قد يتبادر للبعض وإنما كانوا على درجة من المهارة في الشؤون الاقتصادية من تجارة وغيرها . فمهنة التجارة مارسوها بناء على دراية تامة ومعرفة بالعمليات الحسابية فكانوا يطبقون الجانب العلمي في ذلك ومن ثم يحددون مواعيد للانطلاق بالتجارة كما يختارون البضائع الأكثر ربحاً ، إلى غير ذلك من المعايير فكانوا بحق على علم ودراية بهذه الشؤون . الأمر الذي دفع بملوك غانا إلى تنصيبهم أمناء على صناديقهم لما اتصفوا به من خبرة وأمانة وصدق .

أما الجانب الاجتماعي فقد أدى هو أيضاً دوراً هاماً في تقريب عرب الشمال الأفريقي إلى حكام غانا بالرغم من بعض الاختلافات .

والجدير بالملاحظة أن الوجود العربي وصل إلى تلك المناطق منذ أمد ليس بالقصير وأن الاتصالات كانت على درجة من العمق الأمر الذي مكنهم من الامتزاج بالسكان الأصليين وتقلد أزمة الأمور . وما وجود بعض القبائل العربية مثل قبيلة (الهنيهين) وهي كما يذكرها البكري من ذرية جيش بني أمية الذين أرسلوا إلى غانا في صدر الإسلام[1] . إلا دليل يؤكد الوجود العربي هناك منذ القدم . لقد سادت دولة غانا الوثنية فترة طويلة من الزمن ، ولكن نتيجة لظروف سياسية واقتصادية وجهاد المرابطين وضربات قبائل الصوصو لها ، قرّب من سقوطها .

دور المرابطين في سقوط غانا

أسَّس المرابطون دولتهم في الطرف الغربي من الصحراء الكبرى اعتماداً على الدور الفاعل لثلاث قبائل هي : جدالة ولمتونة ومسوفة ، بقيادة عبد الله ابن ياسين وإبراهيم الجد إلى عام 427 هـ/ 1035م ، فكان هدفهم نشر الإسلام[2] ، بالدرجة الأولى ، ومن ثم وجه عبد الله بن ياسين (ويحيى بن عمر اتكلالين) حركة الجهاد إلى بلاد السودان الغربي ، وتم لهم الاستيلاء على مدينة أودغست عام 446 هـ/ 1054م وبقية بلاد السودان الغربي عام 447هـ/ 1055م . وفي خضم هذه الانتصارات قتل يحيى بن عمر في إحدى المعارك ضد إحدى القبائل المتمردة من بلاد السودان الغربي ، فعيّن عبد الله بن ياسين عام 448 هـ/ مارس (أبريل) 1056م أخاه أبا بكر بن عمر خلفاً له فنهج مسلك سلفه بأن جهز جيشاً كبيراً وكان يؤازره في ذلك

(1) البكري ، ص179 .

(2) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» ، تحقيق وتعليق : جعفر الناصري ومحمد الناصري ، (الدار البيضاء : دار الكتاب 1954م) ح2 ، ص5 ، آدم عبد الله الألوري ، «الإسلام في نيجيريا» ، ط : 3 بدون دار نشر (1978م) ص22 . محمد عبد الهادي شعيرة ، «المرابطون ، تاريخهم السياسي» ، (القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة 1969م) ، ص128 .

قبائل (الفلانة)[1] الذين زحفوا معه نحو دولة غانا الوثنية وتمَّ لهم إسقاطها ودمروا عاصمتها (كومبي صالح) وأصبحت غانا جزءاً من دولة المرابطين . كان ذلك عام 469 هـ/ 1076م[2] .

غير أن انتصارات المرابطين على غانا لم تعمر طويلاً . فموت أبي بكر عام 480 هـ/ 1087م ، واختلاف أتباعه فيمن يحكم بعده ، و انشغالهم بأمور المغرب الأقصى ، جعلت المرابطين يتخلون عن العمل العظيم الذي قاموا به وراء الصحراء .

إلا أن أهم شيء تركه المرابطون بعد رحيلهم عن السودان الغربي هو العقيدة الإسلامية التي لم تتأثر بالنصر أو الهزيمة ، وهذا ما أكده الإدريسي الذي جاءت روايته بعد قرن من الزمن 549هـ/ 1154م بعد رواية البكري ، إذ يقول في معرض حديثه عن غان : «يقصدها التجار السياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى ، وأهلها مسلمون»[3] .

في خضم هذه الأوضاع السيئة التي حلت بالمرابطين في غانا ، استطاعت قبائل (السوننكة) القاطنة في إقليم الصوصو التابع لغانا أن تعلن استقلالها بعد أن فرغ لها الجو أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، بعدما تلقت غانا الضربات المؤلمة على أيدي المرابطين عام 469 هـ/ 1076م .

---

(1) يذهب بعض المؤرخين إلى أن قبائل الفلانة من فعل جيش عقبة بن نافع الفهري الذي وصل إلى مناطق السودان الغربي إبان الفتح الإسلامي . محمد بلو بن عثمان بن فودي ، «انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» ، صكتو : الناشر الحاج طن أغي طابيريرو ، 1984م ، ص223 .
J.D. Fage and Roland Oliver, "The Cambridge History of Africa". London: Cambridge University press. Vol: 2. 1978, p: 219.

(2) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ، (بيروت : مؤسسة جمال للطباعة والنشر 1979م) ، ح6 ، ص183 . علي بن أبي زرع ، «الأنيس المطرب بروض القرطاس» ، (الرباط : دار المنصورة للطباعة والنشر 1972م) ص127-128 . مجهول ، «الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية» ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، (الدار البيضاء : دار الرشاد 1979م) ، ص17 .

(3) الشريف الإدريسي ، «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ، (ليدن : مطبعة بريل ، بدون تاريخ) ص4 .

والأسرة التي كانت تحكم صوصو في ذلك الوقت فرع من أسرة سركلة تدعى (جرسو) ، ففي سنة 576 هـ/ 1180م خلعها من على العرش (جوة كنتة) من أصل البركلة ينتمي لطائفة الحدادين ، وبعد وفاته خلفه (سومانكورو) الذي أدى دوراً كبيراً في توسيع رقعة الصوصو فضم (وغدو وبضنة) اللتين كانتا تابعتين لـ (كومبي صالح) وتقعان على ضفتي نهر النيجر الأعلى[1] .

إضافة إلى الأعمال السابقة فقد استطاع (سومانكورو)[2] في مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أن يستولي على عاصمة غانا عام 600 هـ/ 1203م . وبهذا النصر طرد مسلمو غانا وفروا إلى مدينة (ولاته)[3] بزعامة الشيخ (إسماعيل) الذي عمل على تكوين مركز تجاري تعويضاً عما لحقه من خسائر في بلاده . وقد حكم من 615-628 هـ/ 1218-1230م[4] .

أراد (سومانكورو) أن يمد منطقة نفوذه أمام هذا النصر الذي حققه[5] ، فهاجم (الماندنجو) في الجنوب ، غير أن نشوة النصر لم تتم له فهزم في معركة (كبرينا) حوالى عام 633 هـ/ 1235م . وبذلك استولى (الماندنجو) على بلاده ،

---

(1) عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، في ظل الإسلام» ، (القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة 1964م) ص86-87 .

(2) يُطلق عليه كذلك سومانغور ، نعيم قداح ، «أفريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، مراجعة عمر الحكيم ، (كوناكري : 1960م) ص48 .

(3) مملكة صغيرة بها ثلاث قرى يقطنها السكان وقد جعل شعوب ليبيا ولاتة مقراً لحكم الحسن بن محمد الوزان . «وصف إفريقيا» ، ترجمه عن الفرنسية محمد حجى ومحمد الأخضر ، ط : 2 (بيروت : دار الغرب الإسلامي ، الرباط : الشركة المغربية للناشرين المتحدين 1983م) ، ج2 ، ص161 .

(4) عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص86-87 .

(5) عبد القادر زبادية ، «مملكة سنغاي في عهد الاسيقين» ، (الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، بدون تاريخ ، ص21 ، و :

Joseph Ki-Zerbo, "Historie de l'Afrique Noire". Paris, Hatier, 1978, p: 13.

وفـرَّ من بقي مـن الصـوصـو نـاجين بأرواحـهـم إلى منطقـة التكرور بعـد وفـاة ملكهم الذي قتل برمح مسموم في أرض المعركة[1] .

لا يعتبر هذا التـاريخ بداية مملكة مـالي الإسلامية ، غيـر أنه يعد في حد ذاته لانتشار سلطانها على معظم السودان الغربي ومؤشراً إلى نشوء مملكة مالي الإسلامية .

قيام مملكة مالي الإسلامية

ترك تفكك دولـة غـانا الوثنيـة عـام 469 هـ/ 1076م على أيدي المرابطين فراغاً سياسياً في المنطقة ، الأمر الذي دفع الأقاليم الإفريقيـة المنضوية تحت لواء غانا المندحـرة إلى تكوين كيانات مستقلة ، ونتج عن صراعـهـا من أجل السلطة والسيـادة أن آل الأمر أخيـراً إلى قبـائـل (الماندنجو) المسلمـة القـاطنة في إقليم (كانجاب) التي يرجع إليها الفضل في إنشاء مملكة مالي الإسلامية .

وقـد قاد الملك سندياتا كـيتـا 636-653 هـ/ 1238-1255م قبائل الماندنجو إلى النصر ، إذ هزم مملكة الصـوصو المنافسة بـزعامة (سومـانكورو) ، وأتاح هذا النصـر له ولرفـاقه السيطرة على جل الأجـزاء التي كـانت ضـمـن نطاق دولة غـانا ، وأن يقـيـمـوا دولتـهـم الجـديدة التي عـرفت في التـاريخ بمملكة مـالي الإسلامية وذلك عام 638 هـ/ 1240م[2] .

أصـبـحت أراضي وممتلكات دولة غـانا الوثنيـة ضـمن نطاق مملكة مالي الإسـلامـيـة الجـديـدة ، منذ أن انـتـصـرت قـوات (سندياتا كـيـتـا) على قـوات

---

(1) حسن ابراهيم حسن ، «انتشـار الاسلام في القارة الإفريقية» ، ط : 3 (القـاهرة : مكتبة النهضة المصرية 1984) ص5 . أحمـد سويلم العمـري ، «الافريقيـون والعرب» ، (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية 1967م) ص27 .

(2) نعيم قداح ، «إفريقيا الغربية في ظل الإسلام» ، ص49 ، آدم عبد الله الألوري ، «موجز تاريخ نيـجيريا» ، ص155 . عبـد الله حشيـمـة ، ص224 . علي عبـد الله الخاتم (التـعليم في غرب افـريقيا ، مجلة دراسـات إفريقية) ، (الخرطوم : المركز الإسلامي الإفريقي ، أبريل 1987م) ع3 ، ص23 .

(سوموناكورو) ، وظهرت مالي تضم الأجزاء الشمالية إلى جانب الإقليم الجنوبي[1] . وقبل أن نتحدث عن أعمال سندياتا كيتا ، نوضح شيئاً مهماً ألا وهو أصل (الماندنجو) التي ارتكزت عليها مملكة مالي الإسلامية .

قال طرخان : «والتسمية المتداولة بين قبائل الماندنجو هي المانكا Manenka ، أو الماندنكا Mandinka أو الماندن Mandin أو مانج Maning أو مانجا Manenga أو ماندنج Mandeng ، وهي كلها متقاربة»[2] .

يتضح من خلال ما تمّ عرضه أن الكلمة واحدة وهي الماندنجو ، ولكن الاختلاف نتج عن تباين لهجات القبائل ، الأمر الذي يعطيها عدة تسميات هي في حقيقتها واحدة .

أما القنصي فيقول : «إن هذه التسميات أخذ بها العديد من الشعوب الذين احتكوا بهذه القبائل فأطلقت قبائل وادي على هذه القبائل اسم الماندنجو ، ثم أطلق (الفولانيون) و(التكاررة) عليها اسم (المالنك) ، أما القبائل «موسى» فأطلقت كلمة ونقارة وكان يقصد بها الماندنج وبالأخص فرعيه السوننكي والجولاء»[3] .

أما السعدي فذكر أن مؤسس هذه السلطنة هو شعب زنجي أصيل[4] .

أما عن كلمة مالي فقد ورد فيها شيء من الاختلاف ، فقبائل البامبارا أحد فروع الماندنجو تستخدم كلمة «ماني» للدلالة على مجموعة قبائل الماندنجو[5] والبكري يطلق عليها (ملل)[6] والسعدي يسميها

---

(1) Mahmoud. A. Zouber, "Ahmed Baba Toumbouctou" (1556-1627), Sa vie et son oeuvre. g. p. Maisonneuve et Larouse. 1977. p: 2.

(2) إبراهيم علي طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973م) ، ص27 ، أحمد سويلم العمري 2 ، ص27 .

(3) الحسن القنصي ، «التطور التاريخي لمالي» ، بحث مقدم إلى المركز الثقافي الليبي ، باماكو : مالي 1985م ، ورقة 2 .

(4) عبد الرحمن السعدي ، ص9 .

(5) الحسن القنصي ، ورقة 2 .

(6) البكري ، ص178 .

(ملي)[1] وكعت يعرفها (مل) ويقول : «إن مل مشتمل على أربعمائة مدن . . .[2] ، أما العرب المغاربة فيطلقون عليها (مل) أو (مليت) . في حين نجد الهوسا يدعونها (بالونجار)[3]» . وقد أطلق عليها ابن بطوطة اسم مالي حيث قال : «تم سرنا من كارسخو . . . وهو على نحو عشرة أميال من مالي»[4] .

غير أن طرخان قال إن كلمة «مالي» أو «مل» هي ما عرفت به هذه الدول في الكتب العربية والأجنبية ، وهذه التسمية استعملتها قبائل الفولانيين لبلاد الماندنجو وهي تحوير لكلمة (ماندي) التي تعرف عند السوننك بالعاصمة وكلمة (مالئك) تعني عند الفولانيين رعايا مالي أو سكان مالي[5] .

وقبائل الماندنجو من أرقى أجناس أفريقيا وقد قيل فيهم إنهم من أكثر أجناس إفريقيا رقياً وأكثرهم ذكاء وأجدرهم بالاحترام والتقدير وكانوا أكثر الفئات تحمساً للإسلام ونشره[6] .

أما عن حدود هذه المملكة فقد أوردها القلقشندي قائلاً : «وحدَّها في الغرب البحر المحيط وفي الشرق بلاد البرنو وفي الشمال جبال البربر وفي الجنوب الهمج»[7] .

---

(1) عبد الرحمن السعدي ، ص9 .
(2) محمود كعت ، ص38 .
(3) حسن أحمد محمود ، «دور العرب في نشر الحضارة في غرب أفريقيا» ، مجلة كلية الآداب (القاهرة : 1959م) ، ع15 ص59 .
(4) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي ، ابن بطوطة ، «رحلة ابن بطوطة» (بيروت : دار صادر بدون تاريخ) ، ص681 .
(5) إبراهيم طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ، ص30 .
(6) الحسن الوزان ، ح2 ، ص165 ، توماس ، أرنولد ، «الدعوة إلى الإسلام» ، ترجمه إلى اللغة العربية حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النمراوي ، ط3 (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية 1970م) ص356 . أحمد شلبي ح7 ص222 . الشيخ الأمين عوض الله ، «العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين مالي وسنغي» (جدة : دار المجمع العلمي 1979م) ص51 .
(7) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، «صبح الأعشى» ، (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، بدون تاريخ) ح5 ، ص212 .

أما الحسن الوزان فإنه يوضح بأن مالي تمتد على أحد فروع النيجر في مساحة نحو ثلاثمائة ميل ، وهي متاخمة لمملكة غانا في الشمال وتتاخمها جبال وعرة وصحراء من الجنوب . أما من الغرب فتحدها غابات كثيفة حتى المحيط ومن الشرق يحدها إقليم كاغو[1] .

وقد أوضح حسن إبراهيم حسن أن مالي واقعة بين بلاد برنو من جهة الشرق والمحيط الأطلسي من الغرب وشمال جبال البربر[2] .

أما زبادية فيرى أن مالي تشمل مالي الحالية وأعلى السنغال الشرقي وشمال غينيا . وكذلك شمال كل من فولتا العليا والداهومي والجنوب الأقصى من جمهورية موريتانيا[3] . مما جعل بعض المؤرخين يقدر طولها من الغرب إلى الشرق بأربعة أشهر ومن الشمال إلى الجنوب بمسيرة ثلاثة أشهر[4] .

وإزاء هذه الآراء المتباينة حول حدود مملكة مالي الإسلامية ، نستخلص أنها كانت مملكة مترامية الأطراف ، وهذه المساحة الشاسعة مكنتها من نهضة اقتصادية ، وهذا ما يثبته الباحث في الفصل الثاني .

لقد اتخذت هذه المملكة حاضرة لها عرفت بـ (بنياني) أي بمعنى المدينة الآمنة ، ويرجع الفضل في تأسيسها للملك سندياتا كيتا الذي عمل على هزيمة الصوصو في معركة (كبرينا) عام 633 هـ/ 1235م وخرب عاصمتها جريبه وأنشأ حاضرة اختار لها موقعاً يتوسط المملكة ولا تبعد عن مدينة جنى إلا مسيرة بضعة أيام[5] .

أما عن سندياتا كيتا مؤسس مملكة مالي الإسلامية 633 ـ 653 هـ/ 1235 -1255م . فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن أسرة كيتا لم تكن الأولى في حكم مملكة مالي الإسلامية ، إذ سبقتها إلى الحكم أسر لم تكن معروفة

---

(1) الحسن الوزان ، ح2 ، ص164 .

(2) حسن إبراهيم حسن ، ص102 .

(3) عبد القادر زبادية ، ص21 .

(4) نفسه ، ص21 .

(5) عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية السودانية» ، ص97 .

مثل أسرة كيتا ، غير أنها أدت دوراً ما ثم انتهت من مسرح الأحداث دون أن تخلف وراءها شيئاً يذكره التاريخ .

ومن هذه الأسر أسرة (باكابوكو) ومن بعدها أسرة (تراوري) وأسرة (كوفاتي) والكوناتين والكامارووين[1] .

وإذا ما صدقنا الروايات التي تتحدث عن مالي التي كانت متزامنة في قيامها مع غانا قبل البعثة المحمدية وأن مالي في تلك الفترة كان نموها تدريجياً في إقليم (كانجابا) بأعلى نهر النيجر ، فإننا نصدق خبر الأسر المذكورة على الرغم من قلة ما كتب عنها[2] .

فنجد الرحالة إبن بطوطة عند زيارته لمالي في غرة محرم عام 357 هـ/ 1352م[3] لم يذكر من قريب أو بعيد شيئاً عن فترة حكم هذه الأسر سوى ما أورده بعض الكتاب المحدثين مثل طرخان عن أسرة تراوري التي ظهرت في منطقة (كيري) وتقول الروايات المتناقلة أن ملكها اعتنق الإسلام ويدعى (منسا نومن)[4] .

أما أسرة (الكوناتيين)[5] فظهرت في شمال منطقة كيري واتخذت مدينة (طابو) أو تابو عاصمة لها[6] .

---

(1) الحسن القنصي ، ورقة 7 .

Joseph Ki-Zerbo, p: 130, Sckene. "Mody Sissoko. Tombouctou l'empire de Son-ghai". Dakar, les nouvelles editions opicaues. Dakar. 1975. p: 51.

(2) يرى ابن خلدون أن يرمندان حكم مالي وحج واقتفى سنته الملوك من بعده . ابن خلدون ، ج6 ، ص200 .

(3) ابن بطوطة ، ص673 .

(4) إبراهيم طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ، ص33 . و :

Joseph Ki-Zerbo. p: 130.

(5) الكونانيين نسبة إلى القبيلة العربية المعروفة بقبيلة كنتة التي قسمها بول مارتي حسب تقسيمه الاستعماري إلى كنتة الشرقيين والغربيين .

(6) نفسه ص33-130 .

وإن الأسرتين السالفتي الذكر قد حكمتا المنطقة المعروفة بدولة مالي الشمالية وهي الدولة المكونة من إقليم (كيري) و(دوجو) وتعرف بتسميات أخرى وهي دونى وكيري[1] .

ومن خلال استقراء الحديث مع العديد من المثقفين الماليين والاستماع للعديد من الروايات الشفوية التي تحكي قصة قيام مملكة مالي الإسلامية ، فإن الباحث يميل إلى رأي طرخان ولكن لا يعتبر هذه الأسر هي المؤسس الحقيقي للمملكة ولكنها في حد ذاتها المؤشرات الأولى لقيامها .

وبالرغم مما أثير حول تحديد فترة بداية مالي وتزامنها مع قيام دولة غانا الوطنية فإنه من المرجح أن مالي لم تكن قبل القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي سوى جزء من أجزاء دولة غانا الوثنية .

سندياتا كيتا يعتلي عرش مملكة مالي الإسلامية

ينتسب سندياتا كيتا إلى ابن ناري فامغان بن ناري فامغان بن موسى كيتا المشهور بموسى الأكوري[2] . وقد اشتهر سندياتا بلقب (ماري جاطه)[3] .

وأما عن حياته فلم تحدد المصادر والمراجع تاريخ ولادته إلا أن بعضها أشار إلى أنه كان «معتلّ الصحة» وأصغر إخوته ، وقد استطاع أن يخلص شعبه من سطوة الصوصو ويقوده إلى النصر ويوطد نفوذه في الأقاليم التي دخلت في إطار دولته الناشئة ، فقد قام بوضع أساس نظام إداري حيث قسّم دولته إلى أقاليم ، يحكم كل إقليم حاكم من العائلة المالكة على أساس وراثي . وما

---

(1) نفسه ص34-35 .

(2) حسن القنصي ، ورقة 20 .

(3) ابن خلدون ، ح6 ، ص200 ، القلقشندي ح5 ، ص293 .

نعيم قداح ، «أفريقيا الغربية في ظل الإسلام» ، ص50 . وحسن إبراهيم حسن ، ص103 .

Sckene Mody Sissoko, p: 51.

حلّ عام 633 هـ/ 1235م [1] ، إلا وكان نظام حكمه قد توطد . وهذا ما أكده ابن خلدون حيث قال : «وكان ملكهم الأعظم تغلب على صوصو وافتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه (ماري جاطه)» .

وهكذا يعتبر حكم سندياتا الذي دام زهاء العشرين سنة عهداً مشرقاً ، إذ شهد تطوراً ملحوظاً في كافة نشاطات مملكة مالي الإسلامية .

وبعد مضي عشرين سنة على توطيد دعائم حكمه وافته منيته عام 653 هـ/ 1255م[2] .

تولى حكم البلاد بعده ابنه (منسا علي) بمعنى السلطان علي وهو الابن الأكبر لسندياتا كيتا وعُرف بالملك الأحمر نظراً لأنه كان أبيض البشرة[3] . ولعل ذلك راجع إلى ما ذهب إليه طرخان استناداً على الرحالة فيدال من أن سلف أسرة كيتا جاء من اليمن[4] أو ربما كان والده متزوجاً بامرأة من العرب الذين كانوا مستوطنين هناك .

أما فيما يختص بمملكة مالي الإسلامية في عهد (منسا علي) فإنه اعتمد على قواد أبيه ومستشاريه الذين قاموا بمساعدته في توسيع رقعة مملكته . فقد قام (سفكروماسيوكو) بضم «بانبول» وأسر «ماكيتا» واستولى على (كونكودوجو) (وساني نيانجا) (وسنانجاران)[5] .

---

(1) ابن خلدون ، ح6 ، ص200 .
أعطى ابن خلدون تفسيراً (لماري جاطه) ، فماري بمعنى الأمير الذي يكون من نسل السلطان ، وجاطه الأسد . ابن خلدون ، ح6 ، ص200 كما أورد طرخان تفسيراً آخر لمادي جاطة فقال : ماري هو اللقب ومدلوله تحريف لكلمة (محمدو) أي محمد وان اختلاف نطق الكلمة راجع إلى اختلاف لهجات القبائل ، طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ، ص40 .

(2) نعيم قداح ، «إفريقيا الغربية في ظل الإسلام» ، ص50 .
Sckene, Mody Sissoko, p: 52

(3) نفسه والصفحة نفسها .

(4) ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ، ص35 .

(5) تقي الدين ، أحمد على المقريزي ، «الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك» ، تحقيق وتعليق جمال الدين الشيال ، (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1955) ص110 . إبراهيم طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ، ص94 .

إلى جانب ذلك قام برحلة للحج في عهد الظاهر بيبرس سلطان مصر المملوكي . وقد كانت تتبعه قافلة ضخمة اتخذت خط سيرها عبر الطريق الصحراوي في الأراضي الليبية مارة بمدينة (غات) متجهة نحو مصر ومنها إلى الأراضي المقدسة . وكان لهذه الرحلة صداها الواسع في مناطق أفريقيا والعالم العربي لما كانت تحمله من الذهب والعبيد وخيرات مالي[1] .

كما كان من أعمال هذا الملك غزو (جنجرا) و(ونقارة) اللتين يوجد بهما مناجم غنية بالذهب ، كما قام بالزحف على بعض مناطق السنغال والاستيلاء على بعض الرهائن من صنغي ، منهم ابن ملكها نفسه ذو ياسين وهي دويلة ناشئة تقع على حوض النيجر الأوسط ، وقد اتخذ (منسا علي) أولئك رهائن حتى يضمن لنفسه الولاء[2] .

وخلاصة القول إن فترة (منسا علي) اتسمت بالرخاء إلى حد ما وبالتوسع في المناطق المجاورة والسيطرة على بعض مناجم الذهب الذي يمثل المصدر المهم في حياة هذه المملكة . وقد استمر حكمه حوالى خمس وعشرين سنة .

بعد وفاة (منسا علي) تولى زمام الحكم سبعة ملوك ضعاف ، لم يكن لهم دور يذكر إلى أن انتزع (ساكورة)[3] الحكم من أسرة كيتا بعد انقلاب تمَّ فيه قتل السلطان الشرعي للبلاد . و(ساكورة) ليس من البيت الحاكم ، وإنما هو مولى من الموالي . كان ذلك عام 684-700 هـ/ 1285-1300م[4] .

وقد قام بأعمال جليلة بتوسيع رقعة مملكته بفتحه بلاد (كوكو) وضمها إلى مملكته . كما غزا بلاد (التكرور) في الغرب وونقارة وجاو حتى أصبحت شعوب السودان الغربي تخشى بأسه[5] .

---

(1) آدم عبد الله الألوري ، «موجز تاريخ نيجيريا» ، ص155 . عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية السودانية» ، ص103 ، المقريزي ص111 .

(2) إبراهيم طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ، ص64 .

(3) ساكورة ، يطلق عليه عبد الرحمن زكي ساكبورة ، عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية السودانية» ، ص103 .

(4) ابن خلدون ، ح6 ، ص200 .

(5) عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية السودانية» ، ص103-104 . نعيم قداح ، «إفريقيا الغربية في ظل الإسلام» ص51 . المقريزي ، ص111 .

وقد شهد عهده استتباباً في الأمن والنظام وانتعاشاً في الحياة الاقتصادية بتوافد التجار المغاربة على مالي[1] . يدل ازدهار التجارة في تلك الفترة على الرخاء والأمن اللذين سادا في ظل حكم (ساكورة) .

وقد قام برحلة إلى الحج في أيام الملك (الناصر محمد بن قلاوون) . وعند رجوعه من الأراضي المقدسة اختار طريق أكسوم في الحبشة حيث توجه إلى السودان الشرقي عن طريق البحر الأحمر . عند وصوله إلى البر باغته أهالي (الدناكل)[2] وقتلوه عند ساحل مدينة (تاجورة) بالصومال عام 700 هـ/ 1300م ، وبذلك أسدل الستار على حكمه الذي استمر خمسة عشر عاماً[3] .

وبالرغم من أن (ساكورة) قد اغتصب الحكم من البيت المالك في مالي ، فإن عهده كان مشرقاً في كافة المجالات حيث نعمت مالي باستقرار سياسي واقتصادي طيلة فترة حكمه . وهذا يدل على أن تسيير دفة الأمور بكفاءة في الدولة ليست حكراً على البيت المالك ، ولولا أن المنية عاجلت ساكورة ، لوصلت مملكة مالي الإسلامية إلى أرقى مدارج التطور والحضارة في ظل حكمه الرشيد .

منسا موسى ورحلته للحج

بعد مقتل ساكورة انتقل عرش مالي إلى أسرة كيتا حيث تولى ملوك ضعاف ليس لهم دور يذكر ، إلى أن تولى مقاليد الأمور منسا موسى 707 - 733 هـ/ 1312 - 1337م[4] الذي اكتسب شهرة عظيمة لاتصالاته بالعالم الخارجي وبتوطيد أركان حكمه في السودان الغربي وللثراء والرخاء

---

(1) ابن خلدون ح6 ، ص200 .

(2) الدناكل : قبيلة من القبائل المتجولة على ساحل البحر الأحمر الغربي . إبراهيم طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ص69 .

(3) ابن خلدون ح6 ، ص200 ، عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية السودانية» ص104 .
Sckene Mody Sissoko. p: 53.

(4) ابن خلدون ، ح6 ، ص200 .

اللذين تمتعت بهما دولته . وقد تلقّب بألقاب عديدة ومن بينها لقب (كنكه موسى) أو كونكور موسى وجوغو وكانكير وناناكانكو[1] . كما اشتهر باسم (كي مل) أو (مل كي كنكه موسى) ، وكلمة كي يقصد بها حاكم ، ومجمل المعنى كنكه موسى حاكم مل[2] .

وقد ذكرت المصادر عدة أسماء للسلطان منسا موسى فقد اتفق ابن خلدون والقلقشندي وابن كثير على أن إسمه منسا موسى أبو بكر[3] .

أما كتاب مرآة الجنان وعبر اليقظان ، فقد أضاف إلى ذلك أنه موسى بن أبي بكر بن أبي الأسود[4] .

غير أن كتاب «بدائع الزهور» أعطاه لقباً جديداً هو موسى بن أبي سالم التكروري[5] .

وبالرغم مما أشير إليه من أسماء وألقاب ، فإنه يلاحظ أن ذلك الاختلاف ليس بذي قيمة تذكر .

وأما عن بداية تولى منسا موسى حكم مالي ، فإنه ورد اختلاف في السنة التي تولى فيها السلطنة والسنة التي توفى فيها . فقد أورد أحدهم أن منسا موسى تولى الحكم عام 1313-738 هـ/ 1312-1337م ، وذهب آخر إلى أنه تولى عام 713-739 هـ/ 1313-1338م ، وذهب ثالث إلى أنه تولى

---

(1) شارل اندريه جوليان ، «تاريخ أفريقيا» ، ترجمة طلعت عوض أباظة ، مراجعة عبد المنعم ماجد ، (القاهرة : دار النهضة 1968م) ، ص135 .

(2) إبراهيم زكي وخورشيد وآخرون : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تمبكتو ، ط : 3 (القاهرة : دار الشعب 1969م ، المجلد العاشر ، ص013 ، إبراهيم طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ص3 .

(3) ابن خلدون ح6 ، ص200 ، أبو الفداء الحافظ ابن كثير ، «البداية والنهاية» (بيروت : مكتبة المعارف 1966م) ح4 ، ص200 ، القلقشندي ، ح5 ، ص294 .

(4) أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان عفيف الدين اليافعي اليمني المكي ، «مرآة الجنان وعبر اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان» ، (حيدر أباد الدكن 1331هـ) ح4 ، ص271 .

(5) محمد بن أحمد الحنفي ، «بدائع الزهور في وقائع الدهور» تحقيق محمد مصطفى ، ط : 2 (القاهرة : 1963) ح1 ، ص163 .

707-733 هـ/ 1307-1332م كما نجد طرخان يرى أن منسا موسى تولى الحكم في الفترة ما بين 712-733 هـ/ 1312-1337م . وأمين الطيبي يذهب إلى أبعد من ذلك ويورد أنه تولى 721-738 هـ/ 1321-1337م[1] . أما عبد الفتاح إبراهيم فيمدنا بسنة التولية فقط حيث يشير إلى عام 707 هـ/ 1307م[2] .

وعند الوقوف على اختلاف الآراء حول بداية حكم منسا موسى ، نرى أقرب الفرضيات هو عام 712 هـ/ 1312م ، إذا نظرنا إلى أنه قام برحلة الحج عام 725 هـ/ 1324م . فبديهي انه استغرق وقتاً كافياً لتوطيد دعائم دولته قبل الشروع في رحلة الحج . ولذا يستبعد عام 721 هـ/ 1321م ، وذلك لأن فترة السنوات الثلاث غير كافية لاطمئنان منسا موسى على أركان حكمه .

أما عن تاريخ وفاته ، فإننا نميل إلى ما ذهب إليه ابن خلدون والشيخ الأمين عوض الله اللذان حددا فترة حكمه بخمس وعشرين سنة ، وابن خلدون أقرب إلى فترة منسا موسى من غيره . وهذا يؤكد الرأي الذي يحدد وفاته بعام 738 هـ/ 1337م .

أما عن سيرته السياسية فقد واجه تحديات كبيرة وخطيرة عند توليه الأمور في مالي ، فقد كانت الاضطرابات والفتن تسود البلاد بعد مقتل ملكها القوي ساكورة عام 700 هـ/ 1300م . ولم يستطع خلفاء ساكورة الضعفاء السير بها نحو شاطئ الأمان ، فوقع العبء على منسا موسى الذي تمكن من الحفاظ على النظام والأمن حتى وصل بالبلاد إلى درجة عالية من الرفاهية والازدهار ووطد علاقاتها بما جاورها من بلاد ، وبلغ صيتها بلاد الأندلس وأوروبا والمشرق العربي . وقد أهَّله تقواه وصلاحه وعطفه على رعيته أن يكسب حبهم وتقديرهم ، ومن ثم يضمن استقرار حكمه وتوطيد دعائمه[3] .

---

(1) الشيخ الأمين عوض الله ، ص53 .

(2) محمد عبد الفتاح إبراهيم ، «إفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا» (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية 1961م) ص102 .

(3) Joseph Ki-Zerbo, p: 133.

وفي هذا الشأن يرى كعت أنه كان سلطاناً تقياً عباداً يعتق كل يوم ألفاً[1] . ويضيف ابن خلدون قائلاً : «كان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً له في العدل أخبار تؤثر عنه»[2] .

أما السعدي فيرى أنه : «صالح عادل لم يكن فيهم مثله في الصلاح والعدل»[3] .

هذا وقد أورد ابن بطوطة عن مآثر السلطان منسا موسى أنه سخي كريم يحب العلماء البيضان ويجزل لهم العطاء وهو الذي منح (أبا اسحاق الساحلي) مبلغاً ضخماً وقدره أربعة آلاف مثقال[4] . وعن عرفانه بالجميل ، أورد ابن بطوطة قصة رجل يدعى (ابن شيخ اللبن) وكيف أن الأخير عطف على السلطان منسا موسى عندما كان صغيراً بسبعة مثاقيل وثلث . وقد دارت الأيام وتولى منسا موسى مقاليد الأمور وجاءه ابن شيخ اللبن في خصومة ، فعندما عرفه منسا موسى أجلسه بجواره ، واستشار أصحابه فيما يفعله بمن أحسن إليه في صغره ، فقالوا الحسنة بعشرة أمثالها ، فأعطاه سبعين مثقالاً نزولاً على ما أشار به عليه أصحابه ، ثم منحه سبعمائة وكسوة وعبيداً وخدماً ، ثم أوصاه بمواصلته باستمرار[5] .

نستخلص من كل ذلك ما كان يتحلى به السلطان منسا موسى من عرفان بالجميل وعطف على الفقراء والتزام بمبدأ الشورى وهي من صلب الشريعة الإسلامية .

وقد ورد عن شمائله أنه «من أحسن الناس وأطعمهم للطعام وأشهرهم تواضعاً ، له كلام مستعذب في التصوف وكلمه أفصح من لسانه»[6] .

---

(1) محمود كعت ، ص32 .

(2) ابن خلدون ، ح6 ، ص200 .

(3) عبد الرحمن السعدي ، ص7 .

(4) ابن خلدون يرى أن المبلغ أكثر من ذلك بكثير ، إذ بلغ إثني عشر ألف مثقال من التبر ، ويؤكد ذلك صاحب الاستقصاء ، ابن خلدون ، ح6 ، ص201 . الناصري : «الاستقصاء» ح3 ، ص152 .

(5) ابن بطوطة ، ص690 .

(6) Sckene Mody Sissoko, P: 54.

أما عن رحلة السلطان منسا موسى للحج فقد قام عام 725 هـ/ 1324م برحلة إلى الأراضي المقدسة وكان برفقته زوجته (ناركنت) وموكب كبير ، اختلف المؤرخون في عدده وكمية الذهب التي يحملها ، فذهب البعض إلى حد قوله «وخرج بعدما وصل رأس قافلته بتنبكت وهو بداره في مل» .

كما أورد أن عدد العبيد وصل ما بين ثمانية إلى تسعة آلاف إلى سبعمائة ألف عبد وحمل أربعين بغلة ذهباً[1] . وذهب آخر إلى أن السلطان منسا موسى كان برفقته أعداداً هائلة من رعيته وصل تعدادها إلى ستين ألف رجل وخمسمائة عبد ، وبيد كل واحد منهم عصا من الذهب تزن كل عصا خمسمائة مثقال[2] .

ويأتي ابن خلدون بشيء عن الرحلة ذاكراً كمية الذهب في موضعين مختلفين . فقد ذكر مرة أنها مائة حمل من التبر في كل حمل ثلاثة قناطير ، من الذهب ، وذكر في الموضع الثاني ثمانين حملاً من التبر كل حمل ثلاثة قناطير[3] .

كما أورد طرخان أن السلطان منسا موسى حمل معه ثمانين حملاً من التبر ، وفي كل حمل ثلاثة قناطير[4] .

ومما لا شك فيه أن ما ذهب إليه العديد من المؤرخين حول الأعداد الهائلة من البشر وكمية الذهب التي حملها هو موضع تساؤل؟ ولذلك يعتقد الباحث أن هذه الأعداد والأرقام فيها الشيء الكثير من الخيال ، وهذا ليس غريباً عن الأحداث الصحراوية . فالرواية التاريخية تحتمل الزيادة والنقصان ، وقصة رحيل السلطان منسا موسى هي جزء من الروايات الصحراوية التي غذتها الأيام والسنين .

---

(1) محمود كعت ، ص 33-34-35-36 . محمد الغربي ، «بداية الحكم المغربي في السودان الغربي» ، (بغداد : دار الرشيد 1982) ، ص48 .

(2) عبد الرحمن السعدي ، ص7 . بوفيل ، «الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب» ، ترجمة زاهر رياض ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية 1968) ، ص117 .

(3) ابن خلدون ، ح5 ، ص234 وح6 ، ص200 .

(4) إبراهيم طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ، ص36 .

ولكن لا ننكر في الوقت نفسه الثراء الذي كانت عليه مملكة مالي الإسلامية ، والذي يهمنا في هذه الرحلة المناطق التي مرَّ بها ركب السلطان المالي في طريقه للحج . فقد أورد ابن خلدون قائلاً : «لما خرج منسا موسى من بلاد المغرب للحج سلك طريق الصحراء وخرج عند الأهرام بمصر»[1] .

وذكر السعدي أن السلطان المالي سلك طريق ولاتة وتوقف في (توات) حيث تخلف عدد كبير من مرافقيه بسبب مرض أصابهم في أرجلهم يعرف بتوات[2] . أما عبد الرحمن زكي فقد قال : «مرَّ بولته وتوات (ورجله) فشاطئ البحر المتوسط في برقة واتجه منها بإزأ الساحل إلى القاهرة»[3] .

وعند حلوله بالقاهرة استقبل استقبالاً رسمياً وشعبياً ، وكان يحكم مصر في تلك الفترة محمد بن قلاوون الذي أسند أمر مقابلة ومرافقة ضيفه إلى (أبي العباس أحمد بن علي الخاقاني) . كما أحاطه برعاية خاصة حيث أنزله في قصر عند القرافة الكبرى ، ولم يكتف بذلك بل ملكه إياه .

إضافة لذلك فقد استقبل ابن قلاوون ضيفه وقرَّبه منه ومنحه العطايا بسخاء من خيل وإبل وحرير وتموين إلى غير ذلك[4] ، وفي المقابل قدَّم السلطان منسا موسى إلى «الخزانة السلطانية» حملاً من التبر ، منهم من قدَّره بحوالى خمسة آلاف مثقال ، والبعض قدره بحوالى خمسين ألف دينار .

كما أغدق السلطان المالي الذهب على كل من لديه وظيفة في الدولة المصرية[5] . مكث السلطان منسا موسى ووفده ينتظرون موعد الحج ، وعندما

---

(1) ابن خلدون ، ح5 ، ص234 .

(2) عبد الرحمن السعدي ، ص7 . بوفيل ، «الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا» ص117 .

(3) عبد الرحمن زكي ، «الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا» (مطبعة يوسف : بدون تاريخ) ص35 .

(4) ابن خلدون ، ح6 ، ص200 . القلقشندي ، ح5 ، ص295 ، صلاح الدين المنجد ، مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين ، ط : 2 (بيروت : دار الكتاب الجديد 1982م) ، ص63 . إبراهيم طرخان ، «دولة مالي الإسلامية» ، ص83 .

(5) ابن خلدون ، ح6 ، ص201 . صلاح الدين المنجد ، ص63 . عبد الرحمن زكي ، «الاسلام والمسلمون في غرب إفريقيا» ، ص53 .

حان انطلق إلى الأراضي المقدسة حيث أدى فريضة الحج ، وتصدق بمبلغ من المال قدِّر بعشرين ألفاً من الذهب[1] . وعند رجوعه من الحج رافقه أربعة من الموالي والمهندس أبو اسحاق الساحلي الذي عرض خدماته على السلطان منسا موسى فضمه إلى حاشيته[2] . بينما هم في طريق العودة من الأراضي المقدسة ضل الركب طريقه فنفد الكثير من زادهم وهلك العديد منهم ، إلى أن وصلوا مصر فأصبح ما بيد السلطان منسا موسى من الزاد والأموال قليلاً ، مما جعله يبيع القصر الذي منحه إياه السلطان محمد بن قلاوون ، كما أقرض سراج الدين السلطان المالي وأتباعه مبلغ خمسين ألف دينار ، وعندما رجع السلطان منسا موسى إلى بلاده بعث سراج الدين وكيله معه لكي يسترد المال الذي اقترضه منه ، وعندما تأخر الوكيل ذهب سراج الدين وابنه إلى منسا موسى ولما وصلا إلى مدينة تمبكتو استضافهما أبو اسحاق الساحلي ، فمات سراج الدين فتكلم الناس في ذلك كثيراً فقال لهم إبنه إذا مات أبي مسموماً من الأكل فلماذا لم أمت أنا؟ ! المهم قابل ابن سراج الدين السلطان وأخذ ماله[3] .

أما عن عودة السلطان منسا موسى إلى مملكة مالي الإسلامية بعد أداء فريضة الحج ، فقد رجع عبر الأراضي الليبية وقد مرَّ بمدينة غدامس واصطحب معه المهندس أبا عبد الله الكومي الموحدي الغدامسي ، وهو الذي شارك في بناء جامع سنكري وبقية المساجد والمباني الأخرى في المنطقة . وأصبح فيما بعد مستشاراً له[4] .

هذا عن رحلة السلطان منسا موسى ، أما عن حدود مملكة مالي في عهده ، فقد ورد في ذلك أن السلطان منسا موسى بعد أن استتبّ له الحكم عمل على توسيع رقعة بلاده بضم الأقاليم المجاورة له ، حيث بادر بالاستيلاء ،

---

(1) عبد الرحمن السعدي ، ص7 .

(2) ابن خلدون ، ح6 ، ص200 . محمود كعت ، ص37 . نعيم قداح ص53-54 . جمال عبد الهادي محمد مسعود ـ وفاء محمد رفعت جمعة ، «أخطاء يجب أن تصحح في تاريخ إفريقيا التي يراد لها أن تموت جوعاً» ، ط : 2 (المنصورة : دار الوفاء للطباعة والنشر 1986م) ص26 .

(3) ابن بطوطة ، ص694 .

(4) ابن خلدون ح6 ، ص200-201 . نعيم قداح ، ص54 .



أولاً ، على ما بقي من غانا ثم الزحف على إقليم منطقة التكرور الغربية التي تشمل مدينة (سلي) التي عرَّفها الإدريسي بأنها مدينة حاضرة وبها مجمع السودان ومتاجر وأهلها أهل نجدة[1] .

وصلت مالي في عهده إلى قمة مجدها بعد استيلاء جيوشه على حاضرة صنغي (جاو) وتمبكتو التي تمثل مركزاً حضارياً ممتازاً . ولم يكتف بذلك بل اتجه صوب الشمال فاستولى على (أروان) و(تادمكت) واتجه نحو الجنوب فاستولى على (فوتاجالون) على حدود نيجيريا الحالية[2] . كما سيطر على مناجم الملح في تفازا والنحاس في (تكدا) ووصل نفوذه إلى المحيط الأطلسي[3] ، الأمر الذي جعل السعدي يصف مالي فيقول : «أما ملي فإقليم كبير واسع جداً في المغرب الأقصى إلى جهة البحر المحيط»[4] ولم تفلت من قبضته إلا جني و(مملكة موسى)[5] اللتان كانتا تتمتعان باستقلالهما[6] .

وقد أفاد شارل أندريه إنه في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وصلت مالي إلى قمة مجدها تحت السلطان منسا موسى الذي كوَّن مملكة مترامية الأطراف[7] .

---

(1) الادريسي ، ص3 .

(2) عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية السودانية» ، ص105 . أحمد شلبي ، ح6 ، ص245 .

تادمكت : مدينة بصحراء المغرب الأقصى ، مسيرة خمسين يوماً من مدينة غانا ، البكري ، ص181 .

(3) أحمد شلبي ، ح6 ، ص246 .

تكدا : مدينة مرّ بها ابن بطوطة وهي من أكبر مدن الطوارق وكانت تتبع مملكة مالي وتشتهر بمعدن النحاس . ابن بطوطة ص698 . عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية» ص130 .

(4) عبد الرحمن السعدي ، ص9 .

(5) مملكة موسى : تقع مملكة موسى على حافة نهر النيجر وكانت مجاورة للممالك الكبرى : غانا ومالي وسنغي . عرفت بالقوة لدى جيرانها ، وبفضل قوتها تمكنت من المحافظة على ديانتها الوثنية واستقلالها . عبد الرحمن السعدي ، ص74 ، شلبي ح6 ، ص120 . دنيس بولم ، «الحضارات الافريقية» ، ترجمة علي شاهين (بيروت : منشورات دار الحياة ، بدون تاريخ) ص125 .

(6) حسن إبراهيم حسن ، ص104 .

(7) شارل أندريه جوليان ، ص83 .

Alan Rake: "Traveller's Guide to West Africa". London: By IC Magazines LTD. London 1986, p: 190.

هذا يدلّ على أن منسا موسى هو الرمز الحقيقي لمملكة مالي الإسلامية ، حيث وصلت البلاد إلى قمة مجدها .

بعد وفاة منسا موسى ، آل حكم البلاد إلى إبنه (مغا 738- 742 هـ/ 1337 - 1341م) فاضطربت في عهده أحوال مالي وتفشت فيها الفوضى وتقلصت مملكته ، ثم انفلت زمام الحكم من يديه وتوفي ، فتولى أمر المملكة عمه[1] (منسا سليمان 742 - 762 هـ/ 1341 - 1360م) الذي عمل على رأب الصدع الذي خلفه له ، ابن أخيه ، فحاول إرجاع جاو إلى حاضرته ، غير أنه لم يفلح في ذلك ، فترك أمر جاو واتجه إلى إصلاح ما فسد في الداخل بتقوية قبضته على الداخل ، فعمل على تشجيع العلم والعلماء حيث جلب الفقهاء من مذهب الإمام مالك ، فشيَّد المساجد والمدارس وأقام صلاة الجمعة والجماعة ، وهذا راجع إلى أنه كان فقيهاً في الدين الإسلامي[2] .

وهذا يدلّنا على العزيمة التي اتصف بها السلطان منسا سليمان التي مكنته من النهوض بدولته بعدما لحقها من عبث . وقد اهتم كثيراً بالعلم والتعليم ، فقيمة الدولة تقاس بعدد متعلميها . وقد زار ابن بطوطة مالي في فترة حكم السلطان منسا سليمان وهو يعتبر شاهد عيان على ذلك . وقد أورد الكثير عنه وعن العلماء الموجودين بمالي وعن المدارس والمساجد والحركة العلمية ، كما وصف لنا عدله مشيراً إلى ظلم وقع على تاجر من مسوفة يدعى (أبا حفص) من قبل (منشاجو) إيوالاتن . الذي كان حكم إيوالاتن . وقد شكا أبو حفص إلى السلطان منسا سليمان ، هذا الحاكم الذي استدان منه ستمائة مثقال ولم يدفع له إلا مائة مثقال فقط . فما كان من السلطان منسا سليمان إلا أن أحضر ذلك الحاكم وأوكل أمرهما إلى القاضي حيث حكم لمصلحة التاجر ، ومن ثم عزل الحاكم من عمله[3] .

---

(1) محمد عبد الفتاح ابراهيم ، ص180 .

(2) صلاح الدين المنجد ، ص43 . عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية السودانية» ، ص113 ، أحمد شلبي ، ح6 ، ص246 .

(3) ابن بطوطة ، ص688 .

وهذه الحادثة تبرهن على جانب من جوانب العدل الذي كان عليه منسا سليمان . كما كان منسا سليمان عطوفاً على الغرباء ، وهو الذي أجزل العطاء لابن بطوطة بأن أمر له بدار ونفقة جارية ومنحه ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلث مثقال ، وإضافة إلى ذلك مائة مثقال عند رحيله عن مالي[1] .

أما عن رحلة السلطان منسا سليمان للحج فلم يصلنا شيء عن أخبارها ، اللهم إلا أنه استطاع أن يوطد دعائم دولته في الأماكن التي مرَّ بها خلال الرحلة . ولكن كلمة الرحلة إلى الحج تترجم عن نفسها الشيء الكثير وتوضح أن البلاد في تلك الفترة كانت على درجة كبيرة من الرخاء السياسي والاقتصادي والاجتماعي الأمر الذي طمأن السلطان منسا سليمان ومكّنه من الذهاب إلى الأراضي المقدسة .

وقد عرف السلطان منسا سليمان خلال رحلته إلى الحج عند أهل مصر بملك التكرور ، بالرغم من أن منطقة التكرور لم تكن سوى إحدى أقاليم مملكة مالي المترامية الأطراف . ويعلّق العمري على ذلك بأن السلطان منسا سليمان لو سمعها لاستهجنها ، ويفضل أن يقال له صاحب مالي لما يتمتع به من قوة عسكرية وثروة عظيمة جعلت أعداءه يخشون بأسه[2] .

غير أن يد المنية باغتته بعد تسع عشرة سنة[3] من النضال الدؤوب فتولى بعده إبنه (قنبتا) الذي لم نعثر له على أعمال تذكر ، اللهم إلا أنه مكث في الحكم تسعة أشهر توفي بعدها فخلفه (ماري جاطة الثاني) 762 - 776هـ/ 1360 - 1374م[4] ، وقد استمر في الحكم أربعة عشر عاماً . وخلال هذه المدة لم يعرف للحكمة طريقاً ، بل كان رجلاً مترفاً ، فقد باع حجر الذهب غير المعالج ، وكان يزن عشرين قنطاراً إلى تجار مصر بأبخس الأثمان ، وصرف

(1) ابن بطوطة ، ص682-683 .

(2) صلاح الدين المنجد ، ص44 .

(3) ذهب ابن خلدون على أنه قضى في الحكم خمساً وعشرين سنة .

(4) هناك من يذهب إلى أن فترته تبدأ من 761-775هـ/ 1359-1373م . عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الاسلامية السودانية» ، ص124 .

ثمنه على مجونه ، وقد وصفه ابن خلدون بقوله : «وكان أشرُّ والٍ عليهم بما سامهم من النكال والعسف وإفساد الحرم»[1] .

وفي خضم هذه الظروف السيئة توفي ماري جاطة الثاني بمرض النوم الذي أصابه ، فخلفه إبنه موسى الثاني 776-789 هـ/ 1374-1387م ، الذي كان أحسن حالاً من والده ، غير أنه كان ضعيفاً أمام وزيره ماري جاطة الذي كان مستبداً بالحكم ، فصرف جلَّ همه في الفتوحات شرقاً وغرباً على الرغم مما تعانيه البلاد من شح في مواردها ، إلا أنه أعاد لمالي جزءاً من هيبتها التي طالما فقدتها . فقد حارب صنغي ، وبعث بقواته إلى تكدا ، غير أنه لم يفلح في ذلك ، وتوفي موسى الثاني عام 789 هـ 1387م ، وخلفه أخوه منسا مغا 789-791 هـ/ 1387-1388م الذي لم يدم حكمه سوى سنة واحدة ، كان ضحية فتنة داخلية حلّت بالبلاد فتولى صندكي 791-793 هـ/ 1388-1390م زوج أم موسى الذي دامت فترته سنتين ، كان يغلب عليها الاضطرابات والفتن .

نمو المستوطنات العربية والمراكز التجارية

لقد نشأت العلاقات بين الشمال الأفريقي والسودان الغربي منذ أقدم العصور ، وتطورت في عهد دولة غانا الوثنية ، وازدادت اتساعاً في فترة مملكة مالي الإسلامية حيث تمت اتصالات تجارية وثقافية بالشمال الأفريقي عن طريق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى ، وأهمها ما يلي :

طريق غانا موجاور ـ فاس عن طريق أودغست .

طريق تمبكتو موجاور ـ فاس عن طريق (تغاز) .

طريق تونس ـ طرابلس عن طريق ورقلة ـ غدامس ـ غات .

طريق كانو ـ طرابلس عن طريق أجداس غات .

---

(1) ابن خلدون ، ح6 ، ص201-202 ، ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص107 .

غدامس عن طريق يرنو ـ طرابلس وعن طريق بيلما مرزوق[1] .

وقد أدَّت هذه الطرق التجارية دوراً بارزاً في حركة التجارة والثقافة ، وكانت حلقة الوصل التجارية ومنفذ العبور إلى جنوب الصحراء وشمالها ، حيث نمت مالي تدريجياً نتيجة المسلك التجاري الذي امتد من (تادمكت)[2] و(ركلان) في المغرب الأوسط وتنافس تجار السودان الغربي والتجار المغاربة في المعاملات التجارية ، فبدأت ورقلة تظهر بصفتها مركزاً تجارياً مهماً مع السودان الغربي في تجارة معدن الذهب وذلك في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)[3] .

وفي هذا الصدد يقال أن تعداد القوافل التي كانت تحمل البضائع في عام 751هـ/ 1350م بلغ اثني عشر ألف جمل[4] .

وهذا الرقم يدل على الرخاء الاقتصادي الذي كان يسود مالي وعمق الصلات الطيبة مع الشمال الأفريقي . فهذه الصلات لم تكن تجارية فحسب ، بل كانت سياسية وثقافية أيضاً حيث بلغت أوجها في عهد السلطان أبي الحسن المريني[5] الذي دعم صلاته بمالي ، فعندما استولى

---

(1) محمد عبد الغني سعودي ومحمد أمين وآخرون ، «العلاقات العربية ـ الافريقية» دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، (القاهرة : دار الطباعة الحديثة 1978م) ص18 .

(2) مدينة قريبة من غانا الوثنية ويقال إن إسمها مشتق من مكة المكرمة وهي مدينة كبيرة سكانها من العرب المغاربة المسلمين و أغلب قوتهم اللحم واللبن وتجلب لها الذرة من بلاد السودان وعملتها المتداولة تعرف بالصلع وهي من الذهب . البكري ، ص181-182 .

(3) عز الدين عمر موسى «طريق عبر الصحراء الليبية من المغرب الأقصى إلى مصر في القرن السادس الهجري الثاني عشر» ، مجلة البحوث التاريخية (طرابلس : مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي ، يناير 1983) ع1 ، س5 ، ص117 .

(4) نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص55 .

(5) أبو الحسن علي المريني ، 732-752هـ 1331-1351م . هو أبو الحسن علي بن عثمان الملقب بالمنصور ويعرف عند العامة بالأكحل ، ولد في منطقة (تيغر ديون) عام 697هـ/ 1297م وأمه حبشية تدعى العنبر وكان رجلاً مصلحاً شجاعاً ذا أخلاق رفيعة محباً للفقراء طموحاً ، عمل على ضم أقطار المغرب تحت حكم واحد ، أنشأ الماريستانات والزوايا والمدارس والقناطر ، وفتح تلمسان عام 735-737هـ/ 1334-1336م . وتوجه جيشه للسيطرة على الزاب وبسكرة وتسلم بجاية وقسطنطينة من أيدي الحفصيين وتدخل في الأندلس . ابراهيم حركات ، «المغرب عبر التاريخ» ط : 2 (الدار البيضاء : دار الرشاد 1984) ج2 ، ص39 إلى 43 .

أبو الحسن المريني على تلمسان بعث له السلطان منسا موسى سلطان مالي رسالة تأييد[1] .

ولا شك أن التجار العرب ساعدوا على توطيد العلاقات الطيبة بين الشمال الافريقي ومالي . فكان التاجر المسلم يجمع بين التجارة والدعوة إلى الإسلام ، إذ كان يتحلى بأخلاق حميدة وحسن في المعاملة وصدق في القول ، هذا إلى جانب علمه وتفرغه ليلاً لإقامة حلقات الدرس التي ساعدت على نشر الإسلام والثقافة العربية الخالدة في ربوع السودان الغربي[2] .

وما تأسيس (مدينة جاو) على أيدي الدعاة العرب المسلمين الوافدين من طرابلس الغرب[3] ، إلا خير دليل على ما كان يحظى به التاجر والداعية المسلم من مكانة مرموقة ، وصلت به إلى أن يكون حاكماً في هذه المناطق ، لما كان يتمتع به من صفات حميدة جعلت سكان هذه المناطق يؤمرونه عليهم .

وهذا دليل واضح على عمق الصلات بين شمال الصحراء وجنوبها وعلى ما كان يتحلى به التاجر من أخلاق رفيعة ووازع ديني عميق يحرك وجدانه من أجل نشر الإسلام في المناطق التي لم يصلها لإعلاء كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وتدفق التجار والدعاة المسلمون في الشمال الأفريقي على مالي ، وخالطوا المواطنين الأفارقة في السكن ، وصاهروا الأسر الحاكمة وعامة الرعية ، فازداد نفوذهم في الدولة حيث كسبوا ثقة الأهالي وتقلدوا أرفع المناصب ، كالقضاء والديوان والوزارة ، وقد تشبَّه سلاطين مالي في معظم معاملاتهم بالنظم السائدة في الدول الإسلامية واتخذوا اللغة العربية لغة رسمية لدولتهم[4] .

---

(1) أحمد شلبي ، ح6 ، ص256 .

(2) نفسه ، ص163 ، حسن ابراهيم حسن ، ص214 .

(3) عبد القادر زبادية ، ص26 .

Joseph K: Zerbo. p: 143.

(4) ابراهيم علي طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص48-58 .

ساعد ذلك كله على تقوية الصلات المختلفة بين الشمال الأفريقي وأهم المراكز التجارية والثقافية في السودان الغربي ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، جني والتكرور وأودغست . والجدير بالذكر أن العقيدة الإسلامية ما أن توطدت هناك ، حتى حمل لواء نشرها الوطنيون الأفارقة . وقد كانت هذه المراكز مصدر إشعاع على غرب أفريقيا ومالي على وجه الخصوص ، إذ يرجع الفضل في نشرها إلى عرب الشمال الافريقي . ولذا فإن التحدث عن هذه المراكز الهامة سيعطي صورة متكاملة لأبعاد هذه الصلات الأخوية .

مدينة جني :

تقدع مدينة جني إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكتو[1] . وقد اختلف المؤرخون في تاريخ تأسيسها . فبعضهم قال ما بين 494-495هـ/ 1100-1101م[2] . وذهب آخرون إلى أنه ما بين 435-436هـ/ 1043-1044م[3] . والفرق بين التاريخين خمس وسبعون سنة ، وهي ليست بالفترة البسيطة في تاريخ مدينة مثل جني .

غير أن السعدي يقول إنها «بدأت في الكفر في أواسط القرن الثاني الهجري 2 هـ 623م»[4] . وما أورده السعدي يؤكد لنا أن المدينة كانت قائمة قبل الوقت الذي ذكره المؤرخون السابقون ، وأن بناءها كان قبل هذا التاريخ بفترة طويلة . وقد عثر الباحث على مخطوط يتحدث عن أول بناء في مدينة جني حيث يورد أن الأهالي عندما عزموا على بناء سد لحجز مياه الأمطار فكروا في بناء سور للمدينة قبل الشروع في بناء السد ، واستشاروا في ذلك الكاهنة فأشارت عليهم بدفن فتاة شابة في السور فتطوع حاكم المدينة (جنور) الذي ينتسب إلى قبيلة (مرك)[5] بابنته ، غير أن أحد أفراد رعيته وهو من قبيلة

---

(1) أحمد شلبي ، ح6 ، ص99 .

(2) حسن ابراهيم حسن ، ص217 .

(3) عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية» ، ص224 .

(4) عبد الرحمن السعدي ، ص12 .

(5) قبيلة من قبائل مالي ، تقع في شمال البلاد ، وكانت ذات شأن كبير في الماضي .

(يؤس)[1] رفض ما تقدم به (جنور) وتطوع بإبنته بحجة أن قدره وقدر قبيلته دون قدر سيده جنور ، فقبل الحاكم هذا العرض وتم ذلك ، وهذا أول بناء في مدينة جني[2] .

وتمدنا هذه القصة السالفة الذكر بمعلومات غاية في القيمة لم يمدنا بها غيرها وهي :

أولاً : تأسيس مدينة جني كان قبل التاريخ الذي أشار إليه المؤرخون السابقون ، وأنها عريقة في القدم . وقد تكون القصة قريبة إلى رأي السعدي الذي يشير إلى أواسط القرن الثاني الهجري .

ثانياً : إن الأهالي كانوا على درجة من التقدم المعماري في بناء السدود وغيرها .

ثالثاً : توضح القصة الجانب الخرافي الذي كان يسيطر في تلك الفترة على مدينة جني ، وكيف أن الكاهنة كانت هي مفزعهم .

رابعاً : تمدنا القصة بإسم حاكم المدينة والنظام القبلي ومقوماته .

خامساً : روح الفداء الذي كان عليه (جنور) في سبيل وطنه ، فهو مستعد أن يضحي بفلذة كبده في سبيل مدينته .

أما عن نظام الحكم في مدينة جنى فقد كانت تحكم حكماً ازدواجياً ، يشترك فيه ملك ورئيس ، فالملك يدعى فون والرئيس يدعى جنور[3] ، وهو الاسم الذي اشتقت منه مدينة جنى فعرفت بهذا الاسم إلى يومنا هذا .

بعد وفاة (جنور) تولى الحكم إبن أخيه (سقا) ، وبقيت المدينة في يده فترة من الزمن ، ولم يرد شيء عن أعماله غير أنه تولى الحكم بعده

(1) قبيلة من قبائل مالي ، تقع في شمال البلاد ، وكانت أقل قدراً من السابقة .

(2) مجهول ، جني ، ورقة 2 .

(3) عند بناء السور كان عمره ستين سنة وبعد بناء السور عاش أربعين سنة ـ مجموع عمره مائة سنة ـ جني ورقة 2 .

(كيكمبر)[1] الذي أعلن إسلامه في القرن السادس الهجري 6 هـ/ 627م ، بعد أن جمع من مدينة جنى أربعة آلاف ومائتي عالم ؛ وأسلم على أيديهم ودعوا له بثلاث دعوات لمصلحة مدينة جني ، أولها كل من فرَّ منها نتيجة ضيق أو عسر يبدِّلها له يسراً وسعة إلى أن ينسى بلاده القادم منها ، والدعوة الثانية أن يسكنها الغرباء ، والثالثة أن كل من جاءها بتجارة أن يعطيه الله القلق حتى يبيع تجارته بأرخص الأثمان .

وبعد إسلام كيكمبر ذهب إلى الأراضي المقدسة للحج[2] وانغرس في نفسه حب العلم والخير وأحضر معه من الأراضي المقدسة العديد من الكتب وقد شجع التعليم ومنح أرزاقاً للمعلمين والمؤذنين والأئمة في كل سنة ، وهدم داره وبناها مسجداً لأداء الصلاة[3] .

يتضح لنا من خلال ما تمّ عرضه أن المدينة كان لها نظام حكم مميز ، فقد كانت تسير بواسطة دولابين : ملك حكمه فوقي إسمي ، ورئيس ، وهو صاحب السلطة الفعلية في البلاد ، وأن إسمها مشتق من اسم جنور ، كما أن الذي تولى الحكم من بعد جنور وهو سقا إبن أخت جنور الذي حكم فترة من الزمن ، كما ترشدنا إلى من آل إليه الحكم بعد سقا وهو كميكبر وعن كيفية إسلامه وجمعه لأربعة آلاف ومائتي عالم ، ويضعنا هذا الرقم أمام تساؤل وهو : إذا كان عدد علماء جني 4200 عالم ، فكم عدد سكانها؟

إذا كان متوسط عدد أفراد أسرة كل عالم أربعة أشخاص ، فإن متوسط عدد أفراد أسر العلماء يبلغ 16800 نسمة ، وهذا لا يعقل في مدينة مثل جني ، ولكن رغم المبالغة في هذا الرقم فإنه يكشف لنا عن جوانب مهمة في تاريخ مدينة جني ، حيث إن المدينة كان بها عدد كبير من المسلمين وبها حركة علمية نشطة ومؤسسات تعليمية من مساجد ومدارس .

---

(1) بعض المؤرخين يدعونه أكبر أو كمبرو ، أحمد شلبي ، ح6 ، ص200 . عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الإسلامية السودانية» ، ص29 .

(2) نبذة عن تاريخ جني ، ورقة 2 . يتفق ما أورده المخطوط مع عبد الرحمن السعدي وتوماس آرنولد غير أنه يضيف رحلة الحج وتشجيعه للتعليم .

(3) نبذة عن تاريخ جني ، ورقة 2 .

يرى الباحث أن هؤلاء العلماء كانت لهم علاقات فكرية مع جيرانهم ، فكيف يتأتى لهذا العدد الهائل أن يتعلم في مدينة جني ما لم يكن قد درس خارجها؟ ثم تقودنا المعلومات إلى أن حرية الأديان في المدينة مكفولة في ظل هذا النظام ، وأن الإسلام تسرب إليها منذ فترة طويلة . كما توضح رحلته إلى الحج الجوانب المضيئة في تاريخ جني ، وما كانت تتمتع به من رخاء اقتصادي وسياسي وأمني وعلمي .

فالرخاء الاقتصادي هو الذي مكن كيكمبر من الحج وشراء الكتب وتشجيع العلماء ، بما كان يسديه إليهم من أموال تشجيعاً لهم . الأمر الذي جعل التجار يقتفون أثر العلماء في مواصلة رحلاتهم إلى هذه المدينة . فقد ازدهرت بها تجارة الملح في تغازا والذهب[1] .

وقد قال عنها السعدي : «وهي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة ، جعل الله ذلك في أرضها خلقاً وجبلة ، وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف ، والمواساة على الدنيا كانت من أخلاقهم» . كما ذكر عنها أن لها سوقاً عظيماً يلتقي فيه تجار الملح من مناجم تغازا ثم تجار الذهب من مناجم (بيط)[2] وقد ازدهرت فيها العلوم الدينية ، وظهر فيها علماء على سبيل المثال لا الحصر (فوزي محمد) (وساقوا ايونكري) الذي عاش أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وكان ذا مكانة وعلم غزير فأسند له أسكيا الحاج محمد ما بين عام 899-945 هـ/ 1493-1528م قضاء جني . كما كانت المدينة تنعم بالاستقرار .

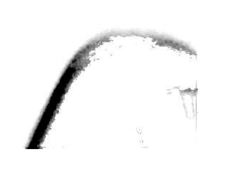
وقد ظلت المدينة مستقرة هادئة آمنة إلى أن جاء منسا علي[3] عام 867-899 هـ/ 1462-1493م الذي حاصر المدينة فترة من الزمن ، وكاد يتراجع

---

(1) عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الاسلامية السودانية بإفريقيا العربية» ، ص129 .

(2) بط أو بيط : مدينة تحد إقليم التكرور من جهة الجنوب ، أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي ، «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» ، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ، محمد حجي . (بيروت : دار الغرب الاسلامي 1986م) ص26 .

(3) عبد الرحمن السعدي ، ص12-13 .



عنها لولا خيانة أحد رجال مدينة جني ، الذي أخبره أن أهل البلاد قد نفد زادهم ، وبذلك استطاع أن يجبر ملكها على قبول التفاوض . وقد تم ذلك بين الطرفين على أن تصبح المدينة تابعة إلى منسا علي ومن ثم عامل الأخير أهلها معاملة طيبة .

وبقيت المدينة تابعة لمنسا علي إلى أن تسلّم مقاليد الأمور (أسكيا الحاج محمد)[1] [2] فعزل ابن منسا علي سوني باور[3] .

التكرور :

أورد المؤرخون العديد من الآراء حول تحديد منطقة التكرور . فقد قيل إنها الجزء الأوسط والشرقي من موريتانيا الحالية وقسم من جمهورية مالي . كما يطلق على منطقة الفوتاجالون التي كانت بها المدينة[4] .

وجاءت الخرائط توضح موقع التكرور . فقد ورد أنها تقع على نهر السنغال يحدها من الغرب المحيط الأطلسي ومن الشرق أودغست وكومبي صالح ومن الشمال تاجنت ومن الجنوب فوتا جالون .

أما البكري فقد قال : «ويلي صنغانه ما بين الغرب والقبلة على (النيل) مدينة تكرور»[5] .

وقد حدد القلقشندي المنطقة حيث قال إنها تقع شرقي بلاد كوكو ويحدها من الغرب مملكة البرنو وقاعدتها مدينة تكرور[6] .

---

(1) يدعى والده (فوتي طور) وربما يكون مسمى على قبيلة فوتي طور المنتشرة في غينيا والسنغال .

(2) جني ، ورقة 3 .

(3) Zeini. "Moulaye: Le Mali et L'Afrique du nord a travers les ages. Journal l'Essir, (5 Avril 1984) 34 E, Année, No. 9328. p: 6.

(4) بول مارتي ، كنتة الشرقيون ، تعريب وتعليق : محمد محمود ولد ودادي (دمشق : مطبعة زيد بن ثابت 1985) ص17 .

(5) البكري ، ص172 ، يقصد بالنيل نهر النيجر .

(6) القلقشندي ، ح5 ، ص286 .

ونقلاً عن «الروض المعطار» فقد أورد أنها تقع إلى الغرب من ضفاف النيل . والواضح أن الذي أشار إليه القلقشندي غير صحيح ، إلا إذا اعتبرنا أن المنطقة الواقعة بين مملكة البرنو غرباً والمحيط الأطلسي بما فيها مدن تمبكتو وأودغست وكومبي صالح ونيابي كلها تعرف باسم التكرور . وهذا من وجهة نظر الباحث غير صحيح وما ذكره البكري أقرب إلى الصحة من غيره .

وجاء عن أصل سكان التكرور أنهم من السودان وكانوا في سابق عهدهم على الوثنية : يعبدون الأصنام مثل سائر أهل بلاد السودان ، إلى أن تقلد الأمور في البلاد رجل مصلح يدعى (وارجاني بين رابيس) فأعلن إسلامه وأسلم معه الكثير ، وقد طبق على مواطنيه نصوص الشريعة الإسلامية وفقههم في الدين الإسلامي الحنيف حتى أصبح أغلب بلاد التكرور[1] على دين الإسلام .وقد أدى هذا المصلح رسالته على أكمل وجه وتوفي عام 432 هـ/ 1040م[2] .

وجاء عن ياقوت الحموي وهو من أعلام القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) قوله عن التكرور : «بلاد تنسب إلى قبيلة من السودان في أقصى جنوب المغرب وأهلها أشبه الناس بالزنوج»[3] .

أما القزويني الذي عاش هو أيضاً في نفس القرن السابق ، فيصفها بأنها : «مدينة عظيمة لا سور لها ، وأهلها مسلمون وكفار ، والملك فيها من المسلمين ، وأهلها عراة رجالهم ونساؤهم إلا أشراف المسلمين فإنهم يلبسون قميصاً طوله عشرون ذراعاً ويحمل معهم خدمهم للحشمة ، ونساء الكفار يسترن قبلهن بخرزات العقيق ينظمنها في الخيوط ويعلقنها عليهن ، ومن كانت نازلة الحال فخرزات من العظم)[4] .

---

(1) يذهب البعض إلى أن كلمة التكرور جاءت من التكرار أي الذهاب والإياب إلى تلك المنطقة لغرض التجارة .

(2) البكري ص172 ، أمين توفيق الطيبي ، «دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس» ، ص307 ، عبد الله حشيمة ، ص23 .

(3) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، «معجم البلدان» (بيروت : دار صادر 1979م) ج2 ، ص37 .

(4) زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، «آثار البلاد وأخبار العباد» (بيروت : دار صادر ، بدون تاريخ) . ص26 .

يتضح لنا مما أوردناه عدة أمور وهي :

أن بلاد التكرور أصل سكانها من السودان ، وكانت وثنية تعبد الأصنام إلى أن تولى الحكم فيهم رجل مصلح ملأ الله قلبه بالإيمان فأسلم ، ودخل أغلب أهل التكرور في الإسلام وطبق نصوص الشريعة الإسلامية .

وهذه الحوادث تكشف لنا عن أن الإسلام تسرَّب إلى تلك الديار في فترة مبكرة سابقة لما أورده المؤرخان .

وقد أورد القزويني في معرض حديثه السابق معلومة مفادها أن أهل التكرور رجالهم ونساؤهم عراة إلا الأشراف المسلمين . وهذه مغالطة وتحامل ، ليسا في محلهما ، لأن من يدخل الإسلام يتحلى بأخلاقه ؛ وأخلاق الإسلام تنكر ذلك بل تحرمه . وكما علمنا سلفاً من نص البكري أن الشريعة الإسلامية مطبقة في هذه البلاد ، فكيف تبيح ذلك؟

هذا عن مدينة التكرور بصفتها وحدة متكاملة ، أما عن تقسيمها الجغرافي فهي تنقسم إلى ثلاثة أقاليم كل إقليم يتبع قصبة التكرور :

الإقليم الأول : ويعرف بقلنبو ، ويقع على نهر النيجر وكان على الكفر إلى أن دخله الإسلام في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، وقاعدته على جانبي النهر ، وأصل سكانه من نسل (مغراوه) وفي الإقليم نفسه قسم حضري يسكن المدينة والآخر بدوي يقطن الريف[1] .

الإقليم الثاني : يدعى (بريسا)[2] ، يقع في الطرف الشمالي من بلاد

---

(1) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي ، «كتاب الجغرافيا» ، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه ، اسماعيل العربي ، (بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع 1970م) ص91 ، البكري ، ص172 .

(2) ذكر صاحب تقويم البلدان أنها تقع إلى شمال نهر غانا وهي مدينة صغيرة لا يوجد بها سور وأهلها تجار أما جنوبها فعلى مسيرة عشرة أيام فأرضها لطائفة من أهل السودان . عماد الدين اسماعيل محمد بن عمر أبي الفداء ، «تقويم البلدان» (باريس : دار الطباعة السلطانية 1850م) ص157 .

التكرور ، وهو من أعظم مدن التكرور ، وكلما ضعف صاحب التكرور انفرد صاحب بريسا بالاستقلال[1] .

الإقليم الثالث : (جبل ثلا) رأسه الجنوبي في بحيرة كوري ورأسه الشمالي يخرج من نهر غانا ، ومن جهة الشرق بلاد كوكو[2] .

الحياة الاجتماعية والاقتصادية ببلاد التكرور :

لم تصلنا عن الحياة الاجتماعية في بلاد التكرور إلا معلومات يسيرة ، لا تشفي غليل الباحث ولكن نوردها متمثلة في الزي عند أهل التكرور .

فالزي يختلف من طبقة لأخرى ، تبعاً للمستوى الذي عليه كل فئة ، فعامة الناس يلبسون الجلود والصوف بمختلف أنواعه . أما السكان الذين تعاملوا واختلطوا بالسكان البيض فإنهم يرتدون الجلود المدبوغة ويضعون على رؤوسهم كرازين من الصوف . غير أن علية القوم يختلفون عن بقية الفئات السابقة فإن ملابسهم هي الفضية والمآزر ، وهي من أرفع الملابس .

هذا عن الزي ، أما عن طريقة البناء فهي تختلف من فئة إلى أخرى ، تبعاً لمكانة كل فئة . فمباني عامة الرعية تبنى بأغصان الأشجار ، أما مباني الملك وحاشيته فتختلف عن مباني عامة الناس اختلافاً كاملاً حيث تبنى بحجر الآجر[3] .

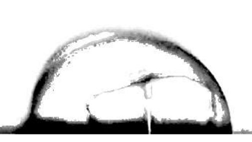
أما عن الحياة الاقتصادية فإن أرضهم كانت خصبة ومياه آبارها عذبة ، حيث أقيمت عليها زراعة الذرة والقطانية والأرز وهو رخيص الثمن ، كما كان لديهم أشجار الآبنوس الذي انتشر على ضفاف نهر السنغال والنيجر ، وتصنع منه أسلحتهم المعروفة بالدبابيس . كما يكثر لديهم قصب الشكور الذي يصنعون منه رؤوس السهام .

---

(1) محمد الغربي ، ص90-91 .

(2) نفسه ، ص93 .

(3) أبو الحسن المغربي ، ص91 .



وقوتهم اليومي السمك الذي يكثر في النهر والذرة والقطانية والألبان التي يحصلون عليها من الماعز والإبل التي تكثر ببلادهم . كما أنهم يربون الخيول من الصنف القصير الذي عرف بالسير البطيء[1] .

إضافة لذلك ، كانت لديهم حيوانات برية مثل الزرافة التي يصطادونها ، ويوجد عندهم حيوان يسمى (لبطي) يمتاز جلده بالقوة فيصل ثمن جلده إلى ثلاثين ديناراً كما تكثر لديهم الفيلة التي يستخدمون لحومها في غذائهم[2] .

أما عن الحركة التجارية بين التكرور ونظيراتها من مدن السودان الغربي والشمال الأفريقي ، فقد شهدت تطوراً ملحوظاً بارتباطها بالشمال الأفريقي وخاصة مدينتي سجلماسة وآسفي[3] فالتفت مع هذه المدن في حركة تجارية متبادلة عبر شبكة من الطرق البرية أهمها :

1 ـ طريق تحاذي البحر المحيط وتنتهي في التكرور وسلي .

2 ـ طريق تبدأ من مدينة سجلماسة في الجنوب وتمر بتغازا وتقف في أودغست .

3 ـ طريق تبدأ من القيروان أو طرابلس الغرب مارة بغدامس وتادمكه وتقف عند نهر النيجر أو بلاد كانم ، مارةً بفزان .

4 ـ طريق تبدأ من تاهرت بالمغرب الأوسط وتتوقف أما في تغازا أو أودغست أو في تادمكه (السوق) ، وتنطلق منها إلى كوكو/ جاو .

وكانت هذه الطرق تمر بها بضائع الشمال الأفريقي ، فتحمل من المغرب الأقصى الصوف والنحاس والخرز ، وترجع القوافل بتبر الذهب والخدم[4] .

---

(1) القلقشندي ، ب . ح5 ، ص286 . الادريسي ، ص3 .

(2) القزويني ، ص26-27 .

(3) مدينة مغربية مسورة أرضها كثيرة الحجر ماؤها من المطر تكثر بها أشجار الكروم . بين آسفي ومراكش مسيرة أربعة أيام . أبو الفداء ص131 . محمد بن أحمد العيدي الكانوني ، «آسفي وما إليه قديماً وحديثاً» (بدون مكان وإصدار ودار نشر/ تاريخ نشر) ص19 .

(4) أمين توفيق الطيبي ، «دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس» ص303 .

ومما سبق ذكره نستطيع القول إن المجتمع التكروري تحكمه الطبقة والذي يكشف ذلك طريقة لباسهم وبناء مساكنهم .

أما عن النهضة الزراعية والتجارية فيوضحها تعدد زراعة الحبوب وكثرة حيواناتهم والشبكة من الطرق التجارية التي كانت تربطهم بالداخل والخارج وحركة التبر الذي كان يصدر عبر هذه الشرايين التجارية الهامة .

أودغست :

أودغت مدينة من مدن السودان الغربي ذكر البكري أنها تقع بين الزنوج ومدينة سجلماسة على بُعد واحد وخمسين يوماً من غانا ، وتبعد أودغست عن القيروان مائة وعشر مراحل[1] .

أما ياقوت الحموي فقد ذكر أنها تقع بين جبلين إلى الجنوب من مدينة سجلماسة المغربية ، والمسافة بين المدينتين حوالى نيف وأربعين مرحلة[2] .

وقد ورد أن موضعها على بعد مائتي ميل من كومبي صالح ، وأنها تقع بين خطي عرض 18 ، 19 درجة شمال خط الاستواء وجنوب غرب (تجكة)[3] .

أما عن أصل سكانها فهو مزيج من العرب المغاربة المسلمين ومن قبائل السوننكي . والسلطة فيها للمتونة إحدى قبائل صنهاجة[4] .

وهذا يعطينا مؤشراً هاماً إلى أن المؤثرات العربية الإسلامية وصلت إلى هذه البقاع منذ فترة طويلة ، عبر الموجات العربية التي اخترقت آفاق الصحراء وحطت الرحال في هذه المناطق . وعندما وصلهم الإسلام عمل على زيادة أواصر المحبة والوحدة بينهم .

---

(1) البكري ، ص159 .

(2) الحموي ، ح1 ، ص227 .

(3) حسن ابراهيم حسن ، ص215 .

(4) أبو الفداء ، ص37 ، الحموي ح1 ، ص227 .

Sekene Mody Sissoko et D. Dione: "Histoire de l'Afrique". Paris: presence Africaine 1973. p: 47.



ومدينة أودغست وصفها ابن حوقل قائلاً : «أودغست مدينة لطيفة أشبه بلاد الله بمكة وبمدينة الجرزوان في بلد الجوزجان من بلاد خراسان ، لأنها بين جبلين ذوي شعاب»[1] . كما وصفها آخرون بأنها مدينة جميلة وعظيمة بها خلق كثير وبساتين عديدة . إضافة إلى ذلك فقد شهدت هذه المدينة حركة ثقافية ترجمتها كثرة المساجد والمدارس والمباني الجميلة . وفي هذه المؤسسات العلمية كان يُدرَّس القرآن الكريم وأنواع من العلوم الأخرى[2] .

وقد انتشر بها الإسلام وحمل لواءه ملكها إلى الزنوج المجاورين له من جهة الجنوب . وقد خضعت أودغست ردحاً من الزمن لملوك غانا غير أن دورها في نشر الإسلام كان على درجة أكبر من مقاطعات غانا الأخرى[3] . وفي ظل هذه القوة والرفعة قامت بها نهضة زراعية عبرت عنها الحقول الجميلة التي كانت تزرع فيها الذرة والمقاتي والدخن واللوبياء والقمح وبعض أشجار التين والحناء والدوالي والأعداد الهائلة من النخيل والعنبر ، وكانت هذه الحقول تسقى بمياه الآبار والأمطار الصيفية التي تهطل على تلك المناطق . وكان قوت عامة أهلها الذرة والمقاتي ، والدخن يصنعون منه شراباً ، أما القمح الذي يعتبر من أجود أنواع الأكل عندهم فيأكله الملك وحاشيته[4] .

كما كانت لديهم ثروة حيو انية متمثلة في البقر والغنم[5] . ويكثر في غاباتهم حيوان (اللمط) الذي يستخدم جلده في صناعة الدروق[6] .

هذا من جانب ، ومن الجانب الآخر كانت الحركة التجارية على درجة كبيرة من الازدهار مع الشمال الأفريقي ومع المدن المجاورة لها . ويوضح ذلك ما كان يرد عليها من الحبوب والفواكه والملح والأقمشة والحرير الموشاة

---

(1) أبو القاسم ابن حوقل النصيبي ، «صورة الأرض» ، (بيروت : منشورات مكتبة الحياة 1979م) ص91 ، الحموي ، ح1 ، ص227 .
(2) البكري ، ص158 . الاستبصار ، ص215 .
(3) أحمد شلبي ، ح6 ، ص115 .
(4) البكري ، ص158 .
(5) الاستبصار ، ص216 .
(6) أبو الفداء ، ص137 .

والأدوات النحاسية من الشمال الأفريقي والمغرب الأقصى ، متمثلاً في مدينة سجلماسة ويدفع مقابلها تبر الذهب[1] .

وذهب أودغست من أرقى أنواع الذهب في الأرض وأكثره متانة ، وتصدر أيضاً الأباريز على شكل خيوط مفتولة وجلود اللمط والعنبر والطيب والنساء السودانيات لما يمتزن به من قدود جميلة ومهارة في الطبخ[2] .

والشيء الذي يؤكد الرخاء الاقتصادي والنهضة التجارية القائمة فيها ما قاله إبن حوقل : «وملك أودغست هذا يخالط ملك غانا ، وغانا أيسر من على وجه الأرض . . . وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام ، فإنه لا قوام إلا به ، وربما بلغ الحمل[*] الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار»[3] .

والعبارة الأخرى التي تعبر عن مدى الازدهار الاقتصادي ما أورده صاحب الاستبصار حيث قال : «ولهم أسواق حافلة عامرة الدهر كله لا يكاد يسمع الانسان جليسه لكثرة غوغاء الناس»[4] .

وهذه العبارات تكشف لنا عن مدى نشاط الحركة التجارية التي شهدتها أودغست ، لكثرة التجار الوافدين عليها من أقطار الشمال الأفريقي ومن البلدان المجاورة لها ، حتى أن الجليس لا يسمع جليسه من كثرة التحاور بين الناس .

بعد أن عرضنا للعوامل التي أدت إلى قيام مملكة مالي الإسلامية بشيء من التوسع وكان في طيات ذلك إشارات عابرة إلى أوضاعها المختلفة من سياسية واقتصادية واجتماعية ، يجدر بنا أن نتناول تلك الأوضاع تفصيلاً الآن .

---

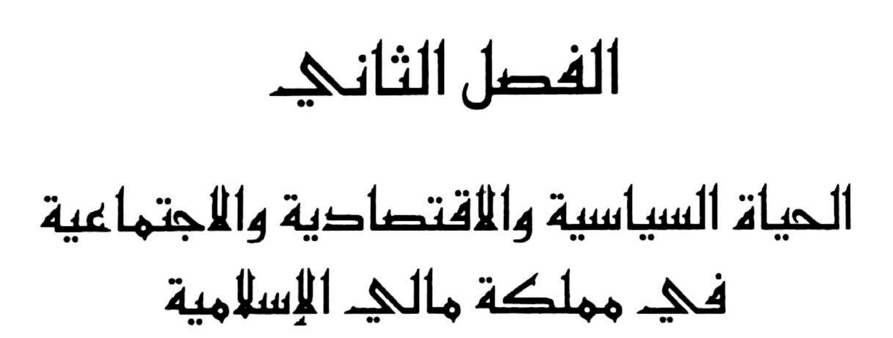
(1) حسن ابراهيم حسن ، ص216 .

(2) الاستبصار ، ص216 .

(*) لعل صواب العبارة «وربما بلغ حمل الملح أو الحمل من الملح» .

(3) ابن حوقل ، ص98 .

(4) الاستبصار ، ص215 .



الفصل الثاني

الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مملكة مالي الإسلامية

الحياة السياسية

تمتد مملكة مالي الإسلامية شمالاً إلى تخوم المغرب الأقصى وغرباً إلى المحيط الأطلسي وشرقاً حتى حدود بلاد برنو . وقد أعطى القلقشندي نقلاً عن سعيد الدكالي تحديداً لرقعة هذه المملكة ، إذ أشار إلى «أن هذه المملكة مربعة ، طولها أربعة أشهر أو أزيد وعرضها مثل ذلك» وجميعها مسكونة إلا ما قلّ ، وهذه المملكة هي أعظم ممالك السودان المسلمين[1] . أما العمري فقد أوضح أن طول المملكة نحو سنة[2] ، الأمر الذي يوضح ما كانت تتمتع به من رقعة كبيرة مترامية الأطراف ، كما يومئ إلى العظمة التي كانت عليها .

أما عن نظام الحكم فلم يكن تولي العرش مقصوراً على أبناء الملك فحسب ، بل تولاه أخوته على التوالي حسب السن ، وقد حدث أن تولى اثنا عشر ملكاً العرش من أبناء (موسى ديجيو) بالتتابع وآخرهم (ماري جاطة) الذي عهد إليه والده بالحكم .

---

(1) القلقشندي ، ح5 ، ص282 ، محمد بن عمر التونسي «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان» ، تحقيق خليل محمود عساكر ، مصطفى محمد سعيد ، مراجعة مصطفى زبادية ، (الدار المصرية للتأليف والنشر : 1965م) ص134 . بازل دافدش ، «أفريقيا تحت أضواء جديدة» ، ترجمة جمال محمد (بيروت : دار الثقافة 1961م) ، ص147 .

(2) صلاح الدين المنجد ، ص45 .

وكان يتولى الملك أبناء الأخت أو بنات البنت ، فهو أمر عادي لديهم . ومما يؤكد ذلك أن أبا بكر قد تولى الحكم عام 674 هـ 1275م . وهو ينتسب إلى ماري جاطه بأنه ابن ابنته[1] .

وأورد القلقشندي ذلك بقوله : «على قاعدة العجم في تمليك البنت وابن البنت»[2] . وهذا شيء سائد في جميع الممالك الأفريقية المعاصرة لمالي . وقد أمدنا ابن بطوطة بمعلومات عن ذلك مشيراً إلى أنه شاهد في مدينة (تكدا) أبناء أخت سلطانها يرثونه في المملكة[3] . كما لاحظ ابن بطوطة أيضاً في مدينة (ولاتة)[4] ذلك حيث قال : « . . . لا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه»[5] .

وقد أورد منسا موسى لدى سؤال من سلطان مصر محمد بن قلاوون حول توارث الملك : « . . . نحن أهل بيت نتوارث الملك»[6] .

أما في بعض الأحيان فقد يفلت زمام الحكم من أيديهم ، فيؤول العرش إلى رجل من خارج الأسرة الحاكمة اغتصاباً مثلما فعل (الصندكي)[7] بعد وفاة (موسى الثاني)[8] . وعلى الرغم من أن نمط الحكم كان إسلامياً ، إلا أن

---

(1) ابراهيم طرخان «دولة مالي الاسلامية» ، ص125-126 .

(2) القلقشندي ، ح5 ، ص194 . الشيخ الأمين عوض الله ، ص60 .

(3) ابن بطوطة ، ص698 .

(4) ولاتة : تقع مدينة ولاتة إلى الشمال الغربي من مدينة تمبكتو ، معنى ولاتة الأرض المرتفعة وقد ذكرها الوزان واصفاً إياها بأنها مملكة صغيرة لا نشاط لها وأن ملكهم يعطي الخراج لملك تمبكتو كما ذكرها السعدي بأنها مركز تجاري مهم وكان يأتي إليها تجار مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة وفاس والسوس لغرض التجارة لما تمثله قبل قيام تمبكتو من مركز حيوي لدى تجار الشمال الافريقي وغيرهم . الحسن الوزان ، ح2 ، ص161-162 . السعدي ، ص21 .

(5) ابن بطوطة ، ص677 .

(6) صلاح الدين المنجد ، ص60 .

(7) الصندكي بمعنى الوزير .

(8) ابن خلدون ح6 ، ص202 ، القلقشندي ، ح5 ، ص298 . ابراهيم طرخان.. «دولة مالي الاسلامية» ، ص128 .

ملوك مالي كانوا كثيراً ما يجنحون إلى الحكم (الاستبدادي)[1] . حيث بلغت هيبة الملوك درجة التقديس في أغلب الأحيان[2] . وقد بلغ من مظاهر التقديس للملك أنهم يحلفون به فيقولون منسا (سليمان كي) .

لقد اقتبست مملكة مالي الإسلامية كثيراً من هياكل أنظمة الحكم السائدة في الممالك الإسلامية المعاصرة لها ، فكان جهاز المملكة يتمتع بمركزية واضحة تؤول فيها السلطة إلى الملك ، ويساعده في ذلك مجلس للوزراء وموظفون في دواوين الدولة المختلفة ، وكان الملك يصدر توجيهاته شفهية ولا يكتبها في الغالب الأعم ، بل يأمر صاحب الديوان فيكتب بالخط العربي على طريقة المغاربة[3] .

ومن مهام الملك الإشراف على استتباب الأمن والعدل بين الرعية . وكان يعقد اجتماعات دورية في فناء قصره للمشورة وتقصِّي أحوال الرعية والتأكد من تنفيذ توجيهاته الصادرة إلى الجهات المكلفة بها[4] . ونائب الملك هو قمة الأهمية في إدارة الحكومة المركزية ، ويليه الوزراء وكبار الموظفين والمستشارون ، ويطلق على نائب الملك (قنجا)[5] ، وغالباً ما يكون ابن الملك نفسه ، ويلاحظ أن منسا موسى قد ترك ابنه (محمداً) نائباً عنه أثناء غيابه في رحلته المشهورة للحج[6] ، وعرف الوزراء باسم (صندكي Sandigui) ، وأغلبهم كانوا من عبيد السلاطين الذين يتم عتقهم . وكانت لديهم حظوة في القصر

---

(1) الاستبدادي : أن الحكم مقصور على الذكور فإذا لم يترك السلطان ذكوراً ينتقل الحكم إلى أحد أقربائه . نعيم قداح ، «أفريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص104 .

(2) ابن خلدون ح6 ، ص202 . القلقشندي ح5 ص298 . الشيخ الأمين عوض الله ، ص60 .

(3) القلقشندي ح5 ، ص298 وصلاح الدين المنجد ، ص65 . عبد الرحمن زكي ، «الاسلام والمسلمون في غرب افريقيا» ، ص42 . مجهول «امبراطوريات السودان الغربي» مجلة الدراسات الافريقية (جامعة القاهرة : معهد البحوث والدراسات الافريقية 1972م) ع الأول ، ص21 .

(4) القلقشندي ح5 ، ص301 .

(5) ابن بطوطة ، ص683 . ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص127 .

(6) القلقشندي ح5 ، ص298 . ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص128 .

الملكي ، وقد انتهز بعضهم هذه المكانة المرموقة وأقدم على اغتصاب السلطة في البلاد ، مثلما فعل السلطان (ساكورة) الذي صاهر الأسرة الحاكمة . . . وأحياناً قد يتزوج السلاطين من بنات وزرائهم العبيد المحررين ، وهو ما فعله (ناري فامغان) عام 636 هـ/ 1238م[1] . ومن ثم وصل العبيد المحررون إلى درجة كبيرة من الرفعة ، الأمر الذي جعل سلاطين المملكة يعتمدون عليهم في أحوالهم الهامة ، فكان منهم قادة الجيش وجباة الضرائب وحكام الولايات[2] .

وظاهرة الاعتماد على طبقة العبيد المحررين ، لم تكن مقصورة فقط على مملكة مالي الإسلامية فحسب ، بل كانت سائدة في دولة غانا الوثنية التي سبقتها ، وعرفت هذه الطبقة في غانا باسم (الكوسى Koussa) .

والجدير بالملاحظة أن عرب الشمال الأفريقي قد أسندت لهم عدة مناصب هامة في مملكة مالي الإسلامية ، ومنها الوزارة والقضاء والخزانة والاستشارة . وكانت هناك وزارات متعددة الاختصاصات . وقد أطلق على الوزير لقب فاراما Farama أو فاما Fama[3] ، وكانت من الوزارات الهامة وزارة الثقافة والأملاك وشؤون مياه نهر النيجر والملاحة النهرية والصيد والغابات والجزية[4] . ويلاحظ أن السلم الوظيفي يتدرج إذ يأتي الحاجب المعروف بصاحب السلطان على قمة الوزراء ، ثم يفوقه مرتبة نائب السلطان وهو بمثابة رئيس الوزراء ، ويليهما شأناً القاضي والفقهاء ومعظمهم من العرب المغاربة الذين أدوا دوراً مهماً في مملكة مالي الإسلامية[5] .

---

(1) القلقشندي ، ح5 ، ص298 .

(2) ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص128 .

(3) نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص107 . ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص128-129 . نعيم قداح ، «الأسس التاريخية للعلاقات الثقافية العربية الافريقية» ، مجلة السياسة الدولية القاهرة : مؤسسة الاهرام ، يناير 1978م ع51 ، س14 ، ص176 .

(4) نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص107 .

(5) نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص107 . آدم عبد الله الألوري ، «الاسلام في نيجيريا» ، ص54 .



وقد اتفق العمري وابن خلدون في عدد أقاليم المملكة على أنها خمسة عشر إقليماً ، إلا أن العمري عدَّدها فأورد أن بها «غانا ، وزافون ، وترنكا ، وتكرور ، وسنغانة وبانبغو وزارفيرطا وتنبرا ودرمودا وزاغا وكابرا ويراغوري وكوكو ، وسكان كوكو قبائل بربا وإقليم مالي»(1) . وهذا يقودنا إلى أن مملكة مالي الإسلامية كانت على درجة من السعة .

أما عن التنظيم الإداري فيبدأ بالقرية المعروفة لديهم باسم (الدجو Dugu) نواة الوحدة الإدارية ، ثم تليها المدينة وهي تتكون من مجموعة قرى ونواحيها وأطلق عليها (الكافو Kafo) ، كما أطلق على مجموعة هذه المدن مجتمعة (الكافوات) إسم (الديامانا Diaman) بمعنى الولاية أو المملكة . ويبدو أن هذا التنظيم قد تأثر كثيراً بالنظام القبلي الذي كان سائداً في قبائل (الماندنجو) المؤسسة لحكم مالي(2) . أما لقب (منسا Mansa) أو (ماسا Massa) فإنه يطلق على حكام الولايات ورؤساء القرى في مملكة مالي الإسلامية .

وكان حاكم الولاية يدعى بأكثر من لقب مثل لقب (كي) Kai وهو يعني لديهم ملكاً تابعاً لسلطان مالي ، وبالتالي يعد أرفع لقب يحظى به حكام الولايات في مملكة مالي ، علماً بأن هذا اللقب كان يُطلق على السلطان نفسه فيدعونه (كي مل)(3)(4) .

أما بالنسبة لتصريف شؤون الولاية ، فيأتي (الفربة Farba) بعد (الكي) مباشرة ويحكم أحياناً نيابة عنه في بعض القرى ، وهو ما أكده ابن بطوطة ، إذ ذكر أن الوزير الذي حكم إحدى القرى الواقعة على النيجر في عهد السلطان موسى هو « . . . حاج فاضل فربا مغا وهو ممن حج مع السلطان منسا موسى

---

(1) صلاح الدين المنجد ، ص44 . القلقشندي ح5 ، ص286 . ابن خلدون ، ح6 ، ص199-200 .

(2) عبد الرحمن السعدي ، ص8 . ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص129-130 .
Joseph. KI-ZERBO, p: 160.

(3) (كي مل) له نصيب من الضرائب التي يقوم بجمعها وتقدر بثلث الجباية وهو يشرف على الادارة وكذلك جباية الضرائب . ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص130 .

(4) عبد الرحمن السعدي ، ص8 . ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص129-130 .

لما حج»[1] . وقد ذكر السعدي أن ستة وثلاثين حاكماً في المملكة قد جملوا لقب كي ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : ورن كي ، وزن كي ، كمي كي ، كوكر كي[2] إلخ . . .

ولقب كي يعني نائب السلطان ويماثل النيابات ، فيقال نائب دمشق ونائب الشام إلخ . . . أي بمعنى نائب في كل أموره في البلاد[3] . وبديهي أن هذا النظام الإداري قد اقتبسه منسا موسى من النظام السائد في المشرق العربي . ويعاون الوزير (الفربا) بوصفه المسؤول المباشر لدى الملك أو حاكم الولاية (كي) في تصريف شؤون الولاية ، فيعاونه موظف هام يدعى (مكريف Magrif) وهو المسؤول عن حفظ الأمن وجمع الضرائب[4] .

أما عن مراسم تنصيب الملك فقد أمدّنا قداح بذلك قائلاً : «جرت العادة في كل من مالي وغاؤ أن ينصب الملك على عرشه في سرادق كبير في الهواء الطلق ، ويقف أمامه جميع سكان العاصمة ويحيط به الوزراء والقواد والقضاة ، ثم يقسم الجميع يمين الولاء بعد صلاة الجمعة ، وبعد ذلك يجري تعيين حكام المقاطعات وتسمية الوزراء ، ثم ترفع الأعلام ، وفي المساء يحتفل القوم رجالاً ونساء بالملك الجديد في حلقات الرقص التي تدوم إلى الصباح . وقد حمل ملوك مالي وغاؤ شارات تشبه التي يحملها الخلفاء العرب»[5] .

إن النص السابق يوضح لنا العديد من الأمور ، منها أن الملك له وزراء وقواد وقضاة ، وأن التنصيب يتم بعد الصلاة ، الأمر الذي يؤكد أن هذه المملكة تتخذ الطابع الإسلامي في تقاليدها وحسن تنظيمها ورقيها الإداري . كما يقودنا إلى ما يقام بعد الانتهاء من مراسم التنصيب من احتفالات بهيجة بهذا الملك الجديد وكيفية تشبه ملوك مالي بالخلفاء العرب بوضعهم الشارات . وهذا يوضح مدى التشابه الحضاري العربي الأفريقي .

---

(1) ابن بطوطة ، ص692 .

(2) عبد الرحمن السعدي ، ص10 .

(3) ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص131 .

(4) ابن بطوطة 676 . ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص110-111 .

(5) نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص110-11 .

القضاء

كانت مهمة القضاء في عهد مملكة مالي الإسلامية ، مهمة رفيعة وصعبة ومحل رعاية لدى السلطان ، ولذلك اكتسبت مكانة مرموقة . كما كانت لهذه المهمة شروط لا بد أن تتوافر فيمن يتولى القيام بها ، وهي : العلم والنزاهة والورع ويطلق على القاضي لقب (بانفارفم)[1] .

ويبدو أن هناك ترتيباً في القضاء فهناك القاضي الأعلى الذي يقطن العاصمة ويعتبر مستشاراً للسلطان أيضاً ، ثم القضاة الآخرون الذين يتولون القضاء في خارج العاصمة .

ويلاحظ أن نظام القضاء في مالي استمد كثيراً من ضوابطه من مصر[2] . ولعل مردَّ ذلك راجع إلى رحلة السلطان منسا موسى التي زار فيها القاهرة إبان رحلته للحج ، إذ اصطحب معه عند عودته لبلاده عدداً من الفقهاء المصريين . وكانت مهمة (القاضي) الفصل في المنازعات التي قد تقع بين أفراد الشعب وكذلك المناوشات التي قد تثور بين ولاة الأقاليم أنفسهم .

وفي هذا الصدد ذكر ابن بطوطة عند زيارته إلى (تكدا) إحدى مقاطعات مملكة مالي الإسلامية قائلاً : «وفي أيام إقامتي بها توجه القاضي أبو إبراهيم والخطيب محمد ، والمدرس أبو حفص والشيخ سعيد بن علي إلى سلطان (تكدا) وهو بربري يسمى (ازار) وكان على مسيرة يوم منها ، وقعت بينه وبين التكريري ، وهو من سلاطين البربر أيضاً ، منازعة فذهبوا إليه للإصلاح بينهما»[3] .

الفقرة السابقة تكشف لنا ما كان يتمتع به القاضي في مملكة مالي الإسلامية من صلاحيات تامة في فض المنازعات . كما توضَّح لنا أن بعض العرب كانوا يتولون في عهد المملكة مناصب كحكام للولايات . إضافة لذلك

---

(1) محمود كعت ، ص35 .

(2) ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص131 .

(3) ابن بطوطة ص698 . عبد الله حشيمة ، ص25 .

فهي تقودنا إلى دور المدرسين والخطباء والشيوخ ومكانتهم المحترمة لدى عامة الناس وخاصتهم ، مما يؤكد احترام هذه المملكة لأرباب العلم والعلماء .

والشواهد كثيرة على أهمية القاضي[1] . فقد ورد أن أحد التجار من مدينة ولاتة جاء للسلطان منسا سليمان شاكياً من ظلم لحق به من والي المدينة الذي أخذ منه مبلغ ستمائة مثقال وأراد أن يرد له مائة فقط ؛ فما كان من السلطان إلا أن أرسل قاضياً إلى واليه وأخذ حق التاجر وعزل الوالي[2] .

هذه الفقرة توضح لنا جانباً من جوانب العدل بين الرعية دون النظر إلى مراكزهم الاجتماعية ومكانتهم في الدولة ، ولو أنه في بعض الأحيان قد لا يتم الإنصاف بالشكل المطلوب ، ولكن في الأغلب الأعمّ كان جانب العدل متوافراً .

أما عن نظام الحاكم في مالي فيتكون من محكمتين : المحكمة الملكية التي يرأسها الملك وتختص في فصل جرائم الخيانة ، ويتم انعقادها برئاسته شخصياً . والمحكمة الثانية وهي محكمة القاضي الذي يعيّنه الملك ، ومهمة المحكمة الأخيرة النظر فيما يقع من الجرائم العامة والمنازعات بين الأهالي .

وكانت الطرق المتبعة في المساءلة تتسم بطابع العنف والتعذيب ، وقد يكون المتهم بريئاً غير أنه يذهب ضحية التعذيب[3] . ويتم إعلان الحكم بعد أن يفصل القاضي فيه إذا كان الحكم متصلاً بأحد أفراد الشعب . وقرار المحكمة يعلن على الملأ ، والعقوبة حسب الجريمة فهي تتراوح ما بين السجن والجلد ، وقد تصل إلى الموت أو مصادرة الأملاك[4] .

---

(1) قد يتزوج القاضي أو أبناؤه من البيت الحاكم . ابن بطوطة ، ص681 .

(2) ابن بطوطة ص688 ، فاي منصور علي ، «دولة مالي في عصرها الذهبي على عهد السلطان منسا موسى 712/738هـ/ 1312/1337م» رسالة لنيل الماجستير ، إشراف د . عبد العزيز غنيم ، جامعة الأزهر كلية اللغة العربية (قسم التاريخ والحضارة) 1984م ، ورقة 129 ، لم تنشر .

(3) نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص116-117 .

(4) نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص117 .

وكما أسلفنا سابقاً حول المكانة المرموقة التي كانت للقاضي ، فإن من يتولى هذا المنصب يمتاز بمصافحة الملك ويتصدر الحاضرين في المناسبات والأعياد الدينية . ويصدق السلطان القاضي فيما يقوله[1] .

القوة العسكرية

اتسمت مملكة مالي الإسلامية منذ بدايتها بأنها دولة عسكرية . ولذا اهتم ملوكها بأمر بناء قوة حربية ضاربة ، وكانوا يشرفون بأنفسهم على تسليح الجيش عدة وعتاداً . وقد ظهر هذا الاهتمام منذ أيام (سندياتا كيتا) الذي أنزل بقبائل (الصوصو) هزيمة نكراء في معركة (كبرينا) وطد بعدها حكم مالي ، فبلغت قوة الجيش المالي الذروة في عهد السلطان منسا موسى ، بحيث كان أقوى جيش في السودان الغربي . وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن «مقدار عسكره مئة ألف نفر ، منهم عشرة آلاف فارس فرسان خيالة وسائرهم رجالة لا خيل ولا مركب»[2] . وهذا يعطينا العدد الهائل الذي كان عليه الجيش ، وكيف أنه مقسم إلى فارس وراجل ، الأمر الذي يمكنه من ملاحقة أعدائه بكل اقتدار .

هذا وقد خصص بعض ملوك مالي إقطاعات لأمراء الجند . وكان يغدق عليهم بسخاء بما يقارب خمسين ألف مثقال ذهباً سنوياً ، فضلاً عن إمدادهم بالخيل والقماش لتجميل زيهم وتحسين مدنهم[3] . وكان يتألف قوام الجيش المالي من قبائل الماندنجو والقبائل الصديقة ، ويعتبر الملك بمثابة القائد الأعلى للجيش منذ أيام سندياتا كيتا الذي كان يشرف على المعارك بنفسه ويُعد

---

(1) ابن بطوطة ص686 . كعت ، ص35 .

(2) القلقشندي ح5 ، ص299 . عبد الرحمن زكي ، «الاسلام والمسلمون في غرب افريقيا» ، ص42 . عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الاسلامية السودانية» ، ص119 . عبد القادر زبادية ، ص23 وصلاح الدين المنجد ، ص53 .

(3) القلقشندي ، ح5 ، ص 299 ، عبد الرحمن زكي ، «الاسلام والمسلمون في غرب افريقيا» ، ص42 .

الخطط العسكرية . وتقع على عاتق الجيش مهمة صيانة أمن البلاد من أية اعتداءات خارجية ، واستتباب الأمن الداخلي ، وكان لقادة الفرق العسكرية مكانة مرموقة في الدولة لدرجة أن بعضهم قد اغتصب العرش المالي ، كما فعل (ساكورة) 684-700هـ/ 1285-1300م[1] .

أما عن تقسيم الجيش المالي فإنه ينقسم إلى قسمين ، ويتولى كلاً من القسمين قائد نيابة عن الملك .

فالأول جيش الشمال ويلقب قائده بإسم (فاران سورا Faran Soura) أي بمعنى قائد المسلمين ، ومقره في مدينة (ديارا Diara) في مقاطعة كانياجا .

أما جيش الجنوب فإن مقره الرئيس في مقاطعة (سانجاران Sangaran) ويدعى قائده (ديون صندكي)[2] .

وكانت أسلحة هذا الجيش تتألف من السيوف والحراب ذات النوع الطويل والقصير فضلاً عن القسي والنشاب والرماح والدبابيس التي تصنع من شجر الآبنوس[3] والدروع التي تصنع من جلد حيوان (اللمط)[4] . وفي عهد هذه المملكة كان هناك مراسيم يتم بها تنصيب الفارس حيث يقوم حاكم المدينة الذي يعتبر في الوقت نفسه نائباً للسلطان ، بمسك يد الفارس الجديد ويجلسه على درع يكون قد خصص لهذا الغرض وبعدها يضع الدرع الذي جلس عليه على رؤوس الجنود إيذاناً بدخول فارس جديد إلى هذا المجال[5] .

لقد تبوأت هذه المملكة درجة رفيعة من الرقي فكان لها شعار يرمز لها وهو بمثابة (الراية) وشكله أصفر في أرض حمراء تنتشر عليه الأعلام من

---

(1) محمد الغربي ، ص47 ، عبد الرحمن زكي ، «الاسلام والمسلمون في غرب افريقيا» ، ص33 .

(2) ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص133 .

(3) البكري ، ص171 . ابن بطوطة ، ص695 . عبد الرحمن السعدي ص10 ، القلقشندي ، ح5 ، ص300 ، مجهول ، «تذكرة النسيان» ، (باريس ، نشره هوداس 1966م) ، ص20 .

(4) حيوان اللمط : دون البقر له قرون دقاق وحادة لذكورها وإناثها وكلما زاد عمر الحيوان طال قرنه ، وأجود أنواع الجلود وأغلاها ثمناً في اللمط الأكبر سناً ، البكري ، ص171 .

(5) ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص133 .

جهاته[1] . ويدل هذا الشعار على الكفاح الذي خاضته دولة مالي ضد أعدائها . أما الأعلام التي تحيط به فهي علامات النصر .

الحياة الاقتصادية

أدت تقوية العلاقات التجارية بين مالي والشمال الأفريقي إلى الازدهار الاقتصادي والاجتماعي ، وقد عمّ الرخاء الكثير من طبقات المجتمع المالي ، سواء أكانوا من الحكام أم من الرعية ، ويعزى هذا الازدهار الاقتصادي في المقام الأول إلى سيطرة مملكة مالي الإسلامية على مناجم الملح في تغازا ، والذهب في ونقارة ، والنحاس في تكدا ، فأضافت عائداً اقتصادياً جديداً إلى الأموال الطائلة التي جناها أهل مالي نتيجة للحركة التجارية الدؤوبة عبر الصحراء الكبرى .

وقد شهدت الزراعة نشاطاً ملحوظاً في العديد من أماكن المملكة نظراً لما تتمتع به من مقومات ، منها خصوبة تربتها في أغلب مناطقها وعذوبة المياه ، فضلاً عن أنها كانت تتمتع بكثافة سكانية اتجهت معظمها إلى خدمة الزراعة[2] .

وهذا ما أكده كعت حيث قال : «إن مل مشتمل على نحو أربعمائة مدينة وأرضها كثيرة الخير»[3] .

وهذه العبارة تؤكد الدرجة التي وصلت إليها هذه المملكة من السعة وكثرة الخيرات ، ومن بينها الزراعة التي وجدت تشجيعاً من ملوك مالي ، لما

---

(1) صلاح الدين المنجد ، ص57 . القلقشندي ح5 ، ص301 . فاي منصور علي ، ص135 .

(2) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ، مناهل الصفاء في/ مآثر موالينا الشرفاء ، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم ، (الرباط : وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية 1972م) ص117 . محمد عبد الغني سعودي ، الاقتصاد الافريقي والتجارة الدولية (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية 1973) ص18-19-20 ، مصطفى ناعمي (أهمية التجارة بالنسبة للبنية الاقتصادية والاجتماعية لعرب الصحراء . بلدة تكنة) مجلة البحث العلمي ، (الرباط : المعهد الجامعي للبحث العلمي بدون تاريخ) ص81 .Sekene Mody Sissoko. P: 52

(3) محمود كعت ، ص38 .

تدره عليهم من أموال طائلة ساهمت في ازدهار اقتصادهم الذي كان يعتمد بالدرجة الأولى على التجارة الخارجية . لقد اشتملت حاصلاتهم الزراعية على الأرز والذرة ، ومعظم الأرز الموجود من الصنف البري أما الذرة ، فتمثل الغذاء الرئيسي لهم ولدوابهم[1] وكانت أسعار الذرة مناسبة إذ بلغ قيمة التسعين مداً منه بمدينة تكدا ما يساوي مثقالاً واحداً من الذهب . كما يمثل الأرز أيضاً واحداً من أقواتهم الرئيسة[2] .

وهناك نبات يعرف بإسم الغوتي يجنى ويستعمل غذاء رئيساً ، إذ يقومون بعد جنيه باستخراج حبوبه وهي بيضاء ، ثم يغسلونها ويطحنونها ويصنعون منها الخبز والكسكسي والعصيدة . ومن أهم المحصولات التي يزرعونها نبات (القافي) الذي يدفن في التربة ويزداد حجمه ، ومثله في ذلك مثل القرع . ولأهمية هذا المحصول كان الذي يسرقه يقطع رأسه ولا تقبل فيه أي شفاعة وهي عادة موروثة لديهم منذ القدم[3] .

كما كانوا يزرعون القطن والقمح ، غير أن القمح لم يكن يزرع على نطاق واسع ومن ثم يقتصر أكله على الملك والأثرياء ، فسعره مرتفع[4] . كانت الحنطة أيضاً تزرع عندهم غير أنها ليست على نطاق واسع كما زرعوا لديهم القطانيا[5] التي كانوا يستخدمونها في غذائهم فيصنعون منها العصيدة[6] . ويزرعون أصنافاً من الخضراوات كالبصل واللفت والبطيخ . كما يوجد بمدينة (كوكو)[7] الفقوس العنابي الذي وصفه ابن بطوطة بأنه لا مثيل له ، والملوخية

(1) القلقشندي ، ح5 ، ص88 .

(2) ابن بطوطة ، ص696 . صلاح الدين المنجد ، ص46-47 .

(3) ابن بطوطة ، ص680 . القلقشندي ح5 ص288 . صلاح الدين المنجد ، ص48 .

(4) ابن بطوطة ، ص696-697 . ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص136 . عبد القادر زبادية ، ص22 .

(5) القطانية : هي نوع من الذرة ذات الحجم الصغير .

(6) أبو سعيد المغربي ، ص91 .

(7) كوكو : هو الاقليم الرابع من المملكة ، يقع شرق إقليم مالي ، له ملك والملك له حشم وقادة وجنود ويركبون الخيل والإبل ولهم قوة رهيبة يخشى جيرانهم بأسهم . القلقشندي ، ح5 ، ص285 .

البرية والثوم ، أما الكرنب والباذنجان فإنهما كانا يزرعان بكميات قليلة[1] . كما كثر لديهم نبات القرعة حيث استعملوها في غذائهم وصنعوا منها أدوات الأكل بتقسيمها إلى نصفين وتجويفها من الداخل وعملوا منها على هيئة صحون زينوها بالنقوش واستخدموها في أغراضهم المتعددة .

وقد ذكر ابن بطوطة أن (صحون القرعة) كان يحمل فيها طحين الغرتي إلى العديد من بلاد السودان[2] .

كما وجدت بمملكة مالي الإسلامية غابات كثيفة ومتشابكة ، وبها العديد من أصناف الأشجار المثمرة وغير المثمرة ، وقد استفاد منها أهل مالي استفادة عظيمة ، حسب رواية ابن بطوطة الذي أفاد بأن القافلة الواحدة يمكنها أن تستظل بظل شجرة واحدة . وكانت هذه الأشجار كبيرة إلى درجة أن خزّن الماء في جوفها ونسج النساج غزله بداخلها . كما وجدت من بين هذه الأشجار أشجار مثمرة ، وهي أشبه بالتفاح والمشمش والخوخ . وهناك أشجار أخرى كان يستخرج من ثمارها نوع من الدقيق يطحنونه ، ويتداوله التجار في المعاملات التجارية وفي الأسواق[3] . إضافة لذلك فقد كانوا يجمعون من الأرض حبوباً تشبه الفول يقلونها مع الغرتي ويتناولونها وتعتبر أكلة محببة لديهم ويقدمونها إلى الضيوف . فقد قدم الفقيه عبدالواحد قرعة من الغرتي إلى ابن بطوطة ضيافة له[4] .

كما نبتت لديهم أشجار الفواكه مثل (الجميز) الذي وجد على نطاق واسع ، ولديهم أشجار برية تعرف باسم (تادمون) لها ثمار طيبة المذاق ، وبداخل الثمرة دقيق لونه أبيض يشبه الحنطة طعمه لذيذ ، يستخدمونه إذا جف في الحناء[5] .

---

(1) صلاح الدين المنجد ، ص48 .

(2) ابن بطوطة ، ص679-680 .

(3) نفسه ، ص681 .

(4) نفسه ، ص678-679-681 .

(5) صلاح الدين المنجد ، ص48 ، والقلقشندي ج5 ، ص288 .

ومن ضمن منتجات هذه الغابات صنف من الشجر يسمى (بالزيزور) ثماره أشبه بدقيق (الترمس) وهناك شجر يعرف (بالقوص) له شبه بالسفرجل . كما أن لديهم أشجاراً تعرف بالقاريتي أشبه ما تكون بالليمون فتطحن أو يستخرج منها مخلوط يشبه السمن ، يستعملونه في طلاء البيوت ووقود للسراج وصنع الصابون .

إضافة لذلك فإن أرضهم كانت تنتج (الكولا) بكميات كثيرة والتبغ الذي يعتبر من المحاصيل الزراعية الهامة ، وكانوا يستعملونها في مبادلاتهم مع الملح[1] .

وقد ذكرت لنا بعض المصادر القديمة الكيفية التي يتم بها طهي ثمار القاريتي . وقد ورد : «وإذا أريد أن يؤكل ذلك الدهن يحرق بتدبير ، وصورة تدبيره أن يوضع على نار لينة ويغطى ويترك إلى أن يقوى غليانه ويبقى الذي يدبره يسارقه مسارقة في اختباره ، ويرضعه بالماء قليلاً قليلاً مرات وهو مغطى محترز عليه إلى أن يتناهى على مقدار القوة ، ثم يترك حتى يبرد ويستعمل في المآكل كالسمن ومتى فوجئ بكشف الغطاء فار وطلع وتصاعد إلى السقف ، وربما انعقد منه نار فأحرقت الدار ، وربما زاد فأحرقت البلد . هذا الدهن يحرق كل جلد وضع فيه ولا يحمله إلا ظروف القرع»[2] .

يوضح لنا النص السابق طريقة طبخ إحدى الأكلات التي كانت تستعمل في تلك الفترة .

الثروة الحيوانية

ومن خلال حديثنا عن الحياة الاقتصادية في مملكة مالي الإسلامية ، يجدر بنا أن نتحدث عن الثروة الحيوانية التي كانت تتمتع بها البلاد فهي تنقسم إلى الحيوانات الأليفة والبرية .

---

(1) ابن بطوطة ، ص 674 .

(2) صلاح الدين المنجد ص 49 ، القلقشندي ، ح 5 ، ص 288-289 .
يوجد تعديل طفيف بين العمري والقلقشندي ، فالقلقشندي يقول : ومتى جعل في غير ظروف القرع من الآنية خرقها واعتمد الباحث على نص العمري باعتباره أقدم من القلقشندي .

الحيوانات الأليفة وهي التي تربى في البيوت ، مثل البقر التي تستخدم لحومها ولبنها في غذائهم ، وهو ما أكده ابن بطوطة . فهو حينما زار مالي قدم له ثور ضيافة له[1] .

كما ربوا عندهم الإبل التي استفادوا منها في عدة أمور ، فلحومها ولبنها غذاء لهم ، وأوبارها وجلودها ارتدوها ملابس لهم . كما استخدموها في ترحالهم لحمل بضائعهم وخزانات مياه في أسفارهم الطويلة عبر الصحراء ، حيث كانوا يعطشون بعض الإبل لفترة من الزمن ثم يسقونها الماء ، ثم تسير تلك الإبل مع القافلة ولا تحمل شيئاً من الأمتعة ، وتكمم أفواهها حتى لا تجتر وبعدها يذبح بعير بعد كل مسافة ويؤخذ الماء من جوفه[2] .

ووجدت لديهم الأغنام التي كانوا يستفيدون من لحومها وصوفها ولبنها في شؤون حياتهم ، ويصدرون الفائض منها إلى المغرب الأقصى[3] . إضافة لذلك فقد كثر لديهم الماعز ذات الأصناف الممتازة وذكر أن العنزة الواحدة تلد ما بين سبعة إلى ثمانية جديان سنوياً[4] .

كما ربوا البغال والحمير والخيل ، والخيل من الأصناف الأقل جودة ومن ثم استوردوا الخيل المسومة من الشمال الأفريقي[5] لاستخدامها في أغراضهم المختلفة .

أما عن الحيوانات البرية التي كانت تعيش في الغابات والبراري والوديان ، فتتمثل في حيوان اللمط[6] والفيلة وحمير الوحش والجواميس البرية ، وحيوان يعرف بـ (تومي) وقد ذكر أنه هجين بين الذئب والضبع ،

---

(1) ابن بطوطة ، ص681 .

(2) القزويني ، ص18-19 . أبو الفداء ، ص137 والقلقشندي ، ح5 ص286 . نعيم قداح «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص128 .

(3) صلاح الدين المنجد ، ص56 . محمد الغربي ، ص476 .

(4) نفسه ، ص50 ، نفسه 447 .

(5) محمد الغربي ، ص475 .

(6) أبو الفداء ، ص137 .

صوته كصوت الثور ، وأسنانه متداخلة ، وهو يشكل خطورة على الأطفال في الليل ، أما في النهار فلا يؤذي أحداً . ومن خلال ما ذكر عن تركيبة هذا الحيوان ، فقد سأل الباحث من لهم دراية بعلم الوراثة عما قيل في هذا الحيوان ، فأكدوا أنه لم يحصل تهجين بين الذئب والضبع[1] .

كما وجد لديهم حيوان الزرافة التي كانوا يصطادونها ويأكلون لحمها . إضافة لذلك فقد كان لديهم حيوان يعرف بـ (باللمطي) استعمل جلده في صنع الدروع . ونظراً لقوته فقد وصل ثمن الجلد الواحد منه إلى ثلاثين ديناراً . وكثرت لديهم النمور والأسود التي كانوا يستخدمون فراءها ملابس لهم .

أما الطيور فهي أيضاً مثلت جانباً مهماً في حياة سكان مالي ، حيث كثرت عندهم أصناف الطيور الداجنة وغير الداجنة .

فالطيور الداجنة تتمثل في الدجاج والوز والحمام ، وقد استخدمت لحومها في غذائهم اليومي[2] .

أما الطيور البرية فأبرزها طير النعام الذي كان ريشه تجارة مربحة من بين صادراتهم . كما كانوا يستخدمون بيضه للزينة ، ويباع بأثمان مرتفعة في الأسواق[3] .

كما اشتهرت مدينة (تكدا) بكثرة العقارب من النوع المضر . وقد قال عنها ابن بطوطة : «وعقاربها تقتل من كان صبياً . . وأما الرجال فقلما تقتلهم ، ولقد لدغت يوماً ، وأنا بها ولداً للشيخ سعيد بن علي عند الصبح فمات لحينه»[4] .

---

(1) حسين العجيلي ، أستاذ في علم الوراثة ، كلية الزراعة طرابلس. تمت المقابلة بتاريخ 1988/2/25م .

(2) صلاح الدين المنجد ، ص22-23 . أحمد بابا ، «الكشف والبيان» ورقة 5. وابن بطوطة ، ص679-680 ، القزويني ص18 ، والقلقشندي ح5 ، ص288 ، ومحمد الغربي ص474 .

(3) القلقشندي ، ح5 ، ص288 ، وعبد القادر زبادية ، ص225-226 . محمد الغربي ص474 .

(4) ابن بطوطة ، ص696-697 .

أما عن الحيوانات البحرية في مملكة مالي الإسلامية ، فشملت خيل البحر والتماسيح الضخمة التي وصل طول الواحد منها إلى عشرة أذرع أو يزيد . وكانوا يأخذون مرارتها السامة ويضعونها في خزانة الملك[1] . وربما استخدموها في علاج بعض الأمراض .

الثروة المعدنية

كانت لهذه المملكة ، بالإضافة إلى ثروتيها الزراعية والحيوانية ، ثروة معدنية ، يفوق عائدها الاقتصادي الثروتين السابقتين ، وتتمثل في معادن مهمة وهي : الذهب والنحاس والملح . فيوجد الذهب في الجهات الجنوبية من مالي في منطقة (ونقارة) وقد استغل ملوك مالي تلك المناجم مما درَّ عليهم ربحاً كثيراً ، حيث صارت مضرباً للأمثال في الغنى ، وقد وصلت شهرتها إلى أوروبا على أنها أكبر مناطق أفريقيا استخراجاً للذهب ، كما كان منجم (بمبوك) من المناجم المهمة في مالي[2] . وقد أورد القلقشندي نقلاً عن مسالك الأبصار ، أن السلطان منسا موسى عندما سئل عن معدن الذهب إبان زيارته لمصر ، أفاد أن هذا المعدن يتكون من نوعين :

«نوع من زمان الربيع ينبت في الصحراء له ورق شبيه بالنخيل ، أصوله التبر ، والثاني يوجد في أماكن معروفة على ضفاف مجاري النيل (نهر النيجر) ، تحفر هناك حفائر ، فيوجد فيها الذهب كالحجارة والحصى ، فيؤخذ ، قال : وكلاهما هو المسمى بالتبر . ثم قال : والأول أفحل في العيار ، وأفضل في القيمة . . . ذكر أيضاً أنه يحضر في معادن مجتمعاً في أسفل الحفيرة . . . وأن النوع الأول من الذهب يوجد في زمن الربيع عقيب الأمطار ينبت في

---

(1) القلقشندي ، ح5 ، ص288 .

(2) ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص140 . محمد الغربي ، ص495 ، وأحمد الياس حسين «سلع التجارة الصحراوية» الصحراء الكبرى ، (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ـ سلسلة الدراسات المترجمة 1979م) ص204 .

مواقعها ، والثاني يوجد في جميع السنة على ضفاف مجاري النيل . . . إن نبات الذهب بهذه البلاد يبدأ في شهر (أغشت) حيث سلطان الشمس قاهر وذلك عندما أخذ النيل في الارتفاع والزيادة ، فإذا انحط النيل حيث ركب عليه من الأرض فيوجد منه ما هو نبات يشبه النخيل وليس به ، ومنه ما يوجد كالحصى فذهل الجميع مما يحدث في هذا الزمن في أماكن النيل»[1] . والذي يهمنا من ذلك كله أن معدن الذهب من المعادن المهمة في حياة السكان حيث يتم استخراجه وبيعه أو مقايضته بالبضائع التي كانوا يحتاجون إليها .

أما عن معدن النحاس فقد أمدنا ابن بطوطة والقلقشندي بمعلومات قيمة ، حيث قال الأول : «ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون به إلى البلد ، فيسبكونه في دورهم ، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم ، فإذا سكبوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال ذهب ، وهي حرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح»[2] .

أما الثاني فقد نقل عن عيسى الزواوي قوله : «قال لي السلطان موسى أن عنده في مدينة إسمها نكوا (يقصد بها تكدا) معدن نحاس أحمر يجلب منه قضبان إلى مدينة (بنبي) قاعدة مالي فيبعث منه إلى بلاد السودان الكفار فيباع وزن مثقال بثلثي وزنه من الذهب ، فيباع كل مائة مثقال من هذا النحاس بستة وستين مثقالاً وثلثي مثقال من الذهب»[3] .

---

(1) القلقشندي ، ج5 ، ص290 .

لقد ورد أن هناك طريقة أخرى للحصول على الذهب في مالي عن طريق الأفاعي التي تقطن في جحور قرب النهر وعند خروجها من جحورها تملأ أفواهها بالرمل المختلط بالذهب فتضعه في أماكن رعيها فيقوم الأهالي بأخذه . إن مسألة كون الذهب نباتاً هي أسطورة من طراز (Ster-ioppe) مثل أن يدعي اليوم أحد بدو الخليج أن لديه بزريبته بئري نفط يقوم باستخراج ما فيهما بنفسه ويبيعه .

(2) ابن بطوطة ص697-698 . محمد الغربي ص497 .

(3) القلقشندي ، ج5 ، ص291 .

يمدنا النصان السابقان بأسماء المدن التي كان يستخرج منها معدن النحاس ، وطريقة سبكه ، وعلى أي الأشكال يعمل ، وكيف أنهم استعملوه في مبادلاتهم التجارية ، ثم الأرباح الهائلة التي كانوا يجنونها منه .

وبخصوص معدن الملح فيعتبر من المعادن الهامة ، مع أن إنتاجهم منه لم يكن يكفي استهلاكهم ، ولذا فقد كانوا يستوردون كميات كبيرة من الشمال الأفريقي ، وهذا ما جعل ثمنه مرتفعاً جداً . فأهم مناجم الملح توجد في شمال البلاد ، وليست بعيدة من تخوم المغرب الأقصى . وأشهر هذه المناجم في منطقة (تغازا) . كما وجدت مناجم هامة في سبخة تاودني وأبو جبيل وكلها لم تكن كافية لحاجات مالي ، وعليه أدت تجارة الملح بين مالي والشمال الأفريقي دوراً هاماً في الاقتصاد المالي[1] .

ويرجع الفضل في ازدهار المراكز التجارية إلى تجارة الملح . ومن هذه المراكز نياني التي كانت في مرحلة من المراحل عاصمة مملكة مالي الإسلامية . وقد وصفها العمري قائلاً : «ومدينة بني (نياني) ممتدة طولاً وعرضاً ، تكون طول بريد تقريباً وعرضها كذلك»[2] .

ومن المراكز التجارية الهامة مدينة (جاو) التي انتشر فيها الإسلام في نهاية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)[3] ، وتبعد عن مدينة تمبكتو بحوالى 400 ميل . وقد روى البكري عام 461هـ/ 1068م شيئاً عن مدينة جاو بقوله : «وأهلها مسلمون وحواليها المشركون ، وأكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس المسبوك والتاكوت ، وهو أنفق شيء عندهم للدبغ ، وحواليها معادن التبر وهي أكثر بلاد السودان ذهباً»[4] .

---

(1) ابن بطوطة ص674 . ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص140 .

(2) صلاح الدين المنجد ، ص46 .

(3) عبد الرحمن السعدي ، ص12 .

Zeini Moulaye. "Les relation du Mali avec les Etats Nord - Africans de 1960 à 1980". These du Doctorat. Membre du Jury: M. Marcel Merle. Université de Doctorat. Departement de science politique de la Sorbonne. 1982. p: 6 (Non Edite!).

(4) الاستبصار ، ص222 ، والبكري ص173 .

وكانت الحركة التجارية في جاو مزدهرة بحيث تصلها السلع من الشمال الأفريقي والشرق العربي والهند ، وكذلك من السودان الأوسط (برنو) . وقد ازدهرت تجارة النحاس المسبوك في هذه المدينة ، لما كان يرسل إليها من مناجم تكدا ، وكانت جاو مركزاً رئيساً لتجارة الرقيق ، وكذلك لسلعة (التاكوت) التي تصلها من غدامس وتستخدم في دباغة الجلود .

وتعدّ مدينة تكدا لموقعها الجغرافي الممتاز بين جاو وايرا مركزاً هاماً لتجارة القوافل . وقد أكد ابن بطوطة ذلك ، بأنه كانت هناك علاقات تجارية وطيدة بين تكدا وكل من ورقلان ومصر[1] .

كما كانت مدينتا تمبكتو وجني تمثلان ثقلاً اقتصادياً ، بما كانتا تنقلانه من بضائع إلى الشمال الأفريقي والشرق العربي ، وما كان يأتي إليهما من بضائع تلك البلدان وخاصة الملح[2] ، ومن ثم شكلتا مصدراً مهماً في النهوض بمملكة مالي الإسلامية .

والجدير بالذكر أن المرأة شاركت في المعاملات التجارية بتزويد الوافدين بما كانوا يحتاجون إليه من غذاء ، فكانت تأتي بالدجاج واللبن والأرز ودقيق النبق[3] إلى المسافرين . وكان قوام الحركة التجارية التي ربطت بين السودان الغربي والشمال الأفريقي في بدايتها تعرف بتجارة المقايضة التي عرفت في فترة ما بالتجارة الصامتة ، ثم تطورت بعد ذلك إلى التجارة بالعملة فاستخدم الودع في العملية التجارية بصفته عملة . وهذا ما أورده العمري قائلاً : «وأخبرني ابن أمير حاجب أن المعاملة في بلاد التكرور بالودع»[4] .

---

(1) ابن بطوطة ، ص698 . ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ص139 . عبد العزيز كامل «العروبة والحضارات الافريقية في منظور جديد» مجلة معهد البحوث والدراسات العربية (تصدرها جامعة الدول العربية ، مارس 1972م» ، ع3 ، ص239-240 .

(2) ابن بطوطة ص680 . جاك ووديس ، «جذور الثورة في افريقيا» ، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بليغ ، راجع الترجمة عبد الملك عودة ، (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1971م) ص563 .

(3) ابن بطوطة ، ص680 .

(4) صلاح الدين المنجد ، ص61 . محمد عبد الغني سعودي ، ص21 .

كما استعمل أهل مالي عندما كانوا ضمن نطاق دولة غانا في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) القماش المصنوع من القطن ، والذرة والملح والنحاس في معاملاتهم التجارية . وأفادنا البكري عن ذلك بقوله : «وتبايع أهل مالي بالثروة والملح وحلق النحاس وأزر من قطن يسمونها الشيكات»[1] .

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) استطاع أهالي السودان الغربي (مالي) ضرب عملة من الذهب محلياً على هيئة نقد ، وكان معروفاً بالمثقال ، وهو يزن ما بين 4-6 غرامات من الذهب . إلى جانب ذلك فقد استخدمت العملة المغربية نقداً يتم التعامل به . وقد أكد ذلك ابن حوقل حيث أخبر أنه شاهد عقداً بين تاجرين أحدهما من أودغست والآخر من سجلماسة ، يبلغ أربعين ألف دينار مغربي . إلى جانب ذلك فقد عثر في بلاط ملوك مالي وفي جاو على دنانير مغربية وكذلك نقود مصرية[2] .

ومما تقدم عرضه يتبين لنا أن مملكة مالي الإسلامية اعتمدت في حياتها الاقتصادية على معادن أرضها وعلى العديد من أصناف التجارة التي كانت تقع بين مدن المملكة ومدن الشمال الأفريقي والشرق العربي ، ثم على الثروة الحيوانية التي كانت عماد حياة السكان في الغذاء والترحال . وكذلك الحال بالنسبة للزراعة التي اهتم بها الماليون في حدود ما توافر لديهم من إمكانيات وخبرة . فعند بلوغ هذه المملكة أوج عظمتها ، عملت على دعم اقتصادها بصك عملة لها من الذهب ساهمت بدورها في عملية التبادل التجاري والازدهار الاقتصادي في مالي .

وبعد أن تحدثنا عن الحياة الاقتصادية فعلينا أن نعرج على الحياة الاجتماعية في هذه المملكة ومدى تطورها .

---

(1) البكري ، ص173 .

(2) ابن حوقل ، ص65 . نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص127-128 . عبد القادر زبادية ، ص208 .

الحياة الاجتماعية

كان المجتمع الأفريقي في نشأته الأولى يعتمد على الصيد وجني الثمار والزراعة البدائية ، مما جعل السكان يلجأون إلى التجمع والتعاون فيما بينهم للسيطرة على متطلبات الحياة القاسية والمحافظة على بقائهم على قيد الحياة .

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، نشأ ما يعرف بالعشيرة التي سميت (بالتوتم)[1] ، التي تعتبر وحدة اقتصادية متكاملة في جميع الأشياء التي تحتاج إليها ، والعمل فيها موزّع بين الرجل والمرأة . فالرجل يذهب لصيد الحيوانات ورعي المواشي ، أما المرأة فإنها تشتغل بالزراعة ، أما كبار السن فإنهم كانوا يقدمون النصائح لهم لما امتازوا به من حنكة ودراية[2] .

ويلاحظ أن الزواج في هذا المجتمع كان محصوراً في داخل العشيرة ، حفاظاً على تماسكهم . والرجل في السودان الغربي كان يسمى بإسمه ثم بإسم عائلة أمه ، أو قبيلتها والنظام العائلي سيطرت عليه الأم . حيث نجد أن القاعدة المتبعة هي الوراثة من ناحية الأمومة . وحول هذا الموضوع ، علق القلقشندي بقوله : «على قاعدة العجم في تمليك البنت وابن البنت»[3] . وهي قاعدة استفاد منها العرب الذين هاجروا أو الذين تاجروا مع مالي وغيرها إذ تولى أبناؤهم من زوجاتهم الوطنيات مقاليد الأمور .

وعند دخول الإسلام إلى السودان الغربي بدأ تفكك العادات الوثنية ، التي كانت متبعة في النظام القبلي شيئاً فشيئاً في تلك الجهات ، فاكتسب الأهالي الأسماء العربية والعادات الإسلامية ، وتلاشت شيئاً فشيئاً الفوارق الطبقية والعائلية بينهم ، وساعد كل ذلك على تطور دور الرجل في المجتمع ، وأصبح الفرد ينسب إلى الأب ويحمل اسمه[4] .

---

(1) التوتم : حيوان أو نبات اتخذوه معبودهم وهو يرمز إلى أجدادهم . نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص94 .

(2) نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص93-94 .

(3) القلقشندي ، ج5 ، ص294 .

(4) نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص94 . الحسن القنصي ، ورقة 5 ، محمد الحسيني مصيلي ، منظمة الوحدة الافريقية ، ص3 .

أما المجتمع المالي فلا يختلف ـ في الغالب الأعم ـ عما هو في دولة غانا الوثنية ، وذلك لأن هذا المجتمع ما زال محتفظاً بأنماط أفريقية ممتزجة بأنماط إسلامية . ويظهر ذلك في عادة جلوس السلطان في مقر حكمه ، وفي الترتيبات والمراسيم التي كانت تتبع في مقره .

فقد أورد القلقشندي وصفاً دقيقاً لجلوس الملك المالي في قصره ، وذلك حين قال : «أما جلوس السلطان في قصره فإنه يجلس على مصطبة كبيرة على دكة كبيرة من آبنوس ، كالتخت على قدر المجلس العظيم المتسع ، عليها أنياب الفيلة من جميع جوانبها ، الناب إلى الناب ، وعنده سلاح له من ذهب كله سيف ومزراق وقوس وتركاش ونشاب وعليه سراويل كبيرة ، مفصل من نحو عشرين نصفية ، لا يلبس مثله أحد منهم ، بل هو من خصوصيته ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكاً من الترك وغيرهم ممن يبتاع له من مصر ، بيد واحد منهم جتر من حرير عليه قبة ، وطائر من الذهب صفة بازي ، يحمل على يساره ، وأمراؤه جلوس ، وبين يديه شخص يغني له وهو سيّافه ، وآخر سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر»[1] .

يوضح النص السابق جانباً من الجوانب الاجتماعية في عهد مالي ، وهي الكيفية التي يتم بها جلوس الملك وما تحفه من مواكب من البشر وما يرتديه من ملابس لمثل هذا اليوم .

وفي الوقت نفسه ، هناك عادات وتقاليد في سلم حكم ملوك مالي لا تتلاءم وروح الدين الإسلامي ، في كيفية الدخول إلى دار السلطنة ، إذ على من يدخل دار السلطان أن يخلع نعليه ، وإن لم يفعل ، حتى لو كان ناسياً ، قتل دون شفاعة . كذلك من العادات الذميمة أن من يعده الملك بشيء وينعم عليه أو يشكره ، فإنه يتمرغ من بداية مجلس الملك إلى أن يصل بين يدي الملك ، وفي هذه الأثناء يضع عبيد المنعم عليه التراب على رأس سيدهم[2] .

---

(1) القلقشندي ، ح5 ، ص300 . صلاح الدين المنجد ، ص51-52 .

(2) القلقشندي ، ح5 ، ص300-301 . عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الاسلامية السودانية» ، ص120-121 .

إضافة إلى ذلك لديهم عادات رذيلة، فعبيدهم يخلعون قمصانهم أمام الملك دون حياء ويتأزرون بها، ثم يركعون ويضربون صدورهم ويجثون على ركبهم[1]. ومن عاداتهم الذميمة ظهور الفتيات عاريات لا يسترهن شيء، وهن يحملن الطعام إلى قصر السلطان في ليلة السابع والعشرين من رمضان. كما أن من عاداتهم أنهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير[2]. وإذا ما توفي أحد من عامة الناس أو الفقراء، فإنه لا يدفن، إذ لا يدفن إلا من هو من ذوي الهيبة[3]. إضافة إلى هذه العادات الرذيلة، فإن نساءهم لا يعرفن للحشمة طريقاً، ولنسائهم أصدقاء وأصحاب، ولرجالهم صديقات من النساء الأجنبيات. وإذا ما دخل رجل إلى بيته ووجد به رجلاً غريباً فلا يتأثر من ذلك. وهذا ما شاهده ابن بطوطة بقوله: «دخلت يوماً على القاضي بايوالاتن (ولاتة) بعد إذنه في الدخول، فوجدت عنده امرأة صغيرة السن، بديعة الحسن، فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع، فضحكت مني ولم يدركها خجل، وقال لي القاضي: لمَ ترجع؟ إنها صاحبتي، فعجبت من شأنهما، فإنه من الفقهاء الحجاج وأخَبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته»[4].

وأمام هذه العادات الشائنة التي كانت عليها مملكة مالي الإسلامية، ومن خلال استقراء الأحداث يبدو أن تعاليم العقيدة الإسلامية لم تضرب بجذور عميقة في نفوس الرعية، وحتى الحكام في العديد من الأمور. وهذا ما أكده السلطان منسا موسى عند زيارته إلى القاهرة في طريقه إلى الحج، حيث انتقد في العديد من الأفعال غير الإسلامية، فأجاب أنه لا علم له بذلك في الشريعة الإسلامية[5].

---

(1) محمود كعت، ص35.

(2) ابن بطوطة، ص691-692.

(3) صلاح الدين المنجد، ص55.

(4) ابن بطوطة، ص678.

(5) القلقشندي، ح5، ص296. صلاح الدين المنجد، ص58. ابراهيم طرخان، «دولة مالي الاسلامية»، ص162.

وبخصوص زواج حكام مالي فقد درجوا على عادة تعدد الزوجات ، إذ يتزوجون من داخل البيت الحاكم وخارجه . غير أن الزوجة التي تنتمي إلى الأسرة الحاكمة كانت تحظى بميزات عديدة أكثر من وصيفتها ، إذ يطلق عليها لقب (قاسا) بمعنى الملكة ، وكانت تشارك الملك في تصريف شؤون الحكم .

أما الزوجة التي لا تنتمي إلى البيت الحاكم ، فكان دورها ثانوياً ولا تتمتع بمظاهر الاحترام والاهتمام ، إلا إذا أخطأت الزوجة الأولى مع الملك وقرر إيقافها وأن تحل مكانها زوجة من خارج الأسرة .

ولكن بالرغم من ذلك فلم تحظ هذه الزوجة التي أصبحت ملكة ، وهي لا تنتمي إلى البيت الحاكم ، بعين الرضى من العامة ، بل إن بنات عم الملك درجن على احتقارها بوضع التراب على أذرعهن بدلاً من رؤوسهن عند الدخول عليها ، وذلك تصغيراً لها[1] .

ومن الملاحظات التي أبداها ابن بطوطة أن المساجد وبيت الخطيب كانت حرماً يلجأ إليها المستجيرون من بطش السلطان ، مثلما حدث بالنسبة إلى (قاسا) زوجة الملك الأولى التي فرَّت إلى بيت الخطيب خوفاً من وشاية وصلت إلى السلطان[2] .

غير أن الذين لم يستطيعوا اللجوء إلى المساجد أو بيت الخطيب ، ينصبُّ عليهم غضب السلطان[3] وينالون عقابه ، وكانت بعض العقوبات التي يفرضها السلطان لا تتماشى وروح الدين الإسلامي ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، كانت المذنبات من نساء البيت الحاكم أو خارجه ، يعرض عليهن الدخول على الملك عاريات صباحاً ومساء لمدة سبعة أيام تكفيراً لذنبهن .

وعموماً يكن أهل السودان الغربي احتراماً لا مثيل له لملوكهم ، لا سيما أهل مالي . وكان عند مثول أحدهم في مجلس السلطان ، يدخل بثياب رثة

(1) ابن بطوطة ، ص688-689 .
(2) نفسه والصفحة .
(3) نفسه والصفحة .

قذرة ، ثم ينزع عمامته ويضع بدلاً منها (شاشية) وسخة ، ويرفع سراويله إلى منتصف ساقه ضارباً الأرض ضرباً شديداً بمرفقيه ، واقفاً على هيئة الراكع ، وذلك لإبداء الذلّة والاحترام للسلطان الذي يستمع بعدها لما يقوله ، فإن صدّقه السلطان أو شكره يقوم بنزع ثيابه ويضع التراب على رأسه تقديراً أو عرفاناً[1] .

وأصبح تذلل أهل مالي إلى سلاطينهم عادة تكاد تكون شبه دبلوماسية ، تنسحب على دخولهم لسلاطين الدول الأخرى . وفي هذا الصدد كشف الرحالة ابن بطوطة النقاب عن مثول رسول السلطان منسا سليمان أمام حضرة السلطان المريني قائلاً : «أنه لما قدم الحاج موسى الونجراتي رسولاً عن منسى سليمان إلى مولانا الحسن رضي الله عنه (يقصد أبا الحسن المريني) كان إذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب ، فيترب مهما قال له مولانا كلاماً حسناً كما يفعل ببلاده»[2] . إضافة لذلك ما أورده ابن خلدون عن هدية ملك مالي إلى سلاطين المغرب الأقصى التي سنتحدث عنها في الفصل الرابع ، من أن الوفد المالي عندما قدم هدية ملك مالي إلى سلطان المغرب الأقصى ، فإنهم نزعوا أوتار قسيهم وحيوا السلطان بتحية معروفة لديهم بوضع التراب على رؤوسهم . وعليه يتأكد لنا بأن أهل مالي يحيون حتى غير ملوكهم بوضع التراب على رؤوسهم[3] .

ويعلل طرخان أن هذه العادات تكاد تكون محصورة في الدول التي قامت بالسودان الأوسط والغربي ، نظراً لما كان يتمتع به ملوكهم من السلطة والهيبة التي جعلت من الرعية عبيداً خانعين لهم[4] .

---

(1) ابن بطوطة ، ص685 . القلقشندي ، ج5 ، ص301 . صلاح الدين المنجد ، ص54 . عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الاسلامية السودانية» ، ص116 .

(2) ابن بطوطة ، ص685 ، والحسن القنصي ، ورقة 52 .

(3) ابن خلدون ، ج7 ، ص310 .

(4) ابراهيم طرخان ، «دولة مالي الاسلامية» ، ص158 .

وقد أثنى ابن بطوطة على استتباب الأمن في مالي وقلة الظلم ، ومحافظتهم على ممتلكات التجار الوافدين عليهم من أية اعتداءات ، حتى لو كان قناطير مقنطرة من الذهب والفضة والملح[1] .

بالإضافة إلى أن أهل مالي كانوا يلتزمون بأداء الصلاة في مواقيتها ، ويضربون أبناءهم عليها . كما كانوا يحرصون على تحفيظهم القرآن الكريم ، ولو أدى ذلك إلى الغلظة . وهذا ما لمسه ابن بطوطة في مالي ، حيث شاهد شاباً جميل الصورة موثقاً بحبل ، وعندما سأل عنه أخبر أنه لم يحفظ القرآن الكريم[2] .

وقد أثرت الحضارة العربية الإسلامية في الكثير من سلوكيات مملكة مالي الإسلامية بحسن العشرة وتقديم غيرهم على أنفسهم[3] ، وكرمهم للغرباء . وقد لمس ذلك ابن بطوطة عند زيارته لمالي ، حيث أكرمه السلطان منسا سليمان بالعطايا ، وخصَّه الدرغا برعاية فائقة ، إذ أكرمه بتقديم ثور ضيافة له . كما أن السلطان منسا موسى أجزل العطاء (لأبي اسحاق الساحلي)[4] وهو الذي أعطاه في يوم واحد مبلغاً قدره أربعة آلاف مثقال[5] .

كما اتصف العديد من ملوك مالي بحب الصدق . وما حادثة القاضي الدوكالي المكنى بأبي العباس وأمير (ميمة)[6] إلا دليل على أن سلاطين مالي كانوا يحبون الصدق[7] .

---

(1) ابن بطوطة ص690 ، عبد الرحمن زكي ، «الاسلام والمسلمون في غرب افريقيا» ، ص42 ، عبد الرحمن زكي ، «تاريخ الدول الاسلامية السودانية» ، ص121 ، وعلي عبد الله الخاتم ، ص25 .

(2) ابن بطوطة ، ص690-691 .

(3) أحمد التنبكتي ، «رهينة التاريخ» ، ورقة 5 .

(4) أبو اسحاق الساحلي يعرفه ابن خلدون بأبي اسحق الطونجق ويعرفه الكتاب المحدثون أبي اسحاق ابراهيم الساحلي أندلسي الأصل اصطحبه السلطان منسا موسى معه عند عودته من الحج وقد قام ببناء قبة مربعة وقد أبدع في إعدادها بما أدخله عليها من الكلس والأصباغ الزاهية كما بنى العديد من المساجد بالآجر الذي لم يكن معروفاً في منطقة السودان ومن ثم أدخل الطراز المغربي الأندلسي إلى هذه المناطق . ابن خلدون ، ح6 ص201 ، أمين توفيق الطيبي ، «دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس» ، ص311 .

(5) ابن بطوطة ، ص689 . آدم عبد الله الألوري ، «موجز تاريخ نيجيريا» ، ص155-156 .

(6) (ميمة) يعرفها كعت ميم ، كعت ص43 .

(7) توماس آرنولد ، ص356 .

وقد أشاد توماس آرنولد بهم حينما قال : «من أعظم أجناس أفريقيا رقياً» . وأثنى عليهم الوزان بقوله : «وهم أكثر تحضراً وذكاء واعتباراً من بين جميع السود ، لأنهم كانوا السابقين إلى اعتناق الإسلام»[1] .

زي أهل مالي واحتفالاتهم في المناسبات الدينية والأعياد

أهل مالي ينقسمون إلى ثلاث طبقات اجتماعية مميزة ، والطبقة العريضة وهي طبقة عامة الشعب ، ملابسها تشبه الزي العربي المغربي ، وهي عبارة عن عمائم تحنك مثل العرب وجباب ودراريع بدون تفريج أي تخريج . وقماش ملابسهم لونه أبيض مصنوع من القطن الذي يكثر عندهم ، ولديهم مهارة في نسج الملابس تخرج في غاية الدقة وتعرف لديهم (بالكميصا)[2] .

أما الطبقة الثانية فتشمل طبقة الفرسان التي تتكون من المنضمين إليها نتيجة ما يبديه الفارس من فروسية ، وفروسيته هي التي تحدد نوع لباسه . فالفارس يلبس أساور من ذهب ، ومن ازدادت فروسيته عن أقرانه ، فإنه يكرم بأن يلبس معها أطواقاً من ذهب تميزه عن غيره من الفرسان ، وكلما ازدادت فروسيته وأظهر من ضروب القوة والشجاعة ما لم يظهره غيره ، ألبس معها خلاخل من ذهب ، فإذا ما زادت فروسيته على الحدود السابقة ، فإن الملك يلبسه سراويل أوسع من ذلك ،ب وشكل سراويلهم واسعة وضيقة الساقين[3] .

وما التكريم الذي كان يكافأ به الفارس المالي ، إلا ما يعرف لدينا اليوم بالأنواط العسكرية والمداليات والنياشين التي تمنح للجندي تكريماً لبطولته .

وأما الطبقة الثالثة فإنها تشمل الملك وأفراد الأسرة الحاكمة . «ويمتاز الملك في زيه بأنه يرخي له عذبة بين يديه ، وتكون سراويله من عشرين

---

(1) الحسن الوزان ح2 ، ص165 .

(2) صلاح الدين المنجد ص53 .

(3) نفسه ، ص56 .

نصفية ، لا يتجاسر على لبس هذا أحد غيره . وملوك هذه المملكة يجلب إليها الخيل العراب وتبذل الأثمان الكثيرة فيها»[1] .

توضح لنا الفقرة السابقة أن للملك في عهد مملكة مالي الإسلامية ملابس خاصة به ، لا يجرؤ أحد من رعيته أن يلبس مثلها أو قريباً منها ، ومن ثم يكون السلطان مميزاً عن الرعية وعامة الناس .

وقد أورد القلقشندي أن أهل هذه المملكة يركبون الخيل المسرجة ، وهم يتشبهون في ذلك بالعرب ، غير أنهم عند ركوبهم عليها يبدأون برجلهم اليمنى على خلاف غيرهم .

أما بناء منازلهم فهو عادة من الطين اللبني الذي يعرف عندهم (بالبالستا) ، ويستغرق البناء عندهم فترة من الزمن ، حيث إنهم يبنون بالطين ثلثي ذراع ، ثم يتركونه لفترة كافية من الزمن حتى يجف . وبعد أن يبنوا الجدران يقومون بتغطية أسطح منازلهم بالأخشاب وعيدان القصبة حيث يضعونها على هيئة قباب . ولا يستخدم عامة الشعب أسواراً حول منازلهم ، ولذا ، كانت جلها متباعدة عن بعضها البعض[2] .

أما الملك فإن منازله ليست مثل عامة الرعية ، فلديه العديد من القصور المبنية من الكلس والأصباغ الزاهية ، كما بنيت كذلك بالآجر . وقد شارك في بناء هذه القصور المهندس أبو اسحاق الساحلي ، ومن ثم أضفى الطابع المغربي الأندلسي على المنازل بما أدخله من نظام القباب . ومساكن الملك بعيدة عن مساكن الأهالي ويحيط بها سور واحد[3] .

---

(1) نفسه ، ص53 .

(2) القلقشندي ، ج5 ، ص283-299 .

(3) ابن خلدون ، ج6 ص201 . أمين توفيق الطيبي ، «دراسات وبحوث في تاريخ المغربي الأقصى والأندلس» ، ص311 .



أعطى أهل مالي اهتماماً بالغاً للمناسبات الدينية والأعياد . ويشارك ملوكهم وأفراد الأسرة الحاكمة في مثل هذه الأعياد . وقد ورد أنه إذا حضر يوم العيد ، فإن الناس يخرجون إلى المصلى مرتدين الملابس البيضاء الجميلة .

أما السلطان فإن له نظامه الخاص به ، حيث يأتي إلى مكان الصلاة واضعاً طيلساناً على رأسه ، لا يلبسه إلا في الأعياد مشاركاً في ذلك القاضي والخطيب والفقهاء الذين يلبسونه طيلة العام . ومن عادات الرعية أنهم يمثلون بين يدي السلطان ، حيث يتعالى تكبيرهم وتهليلهم وبأيديهم الأعلام الحمراء المصنوعة من الحرير . ومن عاداتهم أيضاً أنهم يقيمون عند المصلى خباء يدخله السلطان فيرتدي فيه ملابسه ويتطيب ومن ثم يخرج للصلاة حيث تقام الصلاة ، وعند انتهاء الخطيب من الخطبة ينزل من على المنبر ويجلس بين يدي السلطان ويبدأ بذكر مآثره الحسنة ويدعو إلى طاعة السلطان . وفي المصلى يوجد مترجم يعرف (بالدوغا) يترجم للناس ما قاله الخطيب[1] . الأمر الذي يوضح لنا أن اللغة العربية لم تكن في تلك الفترة واسعة الانتشار إلى الدرجة التي يتحدث بها جلّ الناس .

أما بعد صلاة العصر من يوم العيد ، فان السلطان له مراسيم أخرى ، إذ كان يجلس على مصطبة معدة له وفي حضرته يأتي كبار موظفي بلاطه (السلحدارية) بتراكش الذهب والفضة ودبابيس البلور ، ويقف بمحاذاة رأسه أربعة من الأمراء ، في أيديهم حلية من الفضة يطردون بها الذباب عن السلطان .

كما يحضر الترجمان وبرفقته نساؤه الأربع وجواريه اللائي يبلغن حوالى مائة جارية ، يلبسن الملابس الفاخرة الجميلة واضعات على رؤوسهن عصائب الذهب والفضة ، تتخللها تفافيح ذهب وفضة ، ويجلس المترجم على مقعد ويضرب على آلة مصنوعة من نبات القصبة ، تحتها قريعات . وفي هذا

---

(1) ابن بطوطة ، ص686 .

الحفل يعدد المترجم مناقب السلطان على هيئة شعر ، ويغني معه نساؤه وجواريه ، ويتخلل هذا الغناء حركات بديعة بالقسي تعبر عن البهجة . وفي هذا اليوم يرافق المترجم نحو ثلاثين من غلمانه مرتدين أفخر ملابسهم ، ويردد الشباب معه أغانيهم ، ويقدمون حركات بهلوانية . وفي نهاية الحفل يمنح السلطان المترجم مائتي مثقال ذهباً ، ويعلن المترجم كرم السلطان أمام الملأ[1] .

كما يحضر هذا الحفل الشعراء الذين يعرفون (بالجلاد) مرتدين صوراً تشبه طير الشقشاق يربطونها إلى بطونهم ، ويتكلمون بالشعر أمام السلطان ، وهو عبارة عن وعظ وإرشاد له بأن يذكروه بمن كان جالساً قبله على سدة الحكم وعلى هذا المقعد الذي يجلس عليه هو اليوم ، فيعددون أعمال أسلافه السابقين من مآثر حسنة ، وينصحونه بالتحلي بالأعمال الطيبة حتى يذكر بها بعد مفارقة الدنيا .

بعد الانتهاء من الوعظ والإرشاد يقوم كبير الشعراء ويصعد على درج المقعد المعروف (بالبنبي) الذي يجلس عليه السلطان ، ويضع رأسه في حجر السلطان . ومن بعد يصعد إلى أعلى المقعد فيضع رأسه مبتدئاً بكتف السلطان الأيمن ثم الأيسر ، وفي هذه الفترة يتكلم بلغتهم ومن بعد ينزل ويأخذ مكانه .

وقد أورد إبن بطوطة أن هذه الأفعال كانت قبل مجيء الإسلام إليهم واستمرت بعده[2] .

ونلاحظ من خلال ما تمَّ عرضه أن هذا النوع من الوعظ الذي أسداه الشعراء للسلطان له ما يشبهه لدى ملوك الشرق العربي الإسلامي على أيدي الفقهاء وعلماء الأمة الإسلامية .

ومن خلال استقرائنا للأحداث نجد أن العديد من ملوك مالي تهيمن عليهم الخرافات . وما أورده ابن بطوطة عن قصة الجرادة التي تتكلم عن الظلم والفساد ، في أي بلاد يكثر فيها الظلم يبتليها الله بالجراد ، وكيف أن السلطان صدق القاضي الذي يروي هذه الخرافة ، وكيف تبعه الوزراء والفقيه بالتصديق[3] .

---

(1) نفسه والصفحة .

(2) ابن بطوطة ، ص687 .

(3) نفسه ، ص687-688 .

الفصل الثالث

مدينة تمبكتو
مركز حضاري هام

مدينة تمبكتو

كانت مدينة تمبكتو ذات شهرة عظيمة ومكانة خاصة في نفوس أبناء أفريقيا وفي تاريخ السودان الغربي ، إذ كان تاريخها سجلاً حافلاً لا في تجارتها فحسب بل في علاقتها مع جيرانها .

وإن هذه المدينة ، بحق ، لتحتاج إلى دراسة وتنقيب ، لما تميزت به على مرّ العصور من إسهامات ثقافية وحضارية متميزة في المنطقة .

تأسيس مدينة تمبكتو

اختلف المؤرخون في تاريخ تأسيس مدينة تمبكتو ، إلا أن أغلب الآراء تؤكد أنها تأسست في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، وذلك على أيدي (طوارق مقشرن)[1] . وكانت لديهم رحلتان : الأولى في فصل الخريف حيث يرحلون إلى صحراء (أروان)[2] . والثانية في فصل الصيف .

---

(1) الطوارق المعروفون بمقشرن كانوا يقطنون بين تنبكت وأروان ، أحمد بابير ، ورقة 10 .

(2) قرية من قرى السودان الغربي تبعد عن تنبكت حوالى 450كم . لا توجد بها زراعة ولا ينبت بها العشب نظراً لانعدام الأمطار ، أما مبانيها فهي من الطين ـ «تاريخ أزواد» ، ورقة1 .



ويقال إن (الطوارق)[1] إبان رحلتهم كانوا يتركون أمتعتهم وحوائجهم لدى أمة لهم تدعى (تنبكت)[2] تقوم بحراستها وتجهيزها لهم ، ولذا سمي الموضع الذي تقيم فيه باسم تلك الأمة[3] .

لا نميل إلى الأخذ بهذه الرواية ونراها بعيدة لسببين :

1 ـ أن ظروف الحياة لا تسمح للأمة بالبقاء وحدها في تلك الصحراء .

2 ـ أن جانب الأمن مطلوب للحياة ، وهو غير متوافر في تلك المنطقة وفي تلك الفترة .

والسببان السابقان كفيلان بدحض تلك الرواية . ولكن ربما كان السبب الذي جعل اسم هذه المرأة علماً لتلك المنطقة هو احتمال أنها كانت لها مكانة مرموقة بين جماعتها التي كانت تقطن معها ، وبذلك أصبح إسمها علماً من أعلام تلك المنطقة .

موقعها

تقع مدينة تمبكتو على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بما يعرف بمنحنى نهر النيجر[4] . وتعتبر مدينة تمبكتو حلقة وصل بين السودان الغربي والصحراء الكبرى ، وهي قريبة من نهر النيجر حيث يبعد عنها في فصل الصيف ستة

---

(1) تكتب التوارك والطوارق . اعتمد الباحث على ما هو موجود في المخطوطات .

(2) ذكر الحسن الوزان إن مدينة تنبكت أسسها ملك يدعى منسا سليمان عام 610هـ/ 1213م على مسافة اثني عشر ميلاً من أحد فروع نهر النيجر . الحسن الوزان ، ح2 ص165 . ومنهم من يقول ان تنبكت أسسها البربر القادمون من الصحراء عام 480هـ ـ 1087م وقد ورد أن أسبانياً ذكر اسمها في خريطة 1373م . محمد عبد الفتاح ابراهيم ص50-104 . بعض الكتّاب يقول إن تأسيس تنبكت كان عام 494هـ ـ 1100م على أيدي طوارق البربر وان تنبكت حلت محل خيام غانا ، توماس أرنولد ، ص355 .

(3) أحمد بابير ، ورقة 9 - 10 .

(4) محمد الميري ، «الاسلام في مالي» ، مجلة تراث الشعب ، طرابلس ، اللجنة الادارية للاعلام الثوري ، يناير ، فبراير ، مارس 1983م ع9 ، ص118 . عبد العزيز كامل : «العروبة والحضارات الافريقية في منظور جديد» ، مجلة معهد البحوث والدراسات ، ع3 ص2 .



عشر ميلاً . أما في الخريف فإن ماء النهر يقترب منها فيصل إلى قرية (بكبر)[1] التي تبعد عن تمبكتو سبعة أميال . كما حددت مخطوطة «السعادة الأبدية» الموقع الجغرافي لمدينة تمبكتو ، مشيرة إلى أنها تبعد عن قرية (ولاتة) خمسة عشر يوماً ، وأن بعدها من كاوا أي (جاو) نحو اثنتي عشرة مرحلة عن جهة الشرق ، وعن قرية (بوجبيه)[2] نحو خمس مراحل[3] .

وكانت المناطق التي حول تمبكتو عامرة بسكان البادية أهل النزول والترحال ، الذين يرعون مواشيهم هناك . والمعروف أن سكان تمبكتو كانوا خليطاً من العرب الوافدين من غدامس وطرابلس والمغرب الأقصى والطوارق[4] .

هذا وقد حدث تزاوج بين السكان الأصليين لتمبكتو وهؤلاء القادمين عليهم ، حيث صاهر القادمون من الشمال الأفريقي أمراء وحكام مالي وكذلك عامة الشعب لدرجة أن انصهروا انصهاراً كاملاً في المجتمع ، الأمر الذي يؤكد روح التلاحم بين أهل تمبكتو الأصليين وجيرانهم من عرب الشمال الأفريقي .

أما عن بناء مساكنهم فقد كانت تلك الجماعات القاطنة بتمبكتو تسكن في مساكن بنيت في بداية أمرها من عيدان الأشجار وحشائش النباتات ، وهي توضع على شكل (زرائب) ثم تطورت وبنيت مساكنهم من الصيان[5] ، وبقيت فترة من الزمن إلى أن تطورت حياة الناس وأصبحوا يبنون مساكنهم من الطين ، إلا أن أسوارها كانت قصيرة لا تستر من بداخلها[6] .

---

(1) بكبر : هكذا أطلق عليها أحمد بلعراف ، ورقة 3.

(2) جاء ذكرها أنها تقع شمال مدينة تمبكتو حوالى خمس مراحل ، أحمد بلعراف التكني ، ورقة 10 .

(3) أحمد بابير ، ورقة 6 .

(4) أحمد بابير ، ورقة 6 .

(5) نوع من الأشجار ذات الجذوع الغليظة تكثر بتلك المنطقة .

(6) محمد محمود ، الترجمان ، ورقة 3 .



كما وصف الحسن الوزان مباني تمبكتو بقوله : «دور تنبكتو عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مخلوطة بالطين ومسقوفة بالتبن» .

ولا شك أن مدينة تمبكتو شرعت في بناء منازلها ذات الأسقف المنتظمة بعد أن حكمها الملك (منسا موسى) بفترة قليلة ، الأمر الذي يوضح لنا أن مدينتي (تمبكتو) (وجاو) [1] ومدن مالي بالكامل اتسعت كثيراً على يد (منسا موسى)[2] .

ووصفت مدينة تمبكتو بأنها مدينة ذات جمال رائع ، وكان أهلها يدينون بالإسلام ويحبون السنة ويحاربون البدع ، فلهذه المدينة فضائل عديدة ، فإن من دخلها خائفاً وجد الطمأنينة ، ومن سكن فيها عاماً أو أكثر نسي فعلته وتاب عند دخوله لها ، فهي دار فقه وعلم وصلاح ، حيث سكنها صفوة من العلماء والفضلاء ، حتى لا يوجد مكان من المدينة إلا وفيه ولي من أولياء الله[3] .

وقد قال عنها السعدي : «ما دنستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن ، مأوى العلماء والعابدين (ومالق)[4] الأولياء والزاهدين»[5] .

وأهل تلك المدينة امتازوا بالسماحة ، فلم يكن منهم من به فظاظة ، وكانوا كرماء[6] يحبون الغريب ويحترمونه ويقدمونه على أنفسهم ، ولا ينسون من عاشرهم من الناس[7] .

---

(1) مدينة من مدن السودان الغربي تقع في الشمال الشرقي من مدينة تنبكت كانت تمثل المدينة التجارية أكثر من العلمية ونظراً لتوجه أغلب التجار إليها اتخذتها دولة سنغي عام 1000-869هـ/ 1464-1591م عاصمة لها وفي أيام الاسقيين بلغت درجة كبيرة من الازدهار .
أما المؤسس الأول لهذه المدينة ، فيشير بعض المؤرخين إلى أن مؤسسيها مجموعة من أهالي طرابلس الغرب شدوا الرحال لتلك المنطقة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) لنشر الدين الاسلامي ، عبد القادر زبادية ، ص 108 ، وبازل دافدسن ص156 ، ونعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص67 .

(2) بازل دافدسن ، ص148 .

(3) أحمد بابير ، ورقة 8 .

(4) ملقى .

(5) السعدي ، ص21 .

(6) نفسه ، والصفحة .

(7) أحمد التكني ، ورقة 21 .



وهذا ليس بغريب ، فالإسلام حمل معه إلى تلك الجهات الصفات الحميدة التي كان لها تأثيرها بين الشعوب الأفريقية التي حملت بدورها المؤثرات الحميدة إلى أرجاء السودان الغربي . فلا عجب إذن إن صارت تمبكتو «مقامها من السودان مقام الوجه من الإنسان»[1] . لا شك أن هذه العبارة تنم بما كان لتمبكتو من قيمة جليلة لدى أهالي السودان الغربي .

الحياة الاقتصادية في مدينة تمبكتو

تقع مدينة تمبكتو على ملتقى طرق القوافل القادمة من الشمال الأفريقي . وهذا الموقع أعطاها مركزاً حيوياً واستراتيجياً ذا أهمية بالغة في المجالين الاقتصادي والحضاري .

لقد عرفت تمبكتو بتجارتها عبر العصور . وإن التجارة كانت تمثل بالدرجة الأولى المصدر الرئيسي في حياة السكان . وتأتي بعدها الثروة الحيوانية التي تمثلت في الإبل والأبقار والأغنام والخيل والحمير[2] ، وكانت حرفة أساسية في حياة السكان المجاورين للمدينة . فيتوافدون عليها يبيعون أغنامهم هناك ويشترون ما كانوا يحتاجون إليه من سلع ، مساهمين بذلك في حركة التجارة . واعتمد السكان كذلك على بعض الحرف مثل التجارة والحدادة والخرازة والدباغة وغيرها . وفي هذا المضمار فقد عرفوا بأنهم أهل مهارة وإتقان لتلك الحرف ، وخاصة الذهب والفضة[3] .

ومن الجدير بالذكر أن أهل تمبكتو لم يعنوا بالزراعة بالرغم من أن بلادهم لا تبعد كثيراً عن نهر النيجر[4] ، الأمر الذي حدا (بأحمد بلعراف)[5] أن ينتقدهم لعدم اهتمامهم بغرس الأشجار أو الزراعة .

---

(1) أحمد بابير ، ورقة 9 .

(2) أحمد التكني ، ورقة 20 .

(3) نفسه ، ورقة 13 .

(3) نفسه ورقة 14 .

(5) من قبيلة التكنا وأصله الأول من بلاد السوس بالمغرب الأقصى وقد رحل إلى شنقيط . ومنها انتقل إلى مدينة تنبكت وهو من العلماء المتواضعين بدليل عبارته التي قال فيها بأنه ليس بعالم ولكن يحب العلم وأهله . أحمد التكني ، ورقة 1 .

وبديهي أنه كان صائباً في نقده لهم ، بيد أن التجارة كانت تمثل الشريان الرئيسي للحياة الاقتصادية في مدينة تمبكتو . وقد أدت دوراً هاماً في ازدهارها اقتصادياً وحضارياً فتوافد عليها الناس من كل حدب وصوب ، وخاصة من الشمال الأفريقي عبر الصحراء الكبرى . وفي بادئ الأمر كان تجار الشمال الأفريقي يتوافدون على مدينة (ولاتة) التي كانت في تلك الفترة مركزاً تجارياً مرموقاً ، قبل ظهور تمبكتو ، حيث تقاطر عليها جل تجار صنهاجة (مسوفة ـ وجدالة لمتونة) كما توافد عليها تجار من فزان وغدامس وورجلة وطرابلس ، يحملون بضائعهم إلى تمبكتو ويقايضونها بالذهب والرقيق وناب الفيل وريش النعام وبخور السودان والصمغ[1] .

أما من المغرب الأقصى فكان تجار سجلماسة وفاس والسوس يحملون بضائعهم إلى مدينة تمبكتو ، في مقابل أن يعودوا محمَّلين بسلعها سالفة الذكر[2] .

كما توافد على مدينة تمبكتو تجار من توات التي يرجع تأسيسها إلى رجال من مالي ، وتعتبر نقطة تموين للقوافل القادمة من الشمال الأفريقي والخارجة منها . إضافة إلى ذلك فقد توافد عليها تجار من (درعة)[3] يحملون إليها بضائعهم ويعودون ببضائع تمبكتو[4] .

---

(1) أحمد بلعراف ، التكني ، ورقة 20 .

(2) نفسه ، ورقة 12 ، والسعدي ، ص21 .

(3) مدينة تقع جنوب المغرب الأقصى وشرقي اقليم السوس ، بها نهر طويل يدعى نهر وادي درعة ينبع من جبل درن ويسير حتى يصب في المحيط الأطلسي . وفي العصور الوسطى كانت مدينة درعة مركزاً تجارياً مرموقاً حيث تكثر بها الأسواق والمتاجر وكان لها تبادل تجاري وخاصة مع بلاد السودان كما كانت لها مكانة علمية مرموقة حيث نزلها العديد من العلماء الأفاضل الذين أدوا دوراً مهماً في تنوير الفكر في منطقة السودان الغربي كما كانت بها مكتبات ذات شهرة عالية .

أما عن تركيبة السكان فهي مزيج من العرب وصنهاجة ، البكري ، ص153 . أحمد مختار العبادي والكتاني محمد ابراهيم «المغرب العربي في العصر الوسيط» (الدار البيضاء : دار الكتاب 1964م) ص142 .

(4) أحمد التكني ، ورقة 8 .



كما وفد إلى مدينة تمبكتو تجار من مناطق السودان الغربي المجاورين لها من (جني)[1] (وجاو)[2] . إضافة إلى ذلك فإن الشيء الذي دعم تمبكتو لتصبح بهذه العظمة التي وصلت إليها ، هو ظهور الإسلام في غرب أفريقيا الذي أعطى لهذه المدينة دفعة جديدة . كما كان للتجارة عبر الصحراء دور هام وفعال في نمو مدينة تمبكتو ، حيث وصلت ذروتها في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) الذي عرف بالعصر الذهبي لتلك المدينة .

والجدير بالذكر أن اقتصاد تمبكتو وتجارتها لم يتأثرا بالمضاربات التجارية التي كانت تحدث في المناطق المجاورة لها ، وذلك خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين الموافقين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) .

وقد شكلت المدينة جزءاً من مملكة مالي الإسلامية منذ بداية عام 726هـ/ 1325م ، غير أنها احتفظت بحكم ذاتي استمر حتى عام 837هـ/ 1433م حبث بدأت فيه دولة مالي الإسلامية تتخلى عن سيادتها على هذه المدينة لمصلحة طوارق (مقشرن) المجاورين لها[3] . لقد استمرت قوة تمبكتو في تصاعد منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، وازدادت أهميتها بعد سقوط دولة غانا الوثنية وقيام مملكة مالي الإسلامية .

أما في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) الذي يسميه بعض الكتاب بالعصر الذهبي لمالي[4] ، فقد تحصلت مالي وخاصة مدينة تمبكتو على نصيب وافر من الرخاء الاقتصادي والعلمي . وشهدت المدينة حركة اقتصادية

---

(1) مدينة في مالي كان لها نشاط تجاري مع مدينة تمبكتو وهي ليست بعيدة عن العاصمة الحالية لجمهورية مالي باماكو . يوجد بها الآن ميناء صغير ترسو فيه السفن الصغيرة .

(2) حمد بلعراف ، ورقة 20 .

(3) Elias. N. Saad. "Social History of Timbuktu: The role of Muslim Scholars and Notables 1400-1900". London: Cambridge University Press. 1983 pp: 6,11,77 and 278.

(4) ابراهيم طرخان ، دولة مالي الاسلامية ص20 ، فيج جي دي ، «تاريخ غرب افريقيا» ، ترجمة وتقديم وتعليق السيد يوسف نصر ، راجع الترجمة إلى العربية بهجت رياض صليب (القاهرة دار المعارف 1982م) ص55 .

نشطة تمثلت في التجارة الواسعة مع الشمال الأفريقي والسودان الغربي والشرق العربي . فقد بلغ تعداد القوافل التجارية القادمة من مملكة مالي الإسلامية عام 751هـ/ 1350م إثني عشر ألف جمل ، وكانت البضائع المصدرة من البلاد العربية إلى مالي تشكل هي أيضاً مادة حيوية في الميزان الاقتصادي لمالي[1] .

وقد ذكر ابن خلدون العلاقات التجارية بينهم بقوله : «وهابتهم أمم السودان وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقيا»[2] .

وبالنسبة لطرق التجارة ، فكانت عديدة ونشطة ، أهمها :

1 ـ طريق من مصر تمر بكانم إلى تمبكتو وهي أبعد الطرق .

2 ـ طريق من تونس تمر بهجار إلى تمبكتو .

3 ـ طريق من المغرب الأقصى ماراً بسجلماسة وتوات إلى تمبكتو .

4 ـ طريق من تغازا ماراً بولاتة ومنها إلى تمبكتو[3] .

5 ـ طريق من طرابلس ومنها إلى غدامس ومن ثم إلى تمبكتو[4] .

وتعتبر تلك الطرق شرايين حيوية ، أسهمت في تدفق التجارة وازدهارها بين شمال الصحراء وجنوبها . وتمتعت هذه الطرق بمعطيات أهمها :

1 ـ أنها تمر بأماكن المياه[5] .

2 ـ أنها أقصر الطرق وأكثرها أمناً .

---

(1) نعيم قداح ، «افريقيا الغربية في ظل الاسلام» ، ص55 .

(2) ابن خلدون ، ج6 ، ص200 .

(3) أحمد شلبي ، ج6 ، ص197 .

(4) محمد الميري ، ص118 .

(5) تكثر آبار المياه في المناطق الصغيرة التي تمر بها الطرق سالفة الذكر في (صحارى أم عزين) و(روغ) و(اطار) . عبد العزيز بنعبد الله ، «الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة الصحراء» ، (الرباط : مطبعة فضالة 1976م) ملحق 1 ، ص142 .

لقد كان محور هذه التجارة سلعتين ، هما الذهب والملح .

أما معدن الملح فإنه يمثل قيمة عظيمة لدى سكان بلاد السودان الغربي والدليل على هذا ما أورده ابن حوقل حين قال : «وربما بلغ الحمل الملح في دواخل بلاد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار»[1] .

وقد رأى بعض الباحثين أن ازدهار تمبكتو الاقتصادي كان ما بين عامي 494-1009هـ/ 1100-1600م[2] . وكان الحسن الوزان قد أعجب بالنهضة الاقتصادية التي شملت مدينة تمبكتو ، حيث أكد على كثرة خيراتها وانتشار الحوانيت فيها ، وخاصة الحوانيت التي تبيع المنسوجات القطنية والأقمشة التي تأتي من أوروبا مصنعة يحملها التجار القادمون من الشمال الأفريقي إلى مدينة تمبكتو[3] .

وهذا دليل صريح على مدى ما وصلت إليه هذه المدينة من نهضة في جميع المجالات . وما وصول منسوجات أوروبا إلى هناك إلا دليل قوي على نشاط الحركة التجارية . وهذا ما أكده المؤرخ عبد الرحمن السعدي الذي كشف النقاب عن أن تمبكتو كانت ملتقى للتجار أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة من كل قبيلة ومن كل المناطق[4] .

وقد ساعدها على ذلك توافر النظام والأمن في ربوعها .

تغازا

تغازا . هنالك اختلاف في تسميتها فمنهم من يعرفها (بتغازا) ومنهم من يعرفها (تغزة)[5] . ولكن أغلب الكتابات تطلق عليها اسم تغازا .

(1) ابن حوقل ، ص98 .
(2) Elias N. Saad. p: 13.
(3) الحسن الوزان ، ح2 ، ص165-166 .
(4) السعدي ، ص21 ، Elias Saad. p:13 .
(5) خبر السوق ، ورقة 15 ، والقزويني ص25 ، والحسن الوزان ، ح2 ، ص108 .



موقعها متوسط بين المغرب الأقصى والسودان الغربي[1] . ومعظم سكانها من قبيلة مسوفة إحدى قبائل صنهاجة الصحراوية . وتعتبر تغازا المصدر الأول لمعدن الملح الغالي الثمن في السودان الغربي ، الذي يصل ثمنه أحياناً إلى وزنه ذهباً[2] .

وقد اشتهرت بالملح ونسجت حولها الأساطير ، حتى قيل إن حيطانها وأسوارها وأبوابها وسقوفها مبنية من صفائح الملح[3] . وأن جلود الحيوانات مثل الجمال قد استعملت في كساء بعض بيوتها[4] .

وقد أمدنا الحسن الوزان بمعلومات قيمة عن منجم ملح تغازا بقوله : «فكان مأهولاً فيه عدد من مناجم الملح تشبه مقالع الرخام ، يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح ، وليسوا من سكان البلدة»[5] .

وهذا يدل على أن الذين يقومون باستخراج معدن الملح من هذه المناجم ، ليسوا من سكان تغازا ، بل هم من الوافدين مع قوافل التجارة لاستخراج هذا المعدن والاتجار به . ومن هنا كان يحمل إلى مدينة تمبكتو التي ينقصها الملح[6] .

غير أننا نجد بعض المصادر تؤكد أن سكان البلاد هم من قاموا باستخراج الملح وبيعه إلى القوافل القادمة إليها ، حيث حملتها إلى الأماكن التي كانت تحتاج إلى ذلك المعدن[7] .

وبالرغم من الاختلاف في الرأي حول من كان يقوم باستخراج الملح وبيعه : أهُم من الوافدين؟ أم من الوطنيين المحليين؟ فإن ذلك يجب ألا يكون

---

(1) القزويني ، ص67 .

(2) عبد العزيز بنعبد الله ، ملحق 1 ، ص67 .

(3) نفسه والصفحة .

(4) القزويني ، ص25-26 وابن بطوطة ص1674 .

(5) الحسن الوزان ، ج2 ص108-109 .

(6) خبر السوق ، ورقة 10 .

(7) عبد الرحمن السعدي ص11 . عبد العزيز بنعبد الله ، ملحق 1 ، ص26 .

نقطة خلاف ، لا سيما أن تركيبة السكان قد توحدت نتيجة للمصاهرة التي تمت بين الوافدين من الشمال الأفريقي والوطنيين الأفارقة ، إلى درجة يصعب معها التمييز بين هذين العنصرين .

واعتمد أهل تغازا في قوتهم ومؤونتهم على ما حمله لهم التجار ، خاصة من مدينتي تمبكتو ودرعة اللتين تبعدان عنها بحوالى عشرين يوماً ، الأمر الذي كان يهدد سكان المدينة بالهلاك جوعاً ، إذا ما تأخر وصول القوافل التجارية[1] .

ومن المعروف أن تغازا لم تكن تعاني مشكلة مياه الشرب[2] ، إذ كانت بها آبار «عذبة المياه»[3] .

بيد أن مشكلتها المستعصية هي طبيعة مناخها الذي كان عادة ما يتأثر بالعواصف الشديدة التي تهبّ صيفاً من الشرق وتحمل كثيراً من الحصى الذي إذا صادف عين إنسان ، أفقده بصره[4] .

الحياة الثقافية في مدينة تمبكتو

اقترن تاريخ الحياة الثقافية في السودان الغربي بمدينة تمبكتو التي كانت ، بصدق ، قلب الحركة الفكرية النشطة في المنطقة ، والتي امتد إشعاعها العلمي إلى أرجاء واسعة حتى عمت (كانم) والسنغال والنيجر ، وذلك بفضل توافد التجار والعلماء عليها من عرب مغاربة وأندلسيين ومصريين وغدامسيين وطرابلسيين وغيرهم من سكان الشمال الأفريقي والأقطار الإسلامية المعاصرة[5] . وقد وجد العلماء وأهل الفكر تشجيعاً من أهل تمبكتو وملوكها

---

(1) الحسن الوزان ، ح2 ، ص109 ، ابن بطوطة ، ص674 .

(2) لا غرابة في ذلك والسبب واضح فقد نجد آباراً للمياه العذبة على شاطئ البحر .

(3) القزويني ، ص25 .

(4) الحسن الوزان ، ح2 ، ص109 .

(5) حسن أحمد محمود ، «دور العرب في نشر الحضارة في غرب افريقية» ، مجلة كلية الآداب : ص57 .



الذين أغدقوا عليهم بسخاء ، الأمر الذي أدى إلى بلورة حركة علمية وأدبية واسعة النطاق لم يعرف السودان الغربي لها مثيلاً[1] .

ولم تكن الصحراء الكبرى حاجزاً لتدفق مظاهر الحضارة من شمال القارة الأفريقية وجنوبها وغربها في يوم من الأيام[2] ، بل كانت المؤثرات الثقافية والفكرية تتسرب من الشمال الأفريقي إلى السودان الغربي والأوسط ، وكانت الحضارة التي شهدتها مدينة تمبكتو أصدق مثال لذلك ، فقد ازدهرت ثقافياً متأثرة بالتيارات الفكرية والحضارية الوافدة إليها من الشمال الأفريقي ، لا سيما ما بين القرنين السادس والتاسع الهجريين (الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين) .

وقد وصلت تمبكتو في هذه الفترة إلى قمة مجدها في تطورها العمراني والثقافي .

إن الفضل في تثبيت دعائم العقيدة الإسلامية في دولة مالي وفي السودان الغربي بأكمله راجع إلى جهاد المرابطين في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) الذين أعطوا الإسلام سنداً سياسياً بجهادهم الذي تمخض عن إسقاط مملكة غانا الوثنية عام 469هـ/ 1076م[3] .

وبالرغم من أن المسلمين كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة في دولة غانا الوثنية ، فإن تحركهم من أجل نشر الإسلام والعروبة كان محدوداً أو بطيئاً . لم تتح لهم حرية دينية أوفر ، إلا في عهد مملكة مالي الإسلامية التي بدأت منذ

---

(1) سليم زبال «أنقذوا تمبكتو» مجلة العربي ، (الكويت : وزارة الاعلام مارس 1979م) ع244 ص7 .

(2) ابراهيم حركات ، «دور الصحراء الافريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط» ، مجلة البحوث التاريخية (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، يناير 1981م) ع الأول ، س3 ، ص27 .

(3) أمين توفيق الطيبي ، «دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس» ، ص265 .
أمين توفيق الطيبي ، «دور المرابطين في نشر الاسلام في السودان الغربي» ، مجلة الفصول الأربعة ، رابطة الأدباء والكتاب (طرابلس ، ديسمبر 1984م) ، س4 ، ع27 ، ص100 .

فجر قيامها بالعمل على دعم الاسلام ونشره . إضافة إلى ذلك الطريقة القادرية التي دخلت السودان الغربي في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، بواسطة مهاجرين من مدينة توات اتخذوا من مدينة ولاتة قاعدة لطريقتهم ، ومن ثم انتقلوا بها إلى تمبكتو[1] .

وقد ساعد على انتشار الاسلام بين القبائل الوثنية في مالي ، وخاصة بعد اعتناقها الإسلام ، جماعات وفدت من (مدار)[2] وطرابلس والقاهرة وفاس والقيروان[3] .

ونتيجة للازدهار العلمي الذي ساد مدينة تمبكتو ، أصبحت قبلة للعلماء والفقهاء ومفخرة لأهلها الذين ينتسبون إليها . وقد احتفظت تمبكتو بمركزها الثقافي الهام طيلة فترة دولة مالي وسنغي[4] .

وقد برز فيها طائفة من العلماء الأجلاء أمثال القاضي محمود كعت ، صاحب تاريخ الفتاش الذي يفتخر بأنه من مواليد مدينة تمبكتو فيقول : «التمبكتي مسكناً الوعكري أصلاً»[5] .

كما أنها زهت بدار السلطان منسا موسى التي صممها المهندس أبو اسحاق الساحلي[6] المعروف بالطويجين والموحدي الغدامسي

---

(1) حسن ابراهيم حسن ، ص43 . عبد القادر صالح نور الدين «علاقة فزان بكانم» بين 7/3هـ -13 9م ، رسالة لنيل الماجستير ، جامعة الفاتح - ليبيا 1986م ، ص130 .

(2) قرية من قرى موريتانيا .

(3) عبد العزيز بنعبد الله ، ملحق 1 ، ص163-164 .

(4) عبد القادر زبادية ، ص103 .

(5) محمود كعت ، ص9 .

(6) يعرف بطويجين ، مهندس معماري وأديب من بلاد غرناطة خرج من أرضه في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، يجول في بلاد الشرق وهو في طريقه إلى الأراضي المقدسة لتأدية فريضة الحج . كان لقاؤه بالسلطان منسا موسى سلطان مالي فدعاه منسا موسى إلى بلاده وقبل الدعوة ورجع مع سلطان مالي وشارك في النهضة المعمارية بمالي وذاع صيته في أرجاء السودان الغربي لما أدخله من إبداعات معمارية . توفي بتمبكتو ودفن بها ، الناصري ، ح3 ، ص152 . أمين توفيق الطيبي «مهندس أندلسي في مالي» ، مجلة تراث الشعب ، اللجنة الادارية للاعلام الثوري (طرابلس - ربيع الآخر جمادى الأولى 1393 ور) س4 ، ع13 ، ص312 .

اللـذان أبدعـا في بنائـهـا[1] وعـمـلا على نقل الطراز المغـربي إلى السـودان الغربي .

أما البحث عن أصل سكان مدينة تمبكتو ، فيقودنا في النهاية إلى أنهم كانوا ينتمـون إلى أصول عربية تجري في عروقهم الدماء الزنجية . ويشير بعض المصادر إلى أن أغلب سكان هذه المدينة من البيضان الذين هم مزيج من عرب المشرق وعرب المغرب و(الطوارق)[2] .

ولقد ارتبطت عادات أهالي تمبكتـو ، من حيث الفن المعماري والتقاليد الأخرى ، بالشـمال الأفريقي ، فكانت بيوتهم على الطراز المعـماري الأندلسي . إضافة إلى ذلك فقد تشبه حكامهم وأمراؤهم وحتى عامة الشعب بالعرب في زيهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فكانت الأكلة الشعبية عندهم الكسكسي المشهورة في الشمال الأفريقي[3] .

وقد ذكـر لنا السعدي أن عمارة تمبكتـو أتتها من المغـرب بطابعها العام ، سواء من ناحية بناء المساجد أو المحلات التجارية أو المباني السكنية أو غيرها[4] .

وقد ذكر أحمد بابير الأرواني أن الجامع الكبير المعروف (بجنكري بير)[5] ومعناه عندهم المسجد الكبير ، بني على الطراز المغربي ، وكان صغيراً في بدايته ثم تطور وكان ذا موقع ممتاز يتوسط المدينة وهو كما يذكر أول مسجد بني في المدينة وقام على بنائه الحاج (كنكه موسى) أي منسا موسى حاكم مملكة مالي الإسلامية في أوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بعد رجوعه من الأراضي المقدسة .

---

(1) عبد القادر زبادية ، ص104 . عبد الفتاح ابراهيم ، ص54 .

(2) أحمد بابير ، ورقة 10-14 .

(3) نفسه والورقة .

(4) عبد الرحمن السعدي ، ص21 .

(5) فهـمي هويدي «مـالي ، عنوان المجد والفقر» مجلة العربي (الكويت : وزارة الاعلام ، يوليـة 1982م) ع284 ، ص123 .

وقد توسَّع المسجد على يد العاقب القاضي محمود لاستيعاب المصلين الذين كثر عددهم وكان ذلك أواخر القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)[1] .

هذا وتشير بعض الآراء إلى أن مسجد سيدي يحيى هو أول مسجد بني في تمبكتو . وقد بناه ملك مقشرن وذلك قبل عهد السلطان منسا موسى . وقد امتدت يد التخريب إلى هذا المسجد ، فاندثر ولم يبق منه سوى موضعه الذي بني فيه ، ولم يتم تجديده إلا في عهد (محمد نضي) الذي اغتصب الحكم في تمبكتو ، وأسند إمامة هذا المسجد إلى شيخ يدعى (سيدي يحيى) سنة 868هـ/ 1462م . ثم جدد بناء مسجد سيدي يحيى للمرة الثالثة في سنة 976هـ/ 1568م[2] .

جامعة سنكري

يذكر السعدي أن الذي قام ببناء جامعة سنكري سيدة غلالية فاضلة ، كانت ذات ثروة وحسب ونسب[3] . على أننا لم نعثر على تاريخ يحدد بناءها . إلا أن كعت ذكر أن بناءها كان في عهد القاضي العاقب ابن القاضي محمود ، وهو من أبناء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) الذي أدخل عليها تحسينات بأن ألحقها بالمساجد المجاورة لها[4] . ومن ثم يبدو أن جامعة سنكري كانت قبل هذا القرن ، ولربما كان بناؤها في القرن السادس أو السابع الهجريين (الثاني عشر أو الثالث عشر الميلاديين) .

وقد ذاع صيت هذه الجامعة بما بلغته من مستوى علمي رفيع ، وجعلت من مدينة تمبكتو عاصمة من عواصم الدين والعلم والأدب في بلاد السودان .

---

(1) أحمد بابير الأرواني ، ورقة 18 .

(2) عبد الرحمن السعدي ص62 . محمد حجى ، «الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين» (المغرب : مطبعة فضالة أبريل 1977م) ح2 ، ص635 .

(3) عبد الرحمن السعدي ، ص62 .

(4) نفسه ص57 ، محمود كعت ، ص13 .



وكل ذلك راجع إلى العرب الذين نقلوا الإسلام إلى تلك المناطق منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، فانتشرت على نطاق واسع اللغة العربية والثقافة الإسلامية .

وقد انفتحت هذه الجامعة على العديد من مراكز العلم في الأندلس والشمال الأفريقي ، في فاس ومراكش وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها من مراكز الحضارة[1] ، حيث كان التشابه واضحاً بينها وبين جامعة القرويين بفاس ، في التدريس وأساليبه وفي المناهج التي كانت تدرس في فاس وتمبتكو . كما توافد طلاب منها إلى مدينة فاس من أجل التزود بالعلم . وما رحيل القاضي (كاتب موسى) إلى مدينة فاس لتعلم العلم في عهد مملكة مالي الإسلامية بأمر من السلطان العادل موسى[2] ، إلا دليل واضح على الامتزاج الحضاري بين جامعة سنكري ونظيراتها بالشمال الأفريقي . وقد اشتغل بهذه الجامعة رجال جمعوا بين العبادة والتدريس ، نذكر منهم على سبيل المثال : الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت ، كما تولى من بعده الإمام أندغمحمد ابن الفقيه المختار النحوي[3] ، كما تولى بعد ذلك الفقيه أحمد بن صالح بن عمر وكان عالماً بالأدب واللغة ، وتولى بعد ذلك بلقاسم التواتي[4] .

إضافة إلى ذلك فقد كانت جامعة سنكري التي ذاع صيتها تقوم بنفس المهمة التي تقوم بها معاهد ومدارس القاهرة الدينية ، من حيث أساليب التدريس وغيرها[5] .

---

(1) محمد عبد الرحمن سوالمية ، «تمبكتو جوهرة تغمرها الرمال» (بيروت : مطبعة المتوسط 1986م) ص44 .

(2) عبد الرحمن السعدي ص57 .

(3) نفسه ، ص63 .

(4) محمد عبد الرحمن سوالمية ، ص45 .

(5) رولاند أوليفر وجون فيج ، «موجز تاريخ أفريقيا» ، ترجمة دولت وأحمد صادق ، مراجعة محمد السيد غلاب ، (مطابع كوستالوس وشركاه 1965م) ص102 .

ولعل ما يميز جامعة سنكري أنها شابهت قريناتها من مراكز الحضارة في الشمال الأفريقي والشرق العربي ، في مواكبتها للعلم وانتقال العلماء ، الأمر الذي جعلها تواصل مسيرتها العلمية الرائدة ، وأن استمراريتها ، كانت على يد السلطان (منسا موسى) الذي انصبّ جل اهتمامه عليها وجلب لها صفوة العلماء والفقهاء من الأماكن المختلفة للتدريس بها . إضافة إلى ذلك فقد أوفد العديد من الطلاب للدراسة في جامعة القرويين بالمغرب الأقصى وإلى طرابلس وغدامس والجامع الأزهر وغيرها من المعاهد التي كانت تشع بالعلم في تلك الفترة[1] .

كما أنه أحضر لها نوادر الكتب من مصر والحجاز ومن الأقطار التي مرّ بها ، ومن ثم أنفق جزءاً من أموال مملكته على شراء الكتب . وهذا يعتبر بحق مفخرة لهذه الجامعة . إضافة إلى ذلك تمتع رجال العلم دون غيرهم من الطبقات باحترام خاص حيث إن السلاطين كانت لديهم مراسيم تنص على أن رجال العلم وأولادهم ومالهم في أمان تام وحماية كاملة ، تكريماً وإجلالاً للعلم[2] .

ولذا اهتمّ علماء تمبكتو بتدريس الكتب التي كانت تدرّس في المعاهد العلمية في الشمال الأفريقي والشرق العربي ، منها «الموطأ» للإمام مالك و«المدوّنة» و«المختصر» و«الأصول والبيان» و«المنطق» و«أصول السبكي» و«تلخيص المفتاح» و«مختصر خليل» «وألفية العراقي» و«صغرى السنوسي» و«شرح الجزيرة» و«حكم ابن عطاء الله» مع شرح «زروق» و«نظم أبي مقرعة الهاشمية في التنجيم» و«مقدمة التاجوري» و«رجز المغيلي في المنطقة»[3] ، و«الخزرجية في العروض» و«شرح الشريف السبتي» و«تحفة الحكام لإبن

(1) جيريل دكوري ، «مدينة تمبكتو» ، بحث مقدم إلى مركز أحمد بابا في إطار الموسم الثقافي 1983م ، ورقة 3 لم ينشر .

(2) حسن أحمد محمود ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ص89 .

(3) محمد عبد الكريم المغيلي ، مخطوطة ، «منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب» ، مكتبة الباحث .



عـاصـم» مع «شرح الشريف والمدونة» بشـرح أبي الحسن البرذيلي[1] . وكذلك «كـتـاب الشـفـا» للقـاضي عـيـاض و«نسيم الرياض»[2] و«صـحـيح البـخاري» و«صحيح مسلم» و«جامع المعيار» للونشريسي[3] .

وبالإضافة إلى هذه الكتب التي كـانت تدرس في هذه الأماكن ، وكانت هناك مـؤلفـات ليـبـيـة حظيت بعناية وإعـجـاب حـتى الآن وتدرس في مـدينة تمبكتو[4] .

وهذا ليس بغـريب ، فـقـد كـان هنـاك علمـاء أجـلاء من ليـبـيـا أمـثـال (المسراتي) و(الغدامسي) وغيرهما[5] .

هذه الكتب كـانت تدرس في مـساجـد تمبكتـو وجـامـعـة سنكري بطريقة علمـيـة منظمـة ، مـضـافـاً إليـهـا منهج عـلمي مـدروس . إلا أن الدراسـة بهـا لا تخضع لمنهج زمني مـدروس ، فـقـد تستـمـر مدة طويلة ، وقـد تستـمـر فـتـرة قـصيـرة ، حـسب قـدرة المتـعلم عـلى تلقي العلم[6] . وبعـد أن يستكمل الطالب الدراسة يُعطى إجازة في المواد التي أتقنها خلال مدة دراسته .

وفـيـمـا يلي نموذج من الإجـازات التي كـانت تمنح لـلطلاب في مـدينة تمبكتو : «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد والرضى عن صحـبـه وسلم تسليـمـاً الحـمـد لله حـمـداً يوافي نعـمـه ويكافئ مـزيده والصـلاة والسلام على خير خلق الله محمد وعلى آله وصحبه وبعد ، فيقول محمد بن أحمد بن الشيخ قد أخبرني الأخ محمد أحـمد بجميع صحيح البخاري وإجازة

---

(1) عبد الرحمن السعدي ، ص45-46 .

(2) لقد عثـر البـاحـث في مدينة تمبكتـو في صيف 1985م على مـخطوط بعنوان الشـفـاء لـلقـاضي عـيـاض وفي حـواشي المخطوط كـتـاب يدعى بنسيـم الرياض لنفس المؤلف غـيـر أن عـوامل الجـو جعلتها غير واضحة بالدرجة المطلوبة ولكن رغم هذا فإن قيمته العلمية بالغة الأهمية ويكفي أنه يكشف لنا عن أنه كان يدرّس من ضمن المناهج في السودان الغربي .

(3) عبد الرحمن السعدي ، ص45-46 .

(4) انظر الفصل الخامس ، ص152 .

(5) السعدي ، ص58 .

(6) حسن أحمد محمود ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ، ص86 .

أوله إلى كتاب الإيمان ومن كتاب التفسير إلى آخر الصحيح . قال كما أخبرني محمد بن محمد بقيع بن محمود كورد بجميع صحيح البخاري إجازة وقراءة مني عليه من أوله إلى آخر جزء الوحي وأول كتاب الإيمان ومن هنالك إلى آخر الكتاب إجازة مقرونة بالمناولة قائلاً أخبرنا به سيد والدي الفقيه الامام محمد بقيع بجميعه قراءة مني عليه وسماعاً منه بلفظ غير مرة»[1] .

وهذه الإجازة سالفة الذكر تمدنا بالعديد من المعلومات في تاريخ الحركة الفكرية في دولة مالي الإسلامية . ومن بين المعطيات التي كشفت عنها الإجازة :

1 ـ إعطاء فكرة عن الديباجة التي كانت تكتب بها الإجازة في تلك الفترة .

2 ـ إمدادنا بأسماء الكتب التي كانت تدرس في تلك البلاد .

3 ـ أسماء العلماء الذين كانوا يدرسون والتعريف بهم ومكانتهم العلمية وما كانوا يتحلون به من أخلاق حميدة ورفعة علمية .

4 ـ توضيح المعايير العلمية التي كان يتم بموجبها منح الطالب الإجازة العلمية التي تؤهل المعني لتدريس المادة التي منح فيها الإجازة .

5 ـ إبراز أنواع العلوم الأساسية التي كانت تدرَّس في تلك الفترة وكذلك المساعدة لها .

ومن هنا أصبحت مدينة تمبكتو مركزاً لإشعاع فكري عمّ بلاد السودان الغربي ، فقد حملت لها الكتب من بعض بقاع العالم الاسلامي ، حيث تم نسخها وبيعها في أسواقها ، فكانت تجارة رابحة ، حيث أقبل عليها الأمراء والطلاب وأهل العلم الذين كانوا يعملون على تأسيس المكتبات الخاصة بهم . وقد تصل مكتبة العالم الواحد إلى ألفي كتاب . وقد اهتم السلاطين كثيراً بالمكتبات الخاصة[2] .

(1) محمد بن أحمد بن الشيخ ، مخطوطة (إجازة) رقم 164 مالي : باماكو ، مركز أحمد بابا التنبكتي ، ورقة 1 . يعود تاريخها إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) باتفاق الباحث أحمد سالم الشود وجيريل دكوري وعمر سيسه .

(2) حسن أحمد محمود ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ، ص86 .



هذا يدلّ على مركـز هذه المدينة وعلى ما وصلت إليه مـن رفعـة من العلم حتى أن مكتبـة الرجل الواحـد من أهل العلم قد يصل عـدد كتبهـا إلى الألفين ، مما يدل على تنوُّع العلم الذي كانوا يدرسونه حينذاك ، كما يدل أيضاً على قيـمة هذه المدينة حضارياً . ولا يفوتنا في هذا الحديث أن نبرز دور صفوة من العلماء أدوا دوراً بارزاً في تنوير الفكر الإنساني بمدينة تمبكتو ، منهم أساتذة في المدارس والمساجد التي كـانت تعج بها مدينة تمبكتو ، ومنهم رسل المعرفة بشتى فروعها في مناطق السودان الغربي .

ونخص بالذكر في هذا المجال علماء أفذاذاً ، من بينهم العالـم أحمد بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى التكروري التنبكتي ، وقد عرف بالحاج أحمـد وهو جد العلامة أحمد بابا ، وكـان رجلاً فـاضـلاً عـالماً ورعـاً وهو من الفـقهـاء العظام[1] . إضـافة إلى ذلك فإنه كـان يتصف بأنه نحوي لغوي عـالم بعلم العروض أديب ، ومن مزاياه أنه كان ينسخ كتبه بنفسه ، فقد نسخ العديد من الدواوين ، وألّف في العديد من العلوم ، وتتلمذ صاحبنا على عدة أساتذة يرجع لهم الفضل في الوصـول به إلى مرتبة العلماء ، وكـان أول أسـاتذته هو جده لأمه الذي كـان يشتغل بالقضاء في مدينـة تمبكتو ، ثم درس على علمـاء ولاتة التي لا تبعد كثيراً عن تمبكتو ، ثم أخذ النحو عن خاله مختار النحوي ، وبعد ذلك اتجه صوب الشرق إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج في بداية عام تسعين وثمانمائة 890هـ . وقد لقي خلال رحلته علماء أجلاء ، منهم الإمام السيوطي وخالد الأزهري . وعندما تولى منسا علي مقاليد الأمور في البلاد ، اقتصر دوره على التدريس فقط ، وتتلمذ عليه أخوه الفقيه محمـد بن عمر الذي درس عليه المدونة وغيرها ، وقد طلب منه أن يكون إماماً فرفض ذلك . وتوفي ليلة الجمعة من ربيع الثاني عام اثنين وأربعين وتسعمائة 942هـ .

---

(1) أحمد بابا التنبكتي ، «الكشف والبيان» ، ورقة 7 .
أحمد بابا التنبكتي ، «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» (بيروت : مطبعة دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ) ص89 . محمد بلو بن عثمان بن فودي ، ص213 .

ومن العلماء عبد العزيز التكروري من أبناء أواسط القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . رحل إلى الشرق وحلّ ضيفاً على مصر وقام بالتدريس هناك ، حيث شرح لهم كل مسائل المختصر لأصولها . وقد نقل عنه الخطاب وذكره السيوطي في معجمه باسم عبد العزيز التكروري[1] .

ومن العلماء الآخرين العالم الفقيه الحاج التنبكتي ، جد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر ، الذي جاء في رفقة أخيه السيد الفقيه إبراهيم ببر ، شغل قضاء تمبكتو في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، وكان رجلاً صالحاً عالماً . أمر الناس بدراسة نصف حزب من القرآن الكريم بعد صلاة العصر والعشاء بجامع سنكري . توفي وقبره معروف عند أهل تمبكتو[2] .

ومن العلماء كذلك العالم الفقيه محمد الكابري الذي استوطن تمبكتو في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، وقد عاصر العديد من العلماء أمثال الفقيه (اندغمحمد الكبير) وهو جد القاضي محمد بن عمر لأمه ، ثم العالم عمر بن محمد أقيت ، وكذلك سيدي يحيى . ولم نعثر على تاريخ لوفاته[3] .

أيضاً من العلماء الأجلاء الذين لا يستطيع المرء أن يتجاوزهم في هذا الموضوع ، العالم والقطب الرباني الإمام (سيدي يحيى التادولسي) وهو من رجال أهل العلم والصلاح . أدى دوراً بارزاً في نشر الإسلام والثقافة العربية في تلك البقاع من السودان الغربي . وكان هناك مسجد يعرف بإسمه . وقد كان الفقيه سيدي يحيى معاصراً لمحمد نضي وكان الأخير من العلماء الفضلاء وصديقاً حميماً ليحيى التادولسي[4] .

---

(1) محمد بلو بن عثمان ، ص209 .

(2) البرتلي ، ص89 .

(3) نفسه ، ص107 .

(4) عبد الرحمن السعدي ، ص23 .

وبما أننا بصدد الحديث عن الحياة الثقافية في تمبكتو يجدر بنا أن نتحدث عن مدينة السوق التي كانت مركز إشعاع حضاري في السودان الغربي . فمدينة السوق تقع إلى الشمال الشرقي من تمبكتو[1] ، وهي تبعد عنها حوالى 400 كم ، وكانت ذات شهرة عالية ومكانة جليلة في نفوس أهالي السودان الغربي . وقد وصل إليها العرب في عهد معاوية بن أبي سفيان الذي أوكل أمرها عام 61هـ/ 680م إلى عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه[2] ، والذي تم على يده فتح تونس وبناء القيروان ، وفتح غدامس وودان وكوار ثم ولاتة ومزاتة وبعدهما السوق[3] .

وقد كانت مدينة السوق قبل فتح المسلمين لها في أيدي الوثنيين بزعامة كسيلة[4] ، ويدل هذا على قِدَم هذه المدينة .

ساعد موقع مدينة السوق الاستراتيجي على ازدهار الحركة التجارية بها ، وقد كانت تعج بأعداد هائلة من السكان[5] .

ويبدو أنها كانت على صلة تجارية وثيقة بالشمال الأفريقي والأقطار الأفريقية المجاورة .

وعندما جاء عقبة بن نافع الفهري أصلح أمرها ، بأن بنى بها العديد من المساجد التي حفلت بالمؤذنين والأئمة الذين قاموا بنشر العقيدة الإسلامية ورفعوا رايتها عالية خفاقة . وقد مكث بمدينة السوق أعداد من الصحابة الذين رافقوا عقبة ، ليعلموا الناس أمور دينهم ويمحوا الشرك الذي كان موجوداً بها .

والصحابة هؤلاء هم أجداد أهل السوق ، وهذا يدل بوضوح على أن سكان السوق تجري في عروقهم الدماء العربية . وتوضح لنا مخطوطة «خبر

---

(1) نعيم قداح ، ص44 .

(2) خبر السوق ، ورقة 2 .

(3) محمد محمود ، ورقة 3 .

(4) خبر السوق ، ورقة 2 .

(5) محمد محمود ، ورقة 3 .

السوق» عدداً من الصحابة توفوا بها ، وأن قبورهم موجودة بها وعلى كل قبر اسم صاحبه والغزوات التي خاضها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأوردت أن أبا محذور ، مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو أحد الذين دفنوا في مدينة السوق[1] .

إضافة إلى ذلك كانت مدينة السوق تعج بالعديد من العلماء وأولياء الله الصالحين . نذكر منهم على سبيل المثال (أبا عمرو الداني)[2] وهو عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر الأموي المعروف بإبن الصيرفي وسمي بعد ذلك بالداني ، ولد بمدينة قرطبة في سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة للهجرة (371 هـ) ، وبعد ذلك انتقل إلى دانية ، ومن هنا نسب إليها ، كما أنه يكنى «أبا عمرو» . بدأ بطلب العلم وهو ابن أربع عشرة سنة ، واشتهر بالورع واتبع مذهب الإمام مالك ، درّس عليه العديد من رجال الأندلس وغيرهم . وكان يقال أبو عمرو الداني قارئ الأندلس وأبو الوليد الباجي فقيهها وابن البر محدثها .

وصلت مؤلفات أبي عمرو الداني إلى مائة وعشرين تأليفاً ؛ منها في رسم القرآن ، أصغرها حجماً كتاب «المقنع» . وذكر آخرون أن له مائة ونيفاً وثلاثين تأليفاً في عدة علوم ، منها القراءات ، من قراءة ورسم وضبط وتفسير ، وغير ذلك من التآليف . وقد قيل عنه إن له حظاً حسناً وذكاء خارقاً . كما قيل عن غزارة علمه إنه لم يكن في عصره أحد يضاهيه في حفظه وتحقيقه . وقد قال الداني : «لم أقرأ شيئاً إلا كتبته ولا كتبته إلا حفظته» .

توفي يوم الاثنين في النصف من شوال سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، عن عمر يناهز الثلاث والسبعين سنة[3] .

---

(1) خبر السوق ، ورقة 4 . محمد محمود ، ورقة 3 .

(1) خبر السوق ، ورقة 7 .

(3) شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري ، «غاية النهاية في طبقات القراء» ، بعناية ج . رجستر اسر ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، 1351هـ/ 1933م) ترجمة رقم 2091 ، ص503 .



كما كان من العلماء في تلك المنطقة «أحمد بن أد» . وأهل السوق لهم مكانة مرموقة لدى أهالي أفريقيا باعتبارهم من نسل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد خربت مدينة السوق في عهد أسكيا الحاج محمد (1493-1528م) أي قبل جودر ، ومن ثم انتشر أهلها . فبعد أن كانوا أهل استقرار في مدينتهم السوق ، أصبحوا رحلاً تنقلوا حتى طاب بهم المقام في مدينة «أزواد» ، في عهد جودر باشا وقد أعجب بهم سكان أزواد لعلمهم وتقواهم ، فأغدقوا عليهم الأموال[1] .

---

(1) خبر السوق ، ص7-8 .

الفصل الرابع

العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية
بين المغرب الأقصى ومملكة مالي الإسلامية

تأسيس مدينة فاس

بعد محاولات من الأمير (إدريس الثاني 177-213هـ/ 793-828م) لإيجاد موضع ملائم لمدينته ، أسند أمر اختيار الموقع إلى وزيره عمير بن مصعب الأزدي الذي قام بجهود مثمرة في الحصول على المكان ، وذلك بعد أن اختبر ماءه وتربته وبُعده عن الصحراء والجبال والمستنقعات العفنة .

فقد أشار على الأمير إدريس الثاني بهذا الموضع الذي كان تحت سيطرة قبيلتي زناتة (بزواغة) وبني بزعة[1] . فما كان من الأمير إلا أن اشترى من القبيلتين هذا المكان ، ودفع لهما (ستة آلاف درهم) وذلك عام 191هـ/ 806م[2] .

وقد اختلفت الآراء في سنة تأسيس مدينة فاس ، فالحسن الوزان يرى أن فاس قد أسست عام 185هـ/ 812م[3] . واتفق معه الحسن السائح[4] على سنة التأسيس . والفرق بين ما ذكره الجزنائي وآخرون من ناحية ، وما ذكره الوزان

---

(1) كان نصيب بني بزعة 2500 ونصيب زواغة 3500 درهم . سعد زغلول ، ص 432 .

(2) علي الجزنائي ، «جنى زهرة في بناء مدينة فاس» (الرباط : المطبعة الملكية 1967م) ص19 .

(3) الحسن الوزان ، ح2 ، ص218 .

(4) «الحسن السائح على هامش تاريخ القرويين» (الدار البيضاء : مطبعة النجاح الجديدة 1979م) ص40 .

والسائح من ناحية ثانية ، يبلغ تسع سنوات ، وهذه فترة زمنية لا تمثل اختلافاً كبيراً بالقياس إلى عمر مدينة فاس الطويل . ومع هذا فإننا نميل إلى ما ذهب إليه الجزنائي نظراً لأنه من أهل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وهو أقرب إلى الفترة الزمنية التي بنيت فيها مدينة فاس ، من الحسن الوزان الذي عاش في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) . ولكن رغم هذا فإنني لا أستبعد رأي الحسن الوزان ، ويمكن التوفيق بين الروايتين باعتبار أن اختيار موقع المدينة والإرهاصات الأولى في بنائها كان عام 185هـ/ 801م ، أما البناء الفعلي فكان بعد هذا التاريخ .

ومدينة فاس بنيت على مرحلتين : فمرحلتها الأولى تعرف بعدوة الأندلس وقد بنيت في 193هـ/ يناير 808م . وفي عهد الأمر إدريس كان بها ستة أبواب وهي : باب القبلة ، وأبواب : القوارة والمحفية واسيبوبة وأبي سفيان والكنسية ، كما كان بها جامع الأشياخ[1] .

وجاء البدء ببناء المرحلة الثانية من المدينة 194هـ/ يناير 809م وهي مرحلة بناء عدوة القرويين التي أحيطت بسور له ستة أبواب وهي : باب افريقيا ، وأبواب : القوس والفصيل والفرج والحديد والقلصة ، كما تم تشييد جامع الشرفاء ودار القيطون بهذه العدوة فضلاً عن بناء القيسارية والأسواق . وقد حث الأمير إدريس الأهالي على بناء مساكنهم وزراعة الأشجار وكان أهل عدوة القرويين أكثر رفاهية في البناء والملبس والصناعة من غيرهم ، كما وفدت إليها هجرات عربية من العراق والقيروان ونزلت بناحية علون[2] .

هذا عن بناء مدينة فاس ، أما عن تسميتها فقد تضاربت الروايات . فهناك رواية مفادها أن شيخاً نصرانياً قد وفد على الأمير إدريس وأخبره أنه عثر

---

(1) علي بن أبي زرع ص37 . علي الجزنائي ص13 . عبد الهادي التازي «جامع القرويين» (بيروت : دار الكتاب اللبناني 1972م) ح1 ، ص45 .

(2) علي الجزنائي ، ص25 . أحمد بن القاضي المكناسي ، «جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس» (الرباط : مطبعة دار المنصور للطباعة 1983م) القسم الأول أ ـ ص ، ص37 . سعد زغلول ص435 .

على كتاب يبين أن المكان الذي شرع فيه الأمير في بناء مدينته كان متوقعاً لمدينة قديمة تعرف باسم (بساق) خربت قبل ألف سنة ، وأن الذي ستؤول إليه مهمة بنائها هو رجل من آل بيت النبوة يدعى إدريس وتكون له حظوة رفيعة وسيبقى دين الإسلام بهذه المدينة إلى قيام الساعة[1] .

ويقال إن الأمير إدريس استبشر خيراً بما سمعه من الشيخ النصراني ، وتضرع إلى اللـه أن يجعلهـا دار فقـه[2] .

ومن الروايات الأخرى المتعلقة بتسمية فاس تلك الرواية التي تشير إلى أن الأمير إدريس عندما أراد بناء المدينة أمر بإحضار فأس من ذهب واختط به المدينة[3]

أما الرواية الثالثة فتعزو تسمية مدينة الأمير بفاس إلى العثور على فأس مدفون بها عند بنائها[4] .

لعل أرجح الآراء المتباينة حول تسمية مدينة فاس ، هو الرأي الأول الذي يميل إلى اشتقاق اسم فاس من مدينة بساق القديمة ، وذلك لعدة أمور نرى أنها أقرب إلى الحقيقة من غيرها وهي : ، ربما كانت بساق على درجة كبيرة من الحضارة ، الأمر الذي جعل إدريس يسميها بذلك حتى تكون حاضرته مثل المدينة القديمة بساق ، وقد يكون أخذ برأي النصراني في هذه التسمية ، خاصة أنه في بداية البناء يستبشر بكل كلمة طيبة تقال في المكان الذي ستبنى فيه حاضرته ، وربما يكون قد تطور اسم مدينته من كلمة بساق إلى أن اهتدى إلى هذا الاسم وهو (فاس) .

---

(1) علي بن أبي زرع ، ص37 . علي الجزنائي ص13 . عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ح1 ، ص45 .

(2) علي بن أبي زرع ، ص37 . علي الجزنائي ص13 . عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ح1 ، ص45 .

(3) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ح1 ، ص45 ، ابراهيم حركات ، ح1 ، ص126 .

(4) أبو الفداء ، ص123 . الحسن السائح «على هامش تاريخ القرويين» ، ص37 .

بعد أن تحدثنا عن تأسيس مدينة فاس يجدر بنا أن نتناول مركزاً مهماً لعب دوراً بارزاً في تنوير الفكر الإنساني ، ألا وهو جامع القرويين .

تأسيس الجامع

تشير بعض المصادر التاريخية إلى أن النواة الأولى لجامع القرويين كانت على يد امرأة صالحة تدعى (فاطمة بنت أبي عبد الله محمد بن عبد الله الفهري القيرواني) التي وفدت من القيروان مع أهلها[1] . وقد بنت فاطمة جامع القرويين بفاس في شهر رمضان عام 245هـ/ 859م بعد أن أصبح جامع الأشياخ ومسجد الشرفاء غير قادرين على استيعاب المصلين فيهما ، كما زودته بالمياه ، حيث حفرت بئراً في فناء الجامع[2] . والمعروف أن هذا الجامع قد تطور في وقت لاحق إلى ما يعرف بجامعة القرويين[3] . ففي عهد علي بن يوسف بن تاشفين ضاق الجامع بعدد المصلين فاجتمع فقهاء المدينة وأهل المشورة ، وبعد دراسة رفعوا الأمر إلى (أبي محمد بن عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي) وكان ذلك عام تسعة وعشرين وخمسمائة 529هـ/ 1134م وتمّ لهم الإذن ، فشرع في البناء في الجهة القبلية من الجامع ولم تكتمل الزيادة إلا عندما تولى قضاء المدينة الشيخ الفقيه (أبو مروان عبد الملك ابن بيضاء

---

(1) علي الجزنائي ، ص54 . ناجي جواد «رحلتي إلى افريقيا الغربية» (مطبعة الأديب البغدادي ، بدون تاريخ) ص73 .

(2) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ج1 ص46-47 ، علي بن أبي زرع ، ص54 .

(3) كلمة القرويين نسبة إلى مدينة القيروان التي بناها عقبة بن نافع الفهري . لقد عثر على لوحة كتب عليها ما يفيد أن داود بن إدريس هو الذي بنى جامع القرويين في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وستين ومائتين أي بعد التاريخ المذكور بثماني عشرة سنة . وقد ذكر ذلك الحسن السائح وعبد الهادي التازي . وقد علل التازي وجود هذه اللوحة بأنها قد تكون غرزت في الجامع في فترة متأخرة . الحسن السائح ، «على هامش تاريخ القرويين» ، ص45 . عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ج1 ، ص46 .

يختلف عبد السلام أحمد الكنوني في تاريخ بناء جامع القرويين حيث يُرجع بناءه إلى عام 236هـ/ 850م على خلاف غيره . عبد السلام أحمد الكنوني ، «المدرسة القرآنية في المغرب من الفتح الاسلامي إلى ابن عطية» (الرباط : مطبعة مكتبة المعارف ، بدون تاريخ) ص35 .

القيسي) في سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، فتمّ في أيامه على غرار ما بدأ به (إبن معيشة)[1] .

ويذكر الحسن السائح أن جامع القرويين كان يتألف أول الأمر من أربعة بلاطات ، ابتداء من الجهة القبلية ، ولكل بلاط إثنا عشر قوساً من الشرق إلى الغرب[2] .

أما الحسن الوزان وهو من أهل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، فقد وصفه بقوله : «يبلغ محيط دائرته نحو ميل ، ونصف ميل وله واحد وثلاثون باباً كلها كبيرة وعالية ، وتبلغ المساحة المغطاة فيه نحو مائة وخمسين ذراعاً طوسكانياً طولاً ، وأقل من ثمانين ذراعاً بقليل عرضاً . والصومعة التي يؤذن عليها عالية جداً ، وحول بناية الجامع في الواجهات الشرقية والغربية والشمالية أروقة ، عرض كل واحد منها ثلاثون ذراعاً وطوله أربعون ذراعاً ، وتوجد تحتها مخازن فيها الزيت وسائر الأشياء الأخرى التي يحتاج إليها الجامع ، ويوقد فيه كل ليلة تسعمائة سراج إذ لكل قوس سراجه»[3] .

وفي عهد دولة الأدارسة 172هـ/ 788-985م لم تحدث أية إضافات جديدة إلى أن جاءت زناتة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حيث استقام أمرها بالمغرب الأقصى ، فأقامت الأسوار على رباط العدوتين والأندلس ، وأصبحت فاس آهلة حتى ضاق مسجد الشرفاء بالناس ، فحولت الخطبة إلى جامع القرويين عام 345هـ/ 956م[4] .

طريقة التعليم

وضعت شروط وضوابط الالتحاق بجامعة القرويين ، ووفقاً لهذه الشروط التي كان يتم من خلالها التقدم للجامعة ، اشترط على كل من يريد

(1) علي الجزنائي ، ص67-68 .

(2) الحسن السائح ، «على هامش تاريخ القرويين» ، ص45 .

(3) الحسن الوزان ، ج1 ، ص224 .

(4) أحمد شلبي ، ج7 ، ص172-173 .

أن يلتحق بالدراسة أن يكون له معرفة مسبقة بعدد من المواد التي كان الطالب يتلقاها في الكتاتيب ، مثل حفظ القرآن الكريم وإتقانه تجويداً وتلاوة بالإضافة إلى الإلمام بمبادئ الدين الإسلامي وقواعد اللغة العربية ومواد أساسية أخرى .

علاوة على ذلك كان لعامل السن دور في دخول الجامعة ، فقد حددت سن معينة لذلك[1] .

أما عن مدة الدراسة فهي غير محددة بفترة زمنية معينة ، بل تركت مفتوحة ، فهي قد تستمر سنوات ، وقد تتوقف . وكان الأستاذ الذي يحاضر في جامعة القرويين في الفقه هو نفسه طالباً يحضر حلقات الدرس في النحو على سبيل المثال[2] .

فقد يكون الأستاذ طالباً في مادة وأستاذاً في أخرى . ومدة الدراسة كما ذكرنا غير محددة ، فهي قد تتراوح بين أربع أو خمس سنوات وأحياناً قد تصل إلى ست عشرة سنة تقريباً ، وكل ذلك راجع لقدرة الطالب على التحصيل .

ومثالاً على ذلك فقد درس (ابن ميمون) سبع سنوات في جامعة القرويين ، تلقَّى خلالها صنوف العلوم ، كما ظل الشيخ (ابن السنوسي) ثماني سنوات ينهل من ينابيع جامعة القرويين في شتى فروع المعرفة[3] .

أما المواد التي كانت تدرس في جامعة القرويين ، إبان العهد المريني 1195-1468م فكانت تشمل الأدب ، والشعر والنثر ، بالإضافة إلى علم العروض والقافية ، مما أدى إلى ازدهار الحياة الأدبية وبروز أدباء ولغويين مرموقين . ذكر لنا التازي ، نقلاً عن «نيكولا كلينا» المستوى الرفيع الذي وصلت إليه الدراسات الأدبية بجامعة القرويين ، حيث قال : «إن شواهد الألفية وحدها تكون عنصراً مهماً في مصادر الدراسة بفاس»[4] .

---

(1) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ح1 ، ص126 .

(2) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ح1 ص126 .

(3) نفسه ، ح2 ، ص420-421 .

(4) نفسه ، ح2 ، ص421 .

ومن ضمن المواد التي تدرّس في هذه الجامعة أيضاً علم أسرار الحروف ، وهو فرع من السيميا ، كتبت فيها مؤلفات مغربية وهي العلوم الكونية التي وجدت اهتماماً كبيراً لدى المؤلفين المغاربة ، وإن بقيت العناية أشد بعلوم اللغة بما فيها المعاني والبيان والبديع . وتعتبر فترة بني مرين من أزهى فترات الاهتمام بالتعليم في المغرب الأقصى . وفي تلك الفترة راجت المؤلفات والكتب المغربية وشروحها ، ومن الكتب المشهورة شرح سيبويه لابن رشيد ، وشرح مقصورة أبي حازم الغرناطي الحسني السبتي ، وشرح المكودي على الألفية والآجرومية (لأبي عبيد الله بن آجروم) المتوفى 723هـ/ 1323م ، وشرح تسهيل ابن مالك (لابن هانئ السبتي) وغيرها[1] .

هذا وقد اهتم المرينيون بتسجيل تاريخهم ، ومن ثم انتشرت كتب التاريخ في أيامهم . وكانت مؤلفات عهدهم لها الفضل ، ليس في تاريخ المرينيين فحسب ، بل في تاريخ من سبقوهم إلى سدة الحكم في المغرب الأقصى . هذا واعتمد في هذا المجال على كتب السيَر القديمة مثل كتب (ابن سيد الناس العمري) 734هـ/ 1333م . وكتب الرحلات المغربية التي تم تأليفها في تلك الفترة ، مثل رحلة (ابن رشيد) ومؤلفات أبي عبد الله محمد بن عمر الفهري المولود في مدينة سبتة عام 657هـ/ 1258م وقد توجه إلى الحج عام 683هـ/ 1284م[2] .

ثم كانت رحلة (أبي عبد الله العبدري) الذي بدأ رحلته إلى الحج عام 688هـ/ 1289م ، ورحلة (ابن بطوطة) الذي ذهب إلى الحج عام 725هـ/ 1324م بعد أن زار غرب أفريقيا[3] .

والجدير بالذكر أن مواد الطب والصيدلة وخصائص الأغذية كانت ضمن ثلاثين مادة تدرّس في تلك الفترة .

---

(1) ابراهيم حركات ، ج2 ، ص147-148 .
(2) ابراهيم حركات ، ج2 ، ص154-155-156 .
(3) نفسه ، ج2 ، ص154-155 .

وكان يدرس هذه المواد صفوة من العلماء الأفذاذ ، عبر حلقات الدرس والمجالس العلمية ، وخاصة في العهد المريني . ففي فترة (أبي عنان) الذي كان من مشجعي العلم والعلماء ، كان يعقد في كل يوم بعد صلاة الصبح مجلساً يحضره أعلام الفقهاء وأذكياء الطلبة ، فيتداولون بين يديه تفسير القرآن الكريم وأحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم كانت مجالس العلم التي يشرف عليها نموذجاً رائعاً من نماذج الازدهار العلمي[1] .

وفي المقابل ، كان يعقد في جامعة القرويين الأم مجالس للعلم ، حضرها مشاهير علماء الفكر في تلك الفترة ؛ ينيرون بفكرهم الثاقب دروب الأجيال ، فمنهم على سبيل المثال (أبو عبد الله محمد بن محمد المقري القرشي التلمساني) 758هـ/ 1356م ، والفقيه المهندس الرياضي (أبو الحسن علي بن أحمد الصنهاجي الحميدي التلمساني المعروف بابن الغمام) 758هـ/ 1356م ، والعالم النحوي (محمد بن إبراهيم الموحدي المراكشي المعروف باسم الصفار) 757هـ/ 1357م ، وأبو اسحاق إبراهيم بن الفقيه المفتي إبراهيم بن عبد الله) ، (ابن عبد الرحيم اليرناسي) 775هـ/ 1373م ، والسفير القاضي (محمد بن بطوطة الطنجي) 779هـ/ 1377م ، والقاضي البليغ (أبو يحيى محمد بن أبي البركات العياض السكاك) 858هـ/ 1415م[2] .

وفي هذا الصدد يجدر بنا أن نوضح أن هذه المجالس العلمية لم تقتصر على الرجال ، بل اشترك فيها النساء من أمثال (سارة بنت أحمد بن عثمان) 750هـ/ 1349م التي اشتهرت بالأدب ، وقد تبادلت الشعر مع (ابن رشيد الفهري)[3] ، كما كان هناك (أم هاني العبدوسي) فقيهة صالحة فهي أخت (الإمام عبد الله العبدوسي) ذكرها الشيخ (الزروق) في كناشته واصفاً إياها

---

(1) أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي ابن بطوطة ، «رحلة ابن بطوطة» (بيروت : دار صادر بدون تاريخ) ص661 ، الحسن السائح ، «على هامش تاريخ القرويين» ، ص20 .

(2) اسماعيل بن الأحمر ، «بيوتات فاس الكبرى» (الرباط : دار المنصور للطباعة 1972م) ص64 ، عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ج2 ، ص338-339 .

(3) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ج2 ، ص443 .

بأنها فقيهة صالحة ذات علم ودراية ، وقال عنها ابن غازي إنها آخر فقهائهم ، عمّرت حوالى مائة سنة ثم توفيت 860هـ/ 1455م أي كان مولدها عام 756هـ/ 1355م ، كما كان من الفاضلات الشيخة (فاطمة) والسيدة (أم البنين) جدة الشيخ زروق ، وكن يحضرن دروس الشيخ العبدوسي 848هـ/ 1444م[1] .

هذا من جانب ، ومن الجانب الآخر انصبّ الاهتمام على جامعة القرويين من قبل حكام المرينيين ، فكانوا يغذون هذا المرفق العلمي بما يحتاج إليه من كتب وغيرها ، فقد اشترط (أبو يوسف المريني 685-706هـ/ 1286-1306م) على ملك أشبيلية منحه جميع المخطوطات العربية التي أخذت من المسلمين ، فحمل منها إلى جامعة القرويين ثلاثة عشر جملاً في شتى صنوف المعرفة ، وهذا أصدق دليل على ما وصلت إليه خزانة جامعة القرويين التي بلغ تعداد المجلدات بها ثلاثين ألف مجلد[2] .

ويكفي جامعة القرويين شرفاً أنها سبقت الجامعات إلى كراسي التخصص ؛ فكانت هذه الكراسي تشمل مختلف فروع العلم حيث وصل تعدادها إلى مائة كرسي ؛ بالإضافة إلى أنه كان لها عشرون كرسياً للدراسات العليا . ولا يصل إلى هذه الكراسي إلا الذي يرشحه قاضي المدينة الذي هو مدير جامعة القرويين ، وكل كرسي له أستاذه وكتّابه ومورده الخاص به[3] ، الأمر الذي يؤكد النهضة العلمية الشاملة التي شهدتها البلاد وما وصلت إليه هذه المؤسسة العلمية من رفعة حتى أطلق عليها جامعة القرويين .

أما عن منهجية التعليم بجامعة القرويين قبل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، فقد اتبع في التدريس بجامعة القرويين طريقتان :

الأولى : طريقة أهل العراق وهي التي تجعل المادة أساساً للمناقشة ، دون أن تصحح رواياتها أو تناقش ألفاظها .

---

(1) أحمد بابا التنبكتي ، «نيل الابتهاج» ص348 .
(2) عبد العزيز بن عبد الله ، «الموسوعة المغربية» ، ج2 ، ص53 .
(3) الحسن السائح ، «على هامش تاريخ القرويين» ، ص17-18 .

أما **الطريقة الثانية** فهي طريقة أهل القيروان التي كانت تختلف عن الأولى اختلافاً كاملاً ، فهي تعنى بألفاظ الكتاب ، وتعمل على تحقيق مدلولات الأبواب وتصحيح الروايات وكل ما يقع فيه الاحتمال والتحذير إذا ما اكتشف من اختلاف الجواب ، كما تعمل كذلك على تتبع الآثار وتنظم أساليب الأخبار التي تورد ، كما تضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع من الآخرين[1] .

غير أن منهج التعليم في جامعة القرويين في أواسط القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) اعتمد طريقتين هما :

طريقة العبدوسي 847هـ/ 1443م وطريقة المشدالي 864هـ/ 1459م :

أما **طريقة الشيخ العبدوسي** ، فهي تمتاز بتدريس مدوّنة مالك ، إذ يبدأ بذكر كبار الرواة عن الإمام مالك بن أنس ، ثم يتدرج إلى أن يصل إلى علماء الأقطار من مصريين وأفارقة ومغاربة وأندلسيين ثم أئمة الإسلام وأهل الوثائق والأحكام . وطريقة تدريسه في التفسير ارتكزت على البدء بقراءة الآية ، ثم إتباعها بما يناسبها من الأحاديث النبوية . وفي تفسير طريقة المدوّنة في النحو ، فإنه كان يبدأ بأصحاب سيبويه إلى معاصريه .

وفيما وصل إليه العبدوسي من شأن وصيت ، يذكر التازي أن قاضي تونس نفسه قد تواضع لغزارة علم العبدوسي ومكانته العلمية ، وتهافت إليه عندما علم بقدومه إلى تونس تاركاً مجلسه ملتحقاً بمجلس الأخير لينال قسطاً مما يزخر به من علم[2] .

أما **طريقة المشدالي** فكانت تختلف عن طريقة العبدوسي ، إذ تميزت بتحريك أذهان الطلاب وجعلهم يخوضون دراسات عميقة توسيعاً لمداركهم ، فالمعرفة عنده اعتمدت على تحديد المجهول وجلاء الأفكار والمعارف الغامضة ،

---

(1) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ج2 ، ص427 .

(2) أحمد بابا التنبكتي ، «نيل الابتهاج» ، ص174 . عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ج2 ، ص428 .

وهو في ذلك يعتمد على تعابير العرب الأقحاح في اللغة . وقد وجدت طريقة المشدالي قبولاً في مجالس الطبقات العليا المثقفة ، ولكن لم تكن شائعة مثل طريقة العبدوسي بين جمهرة العلماء وطلاب المعرفة في المغرب الأقصى[1] .

بعد أن تحدثنا عن طريقة التدريس بجامعة القرويين ، يجب أن نوضح أن هذه الجامعة لم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن غيرها من منارات العلم بالأقطار الأخرى . فقد كان لعلماء القرويين رحلات شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وكان ارتباطهم مع المشرق أكثر من أية جهة أخرى . وأحصى المقري عدد المغاربة الذين شدوا الرحال إلى المشرق حيث بلغوا زهاء ثلاثمائة . غير أن الذين يردون على المغرب من المشرق أقل من ذلك بكثير . وقد ظلت صلة علماء القرويين بعلماء الأزهر قوية ، فكانوا يستفتونهم في عدة أمور . ولم تقتصر علاقة علماء القرويين على الأزهر فقط ، بل اتصلوا بعلماء (تونس) وبجاية وتلمسان وعلماء تمبكتو في السودان الغربي . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، إن مخلوف بن علي صالح البلبالي من العلماء الأجلاء ، كان ذهب إلى بلاد السودان الغربي ودرس لأهلها وتناقش مع العالم (الانضمني) ، ثم رحل إلى تمبكتو حيث درس هناك ورجع إلى المغرب الأقصى ، ودخل إلى مراكش ودرس بها إلى أن توفي رحمه الله عام 940هـ/ 1533م[2] .

وإضافة إلى الاتصال بين العلماء كان هناك سفارات بين جامعة القرويين ونظيراتها بالعالم الخارجي ، فقد أرسل سليمان حفيد يعقوب المريني الشيخ أبا الحسن الصغير الزرويلي 719هـ/ 1319م سفيراً إلى الأندلس ، والكاتب أبا طالب 752هـ/ 1351م سفيراً إلى مالي ، وابن بطوطة 779هـ/ 1377م السفير المتنقل . كما كان هناك طلاب من تونس والجزائر والسودان الغربي يتوافدون على جامعة القرويين لتلقي العلم والمعرفة . وفي المقابل كان هناك علماء استقدمهم السلطان منسا موسى سلطان مالي من العرب بمن فيهم علماء من المغرب الأقصى[3] .

---

(1) نفسه والصفحة .

(2) أحمد باب التنبكتي ، «نيل الابتهاج» ، ص344 .

(3) عبد العزيز بن عبد الله ، ملحق2 ، ص48 . دنيس بولم ، ص50 .

وقد حظي العلماء المغاربة وغيرهم بمكانة مرموقة عند الحكام وعامة الناس ؛ فكانوا يتقاضون مرتبات شهرية وسنوية ، فالراتب الشهري كان يكفي العالم وأسرته وما يحتاجون إليه من أكل وشرب ، بل يزيد .

أما الراتب السنوي فيتمثل في منحه الحبوب والدهن والملابس وفي المناسبات والأعياد كان السلاطين يغدقون عليهم من الخيرات الشيء الكثير ، كما كانوا على اتصال بهم من خلال الزيارات المتبادلة . والأهم من ذلك أنه كان لكل عائلة مرموقة عالم تصادقه وتحسن إليه وتأخذ بنصائحه في أمور حياتها[1] .

وقد أورد الحسن الوزان في معرض حديثه عن رواتب الأساتذة أن لكل عالم أجراً جيداً يتقاضاه[2] .

وفوق ما تمَّ ذكره كان وقف علماء جامعة القرويين وغيرها من المؤسسات العلمية على درجة عالية من النظام ، فكانت عطلات جامعة القرويين يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع ، وتعرف بالعطلة الأسبوعية ، تغلق فيها الجامعة أبوابها . كما كانت لديهم عطلة طويلة تصل إلى الأربعين يوماً في فترة الصيف ، تعرف بالعطلة الصيفية ، علاوة على عطلات شهر رمضان وعاشوراء ويوم العنصرة (عيد فلاحي) وعطلة عيدي الفطر والأضحى اللتين كانتا تستغرقان أسبوعاً ، والمولد النبوي الشريف . وكانت لديهم أيضاً عطلات فجائية ، فعند وفاة أستاذ بالجامعة أو طالب نجيب ، أو اختلال في أمن البلاد ، كانت تغلق الجامعة أبوابها[3] .

وفي تلك العطلات كان بعض العلماء يتفرغ للسياحة في مدن المغرب الأقصى ، ومنهم من يعكف على الدراسة في خزانة جامعة القرويين ، حيث كان في الجامعة ثلاث خزائن بداخلها وخزانة علمية بخارجها يدرس فيها

(1) الحسن الوزان ، ج1 ، ص227 .

(2) نفسه والصفحة .

(3) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ج2 ، ص436-437 .

العلماء ، وكانت هذه الخزائن على درجة من النظام في طريقة الاستعارة . ففي عهد بني مرين وضع قانون للإعارة علّق على باب الخزانة . وكانت هذه الخزائن الأربع تحتوي على نفائس الكتب ، فكانت الخزانة العلمية تحتوي على كتب من بينها كتاب البيان والتحصيل للقاضي ابن رشيد مكتوب في رق غزال ، وقد فرغ من نسخه الكاتب أحمد الصنهاجي في عام 720 هـ/ 1320م ، كما تحتوي على سيرة إبراهيم بن محمد الغزاري ، التي ترجع إلى سنة 720هـ/ 1320م ، وتاريخ العلامة ابن خلدون مكتوب بخط يده ، أهدى النسخة إلى الخزانة . زد على ذلك أنه توجد بها مجانة خشبية أهداها أبو سالم المريني إلى الخزانة حتى يستفاد منها[1] .

وبهذه الأمور السابقة يحق لنا أن نقول إن جامع القرويين لم يعد يعرف بجامع ، بل بجامعة القرويين التي زخرت بصنوف العلم والمعرفة التي سادت مدى أحد عشر قرناً من الزمن ، ومن ثم تعتبر هذه الجامعة واحدة من أقدم وأعرق الجامعات الإسلامية ، بل العالمية حيث انضم إليها كثير من علماء القيروان ، وقد بلغت درجة من العلم والنظام في عهد بني مرين خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين وسكنها صفوة من العلماء الأفذاذ التي خرَّجت للمجتمع الإسلامي نخبة من كبار المفكرين .

وكما سبق أن أشرنا فإن هذه الجامعة العريقة لم يكن اتجاهها نحو الشمال فحسب ، بل اتجهت صوب الجنوب أيضاً باعثة بوفود العلماء من أبنائها ، مستقبلة بكل ترحاب الأعداد الهائلة من طلاب السودان الغربي ، الأمر الذي جعلها تسهم بنصيب وافر في نشر الإسلام فيما وراء الصحراء .

فعندما أنشئت مدينتا (تمبكتو) و(جني) أدت جامعة القرويين دورها البارز في مدِّ هذين المركزين بالمعلمين والكتب ، وأقامت اتصالاً وثيقاً بهما ، كما سبق أن أوضحنا ذلك . ونستطيع أن نقول إن جامعة القرويين كانت منارة

---

(1) الحسن السائح ، «على هامش تاريخ القرويين» ، ص23-24 . عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ج2 ، ص450-451 .

من منارات العلم تشع بعلمها الثاقب على المنطقة . غير أنها لم تكن وحدها التي ساهمت في ذلك ، بل كانت هناك مؤسسات علمية رفدت جامعة القرويين ، وحفلت بنشاطات علمية كان لها الأثر البالغ في تاريخ المنطقة ، وهذه المؤسسات العلمية هي مدارس مدينة فاس التاريخية ، نذكر أربعاً منها على سبيل المثال لا الحصر .

1 ـ مدرسة الحلفاويين 765هـ/ 1276م :

تم تأسيسها على يد أبي يوسف يعقوب المريني ، وعرفت بالمدرسة اليعقوبية . وقد اختلف في تاريخ تأسيسها . فالتازي يرى أنها أسست عام 670هـ/ 1270م[1] . أما الجزنائي فإنه يزيد على هذا التاريخ خمس سنوات ويرجعها إلى عام 675هـ/ 1276م[2] .

وأرجح الرأيين ما ذهب إليه الجزنائي ، نظراً لأنه كان أقرب إلى تلك الفترة من غيره .

هذا عن تأسيسها . أما وصفها ، فكانت تحتوي على قاعات للدرس ومكان للعبادة وبها موضع لسكن الإمام ، وألحق بالمدرسة خزانة توضع فيها الكتب[3] .

كما كان بها صفوة من العلماء ، فعلى سبيل المثال (محمد بن علي بن املال المديوني) عرف بالتواضع والعلم الغزير وقد تولى الفتوى بعد الشيخ القوري . تحدث عنه الشيخ زروق بأنه صلّى خلفه بمدرسة الحلفاويين ، توفي الفقيه محمد المديوني بمدينة فاس عام 856هـ/ 1452م[4] .

كما كان بها (مفضل بن محمد بن الدلائي العذري) وكان من أهل الفضل والعلم ، رحل إلى المشرق في طلب العلم ، فأجازه (عز الدين بن

---

(1) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ح2 ، ص357 .

(2) الجزنائي ، ص81 .

(3) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ح2 ، ص357 .

(4) أحمد بن القاضي المكناسي ، ص ـ 1/ ص240 .

عبد السلام) و(عبد اللطيف) و(عبد الرهاب بن عساكر) . وقلده الخليفة (يعقوب بن عبد الحق المريني) قضاء الجماعة بفاس ، كما أسند إليه النظر على صاحب الشرطة وصاحب الحسبة ، وهو من أرفع المناصب ، كما أن له الفضل في بناء المدرسة الحلفاوية ، وهو الذي شجع على الزيادة في المدارس . وكانت له مجالس للعلم[1] .

2 ـ مدرسة العطارين 723هـ/ 1323م :

يرجع بناؤها إلى عهد السلطان المريني أبي سعيد الذي وضع حجر الأساس لها مع لفيف من فقهاء فاس ، وأشرف على البناء أبو محمد عبد الله بن قاسم المزداد ، واستغرق العمل فيها سنتين[2] . والداخل إلى المدرسة يجد عن يمينه المطلع إلى الطابق العلوي فغرف الطلبة .

أما من جهة اليسار فمكان الوضوء وقاعة الدروس ، وكان للمدرسة سور وصلت تكاليفه إلى ألف مثقال ذهباً . كما كان يزين جدران هذه المدرسة الفسيفساء والرخام ، أما غرفها فكانت تزينها الآيات ، فظهرت على درجة كبيرة من الجمال والإتقان[3] .

ومن الناحية العلمية فإن السلطان (أبا سعيد) قد جلب لها نخبة من الفقهاء لتدريس الفقه والنحو . ولكل من المعلمين كرسي يخصه ، فكرسي الفقه يدرس في الفترة الصباحية ، ويقوم بتدريسه (محمد بن أحمد الفشتالي 777هـ/ 1375م) وكان يدرس المدوَّنة ، ومن بين تلاميذ هذا الكرسي (ابن الأحمر) .

---

(1) أحمد بن القاضي المكناسي ، ص ـ 1/ 339 .

(2) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ح2 ، ص358 .
روجي لوطورنو ، «فاس قبل الحماية» ، (بيروت : دار الغرب الاسلامي 1986م) ص106 .

(3) محمد بن الطيب القادري ، «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني» ، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ، (الرباط : مكتبة الطالب 1982م) ح2 ، ص191 . شارل اندري جوليان ، ح2 ، ص227-241 . الحسن السائح ، «على هامش تاريخ القرويين» ، ص22-23 .

أما كرسي النحو فكان يدرس في الفترة المسائية واشتهر فيه علماء أجلاء ، من بينهم الشيخ (أبو زيد عبد الرحمن المكودي 801هـ/ 1407م) فدرس كتاب سيبويه . كما درس بها الأستاذ (ابن العجل الوزرواني 857هـ/ 1453م) أيضاً . كان يدرس بها العديد من المؤلفات الأخرى منها مؤلفات خالد الأزهري 905هـ/ 1499م[1] .

3 ـ المدرسة المصباحية 745هـ/ 1344م :

شيدها السلطان (أبو الحسن المريني) بقرب جامعة القرويين ، وعرفت بالمصباحية نظراً لأن الأستاذ (أبا الضياء مصباح بن عبد الله اليالصوتي) أول من درس بها[2] . وكانت هذه المدرسة تحتوي على نزل للطلبة وصل عدد غرفه إلى مائة وسبع عشرة غرفة[3] ، الأمر الذي يظهر لنا العدد الهائل من الطلاب الذي كانت تعج به المدرسة ناهيك بطلاب القسم الخارجي .

أما عن كرسي العلم فقد كانت تحظى بنصيب وافر إذ كان من روادها الأوائل (أبو الضياء الفاسي 751هـ/ 1349م) وقد قال عنه أحمد بابا : « . . . من أكابر أصحاب أبي الحسن الصغير ، كان فقيهاً حافظاً نوازلياً . . . وكانت أمه من الصالحات . . . وله فتاوى نقل بعضها في المعيار»[4] . كما كان بها (الإمام المزكلدي 846هـ/ 1442م) و(الإمام أحمد الونشريسي) صاحب تأليف المعيار وابنه (عبد الواحد)[5] . كما كان من أساتذتها الأستاذ النحوي (أبو عبد الله بن هاني) وقاضي الجماعة عبد الواحد الحميدي[6] الذي كان يدرس قبل صلاة الظهر التهذيب واختصار المدونة للإمام خلف بن أبي القاسم

---

(1) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ج2 ، ص287 .
(2) أحمد بابا التنبكتي ، «نيل الابتهاج» ، ص344 .
(3) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ج2 ، ص359 .
(4) أحمد بابا التنبكتي ، «نيل الابتهاج» ، ص344 .
(5) محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني النجار المراكشي ، «نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي» ، تصحيح السيد هوداس ط : 2 (الرباط : مكتبة الطالب 1888) ص34-35 .
(6) محمد بن الطيب القادري ، ج1 ، ص44 .



البرادعي . أما بعد صلاة الظهر فيدرس مختصر الخليل . وكان رواد الحسن الزياتي وعبد الرحمن الفاسي وغيرهما ممن لا يتسع المقام لذكرهم[1] .

4 ـ مدرسة الطالعة الكبرى (البوعنانية) :

أرسى دعائمها السلطان (أبو عنان المريني) فكانت آية في الإبداع[2] . وقد أشاد بها ابن بطوطة قائلاً : ولم «أر في مدارس سورية ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها»[3] . وقد قال عنها مارمول : «ولقد فاقت غيرها من مباني هذا العصر سواء ، في تصميمها أو في غناها ومواردها»[4] ، وقد كلف بناؤها أموالاً كثيرة . يؤكد ذلك الحسن الوزان حيث قال في معرض حديثه عن المدرسة «إن السلطان أبا عنان أراد أن يعرف مصاريف المدرسة بعد الانتهاء منها ، وعندما وجدها باهظة تركها وألقى بدفتر الحساب في القناة . غير أن أحد القائمين عليها حسب المصاريف فوجدها أربعمائة وثمانين ألف مثقال»[5] .

أما من حيث الحركة العلمية فقد كان بها صفوة من العلماء ، منهم الفقيه (أبو العباس أحمد الحباك 870هـ/ 1465م) والفقيه (أبو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن البكري الدلائي) والمفتي (محمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني القرشي) . وكان والد السلطان أبي عنان من رواد دروس هذا الشيخ[6] ، كما كان من مدرِّسي هذه المدرسة الشيخ (أحمد بن سعيد المكناسي 804-870هـ/ 1401-1465م)[7] ، الذي كان يكتب الشعر في التصوف . وكان هؤلاء المدرسون يتقاضون رواتب جيدة من السلطان ، وينفق على المدرسة من

---

(1) عبد الهادي التازي ، «جامع القرويين» ، ح2 ، ص359 .
(2) عبد العزيز بن عبد الله ، «تاريخ الحضارة المغربية» ، دار السلمي 1962م ، ح2 ، ص35 .
(3) ابن بطوطة ، ص664 .
(4) مارمول كرنجال ، «افريقيا» ، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرين ، (الرباط : مكتبة المعارف للنشر والتوزيع 1984) ، ح1 ، ص406 .
(5) الحسن الوزان ، ح1 ، ص226 .
(6) اسماعيل بن الأحمر ، ص64 .
(7) أحمد بن القاضي المكناسي ، ص128/1 .

أوقاف العقارات ومن مال أبي عنان شخصياً ، وكان طلابها الفقراء يعطون منحة دراسية ، ويعفون من المصاريف واللباس مدة سبع سنوات[1] .

ومن خلال حديثنا عن مراكز الإشعاع العلمي ، يجب أن لا يغرب عن بالنا أنه لم تكن المدارس وحدها قائمة بهذا الدور ، بل كانت المساجد أيضاً تؤدي دوراً بارزاً في نشر الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية ، إذ بلغ تعدادها بمدينة فاس حوالى سبعمائة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كرسي مسجد الأبارين للتفسير والحديث وهو على مقربة من جامعة القرويين .

والخلاصة ، أن كل هذه المؤسسات العلمية كانت من روافد جامعة القرويين . وهي التي ارتكزت عليها علاقات متينة في جميع الميادين بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ، نتناول منها هنا العلاقات الاقتصادية والسياسية ، التي أقل ما يمكن أن توصف به أنها جد وثيقة .

العلاقات الاقتصادية بين المغرب الأقصى ومملكة مالي الإسلامية

أدت تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى دوراً بارزاً في توطيد العلاقات بين شمال القارة الأفريقية وغربها ، وقد كان الجمل وسيلة النقل الرئيسة في تلك المناطق التي ازدهرت فيها الصلات التجارية والثقافية ، لا سيما بعد أن توطد الإسلام في الشمال الأفريقي في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، ولسنا بحاجة إلى إعادة القول بأن قيام دولة مالي في مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كان إيذاناً بتوثيق الصلات بين السودان الغربي ومصر وأقطار الشمال الأفريقي ، حيث إن مالي عرفت منذ بدايتها بأنها دولة إسلامية ، فعلاقة مالي بالمغرب الأقصى كانت أقوى العلائق بالمقارنة إلى الأقطار الإسلامية الأخرى ، خاصة أن المرابطين الذين أعطوا الإسلام سنداً سياسياً وعملوا على نشره ، كانوا قد انطلقوا في مسيرتهم من المغرب الأقصى

---

(1) الحسن الوزان ، ج1 ، ص227 .

لنشر العقيدة الإسلامية في غرب أفريقيا ، محاولين إسقاط دولة غانا الوثنية عام 469هـ/ 1076م .

هذا وقد شهدت دولة مالي الإسلامية أزهى عصورها التجارية بين شمال وغربي القارة ، إذ كانت القوافل التجارية تجوب الصحراء ذهاباً وإياباً ، بين أهم المراكز التجارية في مالي وتلك التي في المغرب الأقصى ، وخاصة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)[1] .

ومن أهم طرق القوافل التجارية التي ظلت تربط مالي بالمغرب الأقصى ، حتى سقوط دولة مالي في أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) هي :

1 ـ طريق من المغرب الأقصى ماراً بسجلماسة وتوات إلى تمبكتو[2] ، طريق غربي يبدأ من مراكش متجهاً إلى المنحنى الشمالي من النيجر وإلى الإقليم التاسع غرب جنوب المحيط[3] .

2 ـ طريق غانا ـ موجادور ـ فاس عن طريق أودغست[4] .

3 ـ طريق تمبكتو ـ موجادور ـ فاس عن طريق منجم تغازا[5] .

4 ـ طريق قديمة تبتدئ من وادي درعة وتُقطع في خمس مراحل للوصول إلى وادي (تارجاوين) ووادي (تارجا) تسير في أرض صحراوية مسيرة ثلاثة أيام ، ومن بعد نجد آبار ميادة (بير تزامتي) و(بير الجمالية) و(بير تاللي)

---

(1) محمد الغني سعودي ومحمد محمد أمين وآخرون ، ص14-72-73 . الفشتالي ص117-118 . عبد الكريم «كريم المغرب في عهد الدولة السعدية» ، ط : 2 (الدار البيضاء : شركة الطبع والنشر ، 1977م) ص46 .
"Africains de 1960". Zeini Moulaye: `"Les `Relations du Mali avec les Etats Nord - Africains de 1960 A 1980", p: 2.

(2) أحمد شلبي ، ح7 ، ص197 .

(3) بازل دافدسن ، ص20 .

(4) جمال زكريا قاسم ، «الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية» ، (مطبعة الجبلاوي ، 1975م) ص20 .

(5) نفسه والصفحة .

ومياهها غير عذبة إلى منطقة أدرار ، ومن أدرار إلى أرض صنهاجة ومنها إلى غانا[1] . ورغم أن وصف البكري لهذه الأخيرة وآبارها ينطبق على طرق القوافل في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، إلا أننا نعتقد أنها استمرت على المنوال نفسه حتى بعد البكري . وظلَّت القوافل التجارية تجوب الصحراء مارة بواحات منتشرة على طول الطرق تتوافر فيها آبار المياه ، وأنها كانت تسير في جماعات كبيرة وذلك راجع إلى أسباب موضوعية منها :

أ ـ أن القافلة تخرج من المغرب الأقصى مرة واحدة في العام صوب غرب أفريقيا .

ب ـ أن أفراد القافلة يفضلون التجمع في أعداد كبيرة حفاظاً على أرواحهم وممتلكاتهم من خطر النهب والسلب .

ج ـ أن القافلة الكبيرة العدد تتيح لأفرادها توزيع الاختصاصات ، فمثلاً تخصص بعض الإبل لحمل الزاد والماء والبعض الآخر لحمل البضائع .

د ـ أن وجود أشخاص على علم بمسالك ودروب القوافل أمر ضروري لسلامة القافلة وضماناً لاتباعها أقصر الطرق إلى الأماكن المقصودة .

وكان التجار في كل من فاس ومراكش وسوس وتافيلالت (سجلماسة) ودرعة وتوات ، يحملون الملح الذي يأخذونه من سبخة تودن (تاودي) الذي يقبل عليه أهل السودان الغربي إقبالاً كثيفاً حيث يحملونه بدورهم إلى مدن هقار ، و(ميت) و(متبر) و(دور) و(شحاو) وغيرها من المناطق الأخرى ، فيفد إليها تجار آخرون من مناطق مختلفة من غرب أفريقيا متلهفين لشراء ما لديهم من ملح ، وبذلك يزداد ثمنه أضعافاً مضاعفة ويحصلون على ربح وفير نتيجة لمقايضة الملح بالذهب ، وفي كثير من الأحيان تفوق قيمة الملح وزنه ذهباً .

وتجدر الإشارة إلى أن الملح من المعادن التي تعتبر ذات قيمة عظيمة عند مالي والسودان الغربي . ومن أكبر الأسباخ ، سبخة (تودن) وسبخة (أبو

---

(1) البكري ، ص163 .

جبيل) ، ويستخرج الملح على شكل ألواح لا يتمكن الجمل من حمل أكثر من صفيحتين فقط ، نظراً لثقل وزنها علماً بأن صفائح الملح عند أهل السودان الغربي أفضل من الملح المحبب[1] .

هذا ولم يكن الملح البضاعة الوحيدة التي تأتي من الشمال الأفريقي ، بل ضمن سلع أخرى تصدر إلى غرب أفريقيا[2] ، كالأصواف والأسلحة والملابس الملونة والأحذية[3] .

زد على ذلك أن التجار المغاربة أدوا في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) دوراً بارزاً في نقل بضائع أوروبا إلى ما وراء الصحراء ، ومن بين هذه السلع الأقمشة التي كان يذهب نصيب كبير منها إلى السودان الغربي[4] . وفي مقابل ذلك يجلب التجار المغاربة من مالي (تمبكتو) الذهب الذي يعتبر من أهم المعادن التي يشتهر بها غرب أفريقيا ، كما يجلب منها الرقيق والعاج وأنياب الفيل وبيض النعام والبخور والصمغ أيضاً .

وكانت هذه السلع المذكورة خاضعة لمعيارين هما :

أولاً : ألا تكون سريعة التلف ، نظراً لطول المسافة بين مالي والمغرب الأقصى .

ثانياً : أن يكون عائدها كبيراً بالمقارنة لوزنها ، نظراً لأن أجور النقل (عبر طرق القوافل الصحراوية) عالية ، فقد تصل أحياناً إلى مائة في المائة . غير أن هناك في المقابل بضائع لا تكلفه ما تكلفه البضائع السابقة من متاعب كالرقيق ، إذ كل ما كانوا يحتاجون إليه شيئان فقط ، الحراسة والأكل . وقد وصل ثمن الرقيق في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) بمدينة توات إلى أوقيتين للرأس الواحد[5] .

---

(1) عند زيارة الباحث في صيف 1985م لمدينة تمبكتو شاهد الاقبال على صفائح الملح أكثر من الملح المحبب ويفوقه حتى في الثمن .
(2) أحمد بلعراف ، ورقة 18-20 .
(3) نفسه والصفحة .
(4) عبد القادر زبادية ، ص15 .
(5) عبد القادر زبادية ، ص202 .

كما ذكر لنا ابن بطوطة أن أهل كوكو أحد أقاليم مملكة مالي ، كانوا يستعملون الودع في التبادل التجاري[1] ، وقد كان هناك تجار مشهورون في فن التجارة عارفون بأمورها ومتطلباتها من رأس المال ومعرفة بالصحراء ومسالكها .

ومن بين الذين اشتهروا بمزاولة الصفقات التجارية الكبيرة مع مالي في القرن 8هـ/ 14م تاجر يدعى (المقري) الذي كان مالكاً لإحدى المحطات التجارية ومقيماً في سجلماسة ، وله أربعة أخوة تجار : اثنان في مدينة تلمسان ، واثنان في مدينة ولاتة على طريق تمبكتو ، وكان المقري يقوم بإرسال الصفقات التجارية ويستقبل من شركائه في مدينة تلمسان البضائع الأوروبية والمغربية . ثم يعمل بدوره على نقلها إلى ولاتة حيث كان أخواه يجمعان منتجات السودان الغربي من جلود ، وعاج ، وتبر ، ورقيق ، ويرسلانها إلى المغرب الأقصى سنوياً في قافلة كبيرة[2] .

كما نشط تجار آخرون في هذا المجال أمثال القائد دحمان الذي عاش بتوات وورث الزعامة عن والده (عابدين بن بيروك) الذي كانت قوافله تتردد بين مالي وتمبكتو ومراكش حيث تصل في بعض الأحيان حتى جنوب مصر[3] . وقد ذكر لنا ابن بطوطة شخصية مغربية في (تكدا) ، ألا وهو شيخ المغاربة (سعيد بن علي الجزولي)[4] .

الأمر الذي يؤكد التواجد المغربي في السودان الغربي ، حيث تقاطر التجار المغاربة على نطاق واسع إلى أرجاء مملكة مالي تمبكتو وجني غيرها من المراكز التجارية ، ينشرون فيها بضائعهم ويساهمون في الرخاء الاقتصادي[5] .

---

(1) ابن بطوطة ، ص695 .

(2) عبد العزيز بن عبد الله ، «معلمة الصحراء» ، ملحق 1 ، ص19 .

(3) نفسه والصفحة .

(4) ابن بطوطة ، ص696 .

(5) نفسه ، ص695 . جمال زكريا قاسم ، ص159 .

وهذا ما أكده ابن خلدون حيث قال : «وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقيا»[1] .

وفي هذا الصدد يحدثنا ابن بطوطة ، الذي جاء إلى مالي برفقه قافلة خرجت من مدينة مراكش وفيها نفر من تجار سجلماسة عام 753هـ/ 1352م ، عن حوادث وأسماء من الرجال البيضان تستحق الذكر لما تمثله من تغلغل العنصر العربي في مالي والسودان الغربي . فقد استضافه في مدينة كوكو رجل مغربي من مدينة مكناسة يدعى (محمد بن عمر) وصفه بالفطنة والظرف والمرح وقد توفي بمدينة (كوكو) بعد خروج ابن بطوطة منها[2] . ثم استطرد ابن بطوطة قائلاً إنه خلال تواجده بغرب أفريقيا استضافه (محمد الوجدي التازي) وهو من أهل اليمن ، كما أكرمه الفقيه (محمد الفيلالي) الذي كان يشغل منصب إمام مسجد البيضان وهو من عرب الشمال الأفريقي[3] . وفي مجمل حديثه أشار ابن بطوطة إلى أن الذي كان يترجم عنه لدى حضوره إلى المجلس جماعة من البيضان ، حيث كان لهم في حاضرة مالي حي كبير يقطن فيه (محمد بن الفقيه المقري) و(عبد الواحد) و(ابن الفقيه والد محمد) و(شمس الدين بن النقوش) وكذلك (علي الزواري المراكشي) وكان الأخير من الطلاب الذين يدرسون بمالي[4] .

وهذه أدلّة واضحة على ما كان يتمتع به أهل المغرب الأقصى من مكانة مرموقة لدى سلاطين مالي ، حتى أن مترجم السلطان كان من البيضان . كما أن أواصر النسب بينهم كانت قوية ، والدليل على ذلك زواج ابن الفقيه المغربي من بنت عم السلطان المالي . وهكذا أدت العلاقات الاجتماعية دورها البارز في دعم العلاقات الاقتصادية بين الجانبين .

وبما أننا بصدد الحديث عن العلاقات الاقتصادية بين مملكة مالي الإسلامية والمغرب الأقصى ، يجدر بنا الحديث عن مدينة سجلماسة التي كان

---

(1) ابن خلدون ، ح6 ، ص200 .

(2) ابن بطوطة ، ص695 .

(3) نفسه ، ص688-695-696 .

(4) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تمبكتو ، ص47 .

لها دور بارز في تاريخ المغرب الأقصى ، لارتباطها بالصحراء حيث كانت معبراً بين الشمال والجنوب .

بناء مدينة سجلماسة

تقع المدينة على طريق القوافل مسيرة شهرين من غانا ، على ما حدده صاحب الاستبصار[1] . واختلفت الروايات حول إنشاء مدينة سجلماسة . فالبكري يرى أنها قد بنيت بواسطة (أليسع بن منصور بن أبي القاسم) وذلك من ماله الخاص في عام 140هـ/ 857م[2] . أما صاحب الاستبصار فيتفق مع البكري في تاريخ إنشاء مدينة سجلماسة ؛ إلا أنه يرى أن تأسيسها كان على يدي (مدرار بن عبد الله)[3] الذي كان عالماً من علماء الحديث ، إذ تلقاه عن (عكرمة) مولى (ابن عباس)[4] . ويضيف أيضاً أن مدراراً كان على مذهب الخوارج الصفرية وقائداً لأربعين رجلاً قامت على كاهلهم المدينة ، وبعد ذلك قام (أبو منصور بن أبي القاسم بن مدرار) ببناء سور لها[5] . وهناك رواية ثالثة أوردها صاحب الاستقصاء وهي تختلف عن الروايتين السالفتي الذكر ، وهي أن مؤسس مدينة سجلماسة هو (عيسى بن يزيد الأسود الصفي) الذي شقَّ أتباعه عليه عصا الطاعة ، فقاموا بصلبه على شجرة فوق قمة جبل[6] .

---

(1) الاستبصار ، ص201 .

(2) البكري ، ص138 .

(3) الاستبصار ، ص201 .

(4) نفسه والصفحة .

(5) نفسه والصفحة .

(6) الناصري ، ج1 ، ص124 ، ابن خلدون ، ج2 ، ص13 . ابن عذارى المراكشي ، «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» ، تحقيق ومراجعة ، ج س كولان وا . ليفي بروفنسال ، ط : 3 (الدار العربية للكتاب 1983م) ج1 ، ص156 . والجدير بالذكر أن البكري خالف روايته السابقة وأشار إلى أن مدينة سجلماسة كانت قائمة سنة 104هـ/ 722م والفترة بين التاريخين ست وثلاثون سنة وهي فترة ليست بالبسيطة في تاريخ مدينة سجلماسة . البكري ، ص139 . بعد مقتل عيسى بن الأسود تولى أبو القاسم سمعون ابن مدلان المكناسي حيث ثار عليه أخوته فتولى أخوه أليسع بن سمعون بن مدلان المكناسي سنة 170هـ/ 786م ودعي بالمنتصر وكان عنيداً جباراً حيث قتل كافة أعدائه وأظهر الصفرية ومات 208هـ/ 823م . المراكشي ، ج1 ، ص156-157 .

ويعطينا الحسن الوزان رواية رابعة مفادها أن قائداً رومانياً ساهم في تشييد المدينة وأطلق عليها (سجلوم ميسى) ، ومن هنا حرّف اسمها إلى أن وصل إلى ما يعرف اليوم بسجلماسة[1] .

وعلى أي حال فمهما اختلفت الروايات التاريخية التي تم سردها حول تأسيس مدينة سجلماسة ، فالذي يهمنا أنها مدينة مغربية تم تأسيسها بأيد مغربية ، وازدادت أهميتها نسبة لموقعها الممتاز ومكانتها ومركزها التجاري المرموق المتاخم للصحراء وبلاد السودان .

وقد ذكر أبو الفداء «أن سجلماسة قاعدة ولاية مشهورة ، لها نهر يأتي من الجنوب والشرق وينقسم فيمر على شرقي سجلماسة وغربها وعليه البساتين الكثيرة»[2] .

وإذا ما أتينا إلى وصف مدينة سجلماسة ، فقد ذكر البكري أن للمدينة اثني عشر باباً ، منها ثمانية أبواب حديدية[3] .

أما أبو الفداء فإنه يذكر أن المدينة مسورة ولها ثمانية أبواب[4] .

وهذا يعطينا بُعداً مهماً في أهمية هذه المدينة وقيمتها ، وأنها بالتأكيد كان لها دور فعال في المنطقة ، الأمر الذي جعل قاطنيها يقومون بتنظيمها تنظيماً جيداً .

هذا وقد أصبحت مدينة سجلماسة آهلة بالسكان ، وكان مناخها صحياً لا تكثر فيها الأمراض لانعدام الذباب ، حتى قيل إن من دخلها مريضاً بالجذام شفي من هذا المرض الخبيث[5] .

---

(1) الحسن الوزان ، ح2 ، ص127 . ومال كول «الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانا» ، تعريب وتعليق محمد الحداوي ، (الدار البيضاء مطبعة النجاح الجديدة 16 من ذي الحجة 1395هـ)/ ص35-36 .

(2) أبو الفداء ، ص137 .

(3) البكري ، ص138 .

(4) أبو الفداء ، ص137 .

(5) البكري ، ص138 .

وقد أدى احتراف أهلها للزراعة واستخدامهم وسائل الري المتطورة لزراعة الفواكه والخضراوات والنخيل إلى انتعاش المدينة اقتصادياً . وكانت أرضها خصبة ، فتزرع سنة ويستمر الحصد من البذور التي زرعت لثلاث سنوات متتالية[1] . وهذا يدلنا على شيء هام وهو خصوبة تربتها ونقاء جوها وكل هذه الشواهد توضح لنا مدى ما كانت تتمتع به مدينة سجلماسة من موقع ممتاز وجو نقي وخيرات وفيرة وأرض خصبة يزرع بها القمح والشعير ، ونباتات أخرى لا تشبه سنبل الحنطة ولا الشعير كما يكثر بها العديد من أشجار الفواكه وخاصة شجر النخيل ، ويقصدها الغرباء من مناطق صحراوية عديدة سواءٍ لغرض التجارة أو الإقامة .

أما عن نساء مدينة سجلماسة فإنهن كن يشتهرن بصناعة الصوف وغزله وتشكيله عدة أنواع ، كلها ذات منظر جميل ، كما كن يصنعن الأزر والعفارات التي يصل ثمن الواحدة منها إلى خمسة وثلاثين ديناراً ، وهو أجود من صوف مصر[2] .

وكانت مدينة سجلماسة مركزاً تجارياً مهماً ، حيث انطلقت منها قوافل التجار نحو بلاد السودان الغربي وهي تحمل شتى أصناف البضائع وتعود إليها ببضائع تلك البلاد[3] .

وذكر ابن حوقل أنه شاهد تاجراً من أهل سجلماسة لديه صك بإثنين وأربعين ألف دينار[4] . وهذا الرقم كبير جداً ، الأمر الذي يدل على ازدهار مدينة سجلماسة في تلك الفترة ازدهاراً عظيماً . ويؤكد ذلك بقوله : «فكلما أغدقت الأرض سنة عقب أخرى حصدوه إلى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير بحب صلب المكسر يزيد المطعم وفلقة ما بين القمح والشعير»[5] .

(1) الاستبصار ، ص20 ، ابن حوقل ، ص90 ، أبو الفداء ، ص37 .

(2) الحموي ، ح3 ، ص192 .

(3) ابن حوقل ، ص65 .

(4) نفسه ، ص96 .

(5) ابن حوقل ، ص90 .

كما وصف لسان الدين بن الخطيب خيراتها قائلاً : «أنها مدينة محمودة مشكورة ، كانت ذات تقويم ودار ملك قديم وبلد تبر وأديم ومنحة تجري ومكسب عديم . معدن التبر يحكمه صاحب الخلف والأمر تتعدد أنواعه نتعيي الحساب وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب»[1] .

كما وصفها المقدسي بقوله : «سجلماسة قصبة خليلة على نهر . . . وسطها حصن يسمى العسكر . . . جميلة الهواء كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات ، كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد»[2] .

كما ذكرها البكري والحموي وصاحب الاستبصار بأن قوت أهلها التمر والقمح ، فضلاً عن أكل الكلاب بعد تسمينها أسوة بأهل قفصة (وقسطيلة)[3] .

ونظراً لهذا الازدهار الاقتصادي الكبير الذي بلغته تلك المدينة وشهرتها التي عمت أرجاء كثيرة من العالم نجد أن الأندلس تعاملت بالدنانير السجلماسية التي تعرف بالدنانير العشرية وكانت مستعملة في (عهد السعيد بن الرشيد الموحدي)[4] .

وواكب الازدهار الاقتصادي ازدهار ثقافي واجتماعي وعلمي ، حيث زخرت المدينة بالعديد من المساجد العامرة بالمصلين والمآذن والمدارس وهي في غاية الجمال[5] . وكانت بهذه المساجد والمدارس صفوة من العلماء الأفذاذ الذين أدوا دوراً بارزاً في تنوير الفكر الإسلامي بشتى أنواع العلوم والمعارف ، ومن بين هؤلاء العلماء العلامة (الحسن بن قاسم) الذي قام بتدريس العلم في

---

(1) لسان الدين الخطيب ، «معيار الأخبار في ذكر المعاهد والديار» ، ترجمة محمد كمال شبان (المغرب : المعهد الجامعي للبحث العلمي 1977م) ص81 .

(2) المقدسي ، ص18 .

(3) ربما يقصد البكري بذلك قسنطينة بالجزائر .

(4) عبد العزيز بن عبد الله ، معلمة الصحراء ، ملحق 1 ص121 .

(5) لسان الدين الخطيب ، ص82 .

مدينة سجلماسة عام 676هـ/ 1277م ، وكانت المسائل الفقهية ترسل إليه من كافة أنحاء المغرب ، لما عرف عنه من تبحُّر في العلم[1] .

كما نجد من العلماء العلامة إبراهيم بن هلال بن علي الصنهاجي المشترائي ، الذي كان يشغل منصب مفتي مدينة سجلماسة في عام 903هـ/ 1497م ، والعالم (ابن الحفيد عبد الرحمن السجلماسي) ، الذي كان أحد أعلام الفكر في سجلماسة عام 789هـ/ 1387م[2] .

وكذلك المحدث ابن عطية أبو طالب القضائي المراكشي ، الذي كان يتولى قضاء سجلماسة وغرناطة عام 608هـ/ 1211م[3] .

إضافة إلى صفوة العلماء السابقين نجد (ابن السقاط الكرنكي الدقان حمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السجلماسي) ، وهو من العلماء الكبار وقد كتب عن أفراد لمتونة بمدينة مراكش ، وكانت وفاته مفجعة ، حيث مات مقتولاً بمدينة فاس عام 540هـ/ 1145م[4] .

ونختم صفوة علماء سجلماسة بالعالم (إبراهيم بن هلال السجلماسي) عالم وفقيه من العلماء الكبار ، ولد عام 817 هـ/ 1415م . درس على محمد المقري مفتي مدينة فاس وعلى ابن هلال . وكانت لديه مراسلات وصداقات مع محمد بن غازي المكناسي وعبد الله العناني ، والأخير مدحه بقصيدة عنوانها «جواهر اللآلي في استجلاب مودة ابن هلال» وقد ألّف العديد من الكتب منها : كتاب «المناسك» و«شرح البخاري» في أربعة أسفار و«مختصر خليل» وكتاب «الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير» ، إضافة إلى كل ذلك كانت له فتاوى ذات شهرة في الفقه وله ملكة في النظم والشعر ، ومؤلفاته ما زالت إلى يومنا هذا مصدراً من المصادر الهامة في الدراسات

---

(1) عبد العزيز بن عبد الله «معلمة الصحراء» ملحق 1 ، ص121 .
(2) نفسه ، ملحق 1 ، ص122 .
(3) نفسه والصفحة .
(4) أحمد بن القاضي المكناسي ص ـ أ/ 259 .

الدينية والأدبية . وقد قال قصيدة رد فيها على الزمخشري[1] . توفي العلامة إبراهيم بن هلال السجلماسي بمدينة سجلماسة عام 903هـ/ 1497م[2] .

بعد أن تحدثنا عن العلاقات الاقتصادية التي ربطت المغرب الأقصى بمالي ، يجدر بنا الحديث عن العلاقات السياسية بين البلدين التي كان لها الأثر البالغ في توطيد عرى الصداقة بين الجانبين في كافة المجالات .

العلاقات السياسية
بين المغرب الأقصى ومالي

ترجع جذور العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي إلى فترات سحيقة في التاريخ نسبة لقدم الصلات السياسية والاقتصادية بين الجانبين . ويلاحظ أن ازدهار هذه العلائق قد بلغ أوجه فيما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين) ، وبالتحديد في عهد السلطان المريني (أبي الحسن بن عثمان 732-752هـ/ 1331-1351م) في فاس ، ونظيره السلطان (منسا موسى) الذي عرفنا أنه من أعظم سلاطين مالي على الإطلاق ، وأيضاً في عهد خليفة الأخير السلطان منسا سليمان . ولعل نشأة السلطان (أبي الحسن بن عثمان) ونزعته الدينية جعلتاه يميل إلى توطيد علاقة بلاده بالسودان الغربي وغرب أفريقيا ، فالسلطان أبو الحسن ولد في قرية (بتفرديون) بالمغرب الأقصى عام 697هـ/ 1297م . من أم حبشية تدعى (العنبر) . وأمضى شبابه في كنف التعليم الديني ، مما حدا به أن يكون متمسكاً بأصول الدين الإسلامي منشئاً للخلايا والمدارس الدينية ساهراً على مواطنيه الفقراء معالجاً إياهم من مختلف الأمراض ، ناشراً فيهم الوعي الصحي[3] .

---

(1) عجبا لقوم عادلين عن الهوى ... ودعوا أولى الحق الحمير الموكفة .

(2) عبد الوهاب بن منصور ، «أعلام المغرب العربي» (الرباط : المطبعة الملكية 1979م) ح الأول ، ص142-143 .

(3) ابراهيم حركات ، ح2، ص36 .

وقد ترسخت في عهده مظاهر الثقافة العربية التي بدأت تشع على غرب أفريقيا وخارج حدود دولته ، كما شمل بعنايته وتقديره أهل السودان الغربي . وقد سبق أن أشرنا إلى المدرسين والمناهج التي دخلت من المغرب الأقصى إلى السودان وأثرت فيها تأثيراً كبيراً . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن السلطان أبا الحسن يرى في أهل السودان الغربي أنهم ليسوا أصدقاء فحسب ، بل تربطهم به صلة قرابة ونسب ودم ، علماً بأن والدته من أصل زنجي ، وهذا ليس بغريب لأن الامتزاج واضح بين هذه الشعوب . فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أسرة (العروسين) منهم من يرجع في نسبه إلى سيد (أحمد العروسي) دفين ناحية الصحارة وكان مقيماً بمراكش ، كذلك قبائل الرقيبات التي تشكل نسبة كبيرة من سكان الصحراء المجاورة للمغرب[1] .

وبالرغم من أن السلطان أبا الحسن المريني كان متعاطفاً مع جيرانه الأفارقة ، فإنه كان حازماً في فرض استتباب الأمن في ربوع دولته والذود عن حياضها . وقد تمكن بعد مقتل أخيه أبي علي صاحب سجلماسة من الزحف على تلمسان في عام 735هـ/ 1334م وانتزاعها من سطوة ابن تاشفين وابنيه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي ووليه عبد الحق بن عثمان ، الذين لاقوا حتفهم وكانت معركة تلمسان حاسمة ومشهورة[2] .

وكان لهذا الانتصار أثر كبير في دعم العلاقات بين المغرب الأقصى ومالي ، إذ بادر السلطان (منسا موسى) بإرسال وفد برئاسة (فرافقيس) من أهل مملكته وبرفقته مترجم من الطوارق الملثمين للتهنئة بالنصر المؤزر على فتح تلمسان . وحظي الوفد الذي أرسله بمقابلة السلطان أبي الحسن فاستقبله استقبالاً حاراً وأكرم وفادته وشمله بكريم رعايته ، ولكن أثناء وجود الوفد المالي في حاضرة السلطان (أبي الحسن) حملت الأخبار وفاة السلطان (منسا موسى) وتولية أخيه السلطان منسا سليمان مقاليد الأمور ، فحزن السلطان ، أبو الحسن المريني لنبأ وفاة السلطان منسا موسى . وتعبيراً عن هذا الحزن

---

(1) عباس الجراري ، «ثقافة الصحراء» (الدار البيضاء : مطبعة النجاح الجديدة 1978م) ص35 .
(2) الناصري ، ح3 ، ص124-125-126 .

ومجاملة للسلطان الجديد منسا سليمان ، أرسل وفداً هاماً من أهل المغرب الأقصى برئاسة كاتب الديوان (أبي طالب بن محمد بن أبي مدين) وبرفقته مولاه (عنبر الحفصي) وكان الوفد المغربي محملاً بهدايا ثمينة من تحف المغرب ومن خزائن دار السلطان ، وأسندت حراسة الوفد إلى عرب الفلاتة من بني معقل جرار ، وفي مقدمهم (علي بن غانم) ، ووصل الوفد المغربي إلى مالي حيث قابلهم السلطان منسا سليمان وتقبل منهم التعازي وهدايا السلطان أبي الحسن المريني وشملهم برعايته وكرم ضيافته[1] .

ودعماً لأواصر الصلات والصداقة بين البلدين ، قام السلطان منسا سليمان بإرسال سفارة من مالي مرافقة لوفد التعزية المغربي برئاسة (الحاج الونجرتي) إلى السلطان (أبي الحسن المريني)[2] ، وذلك تعبيراً عن روح الأخوة والتعاون الإسلامي وتأكيداً لدوام العلاقات الحميدة التي كانت سائدة بين البلدين أيام السلطان منسا موسى .

لقد تواصلت الاتصالات بين سلاطين مالي وملوك المغرب الأقصى بعد وفاة كل من السلطان أبي الحسن المريني والسلطان منسا سليمان ، وبالرغم من اضطراب الأحوال ، وحدوث الانقسامات والفوضى في مالي ، فإن السلطان منسا زاطة أو جاطه ، تمكن من حسم الأمور لمصلحته وانتهج سياسة أسلافه في دعم العلائق مع المغرب الأقصى . وفي هذا الصدد يرى ابن خلدون أن السلطان منسا زاطة أرسل إلى العاهل المغربي الجديد السلطان أبي سالم المريني هدية وهي عبارة عن زرافة ضخمة غريبة الشكل . وكان يوم وصول هذه الزرافة رفقة الوفد المالي في صفر 762هـ/ 1360م يوماً مشهوداً ، حيث استقبل العاهل المغربي الوفد ومعه الهدية في مكان مرتفع يعرف ببرج الذهب تحفه أعداد ضخمة من مواطنيه مهللين ومنبهرين من هذا الحيوان الغريب الذي لم يألفوه من قبل .

---

(1) ابن خلدون ، ح7 ، ص266 . الناصري ، ح3 ، ص151-152 .

(2) عبد الهادي التازي ، «الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية» (الرباط : مطبعة المعارف الجديدة 1973) ص77 .

أما وفد مالي ، فقد قابل السلطان المريني أبا سالم باحترام بالغ ، إذ وضع جميع أفراده التراب على رؤوسهم تحية للسلطان على عادة الأفارقة في تحية ملوكهم فقبل السلطان أبو سالم المريني الهدية وأكرم مثوى الوفد وأحسن ضيافته[1] .

وكان ابن خلدون من بين الحاضرين لحفل وصول وفد السلطان المالي منسا زاطة وهدية الزرافة وقد جادت قريحته بقصيدة[2] .

ولم يكن ابن خلدون الأول أو الأخير الذي قال شعراً في تلك الزرافة فنجد الشاعر الأندلسي ابن زمرك قال قصيدة تحوي وصفاً لذلك الحيوان .

لقد تمخض عن العلاقات السالفة الذكر التي ربطت بين المغرب الأقصى ومالي تأثير وتأثر بين الجانبين ويقودنا الحديث الآن إلى توضيح هذه العلائق .

تأثير المغرب الأقصى الحضاري في مملكة مالي الإسلامية

قبل أن نتحدث عن التأثير الحضاري للمغرب الأقصى في مالي ، يجدر بنا أن نتطرق إلى أول اتفاقية تآخٍ بين الأفارقة والعرب ، أي بين عرب قيس وقبيلة زناتة وهذا نصها :

«هذا ما شهد به أنجاد قيس عيلان لإخوانهم زناتة بني بربن قيس عيلان أنا أقررنا وشهدنا على أنفسنا وعلى آبائنا وأجدادنا أنكم معشر زناتة من ولد بربن قيس عيلان بن مضر بن نزار معد بن عدنان ، فأنتم ـ والحمد لله ـ إخواننا نسباً وأصلاً ترثوننا ونرثكم نجتمع في جد واحد وهو قيس عيلان ، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، لم نزل نعرف ذلك ونتوارث علم وصحته عن آبائنا ومشايخنا وأهل العلم بالتاريخ والمعرفة بالأنساب منا ، يأخذه كابر عن

(1) محمد السالك ، «فوائد من غابر الأخبار» ، ورقة 17 وابن خلدون ، ح7 ، ص300 ، وعبد الهادي التازي ، «الموجز في تاريخ العلاقات الدولية» ص77 .

(2) كان مطلعها : قدحت يد الأشواق من زند وهتف بقلبي زفرة الوجد .

كابر وعادل عن عادل ، فليعرفوا ذلك ويلزموا أنفسهم ومواليهم معرفته امتثالاً لقوله تعالى : «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام»[1] وقد قال صلى الله عليه وسلم حين خطب في حجة الوداع : «أيها الناس اتقوا الله وصلوا أرحامكم واحفظوا أنسابكم والله على ما أقول وكيل»[2] .

توضح هذه الاتفاقية المبرمة بين أنجاد قيس عيلان وزناتة بني بربن قيس عيلان أنهم مشتركون في النسب والأصل ويجتمع الاثنان في جدهم قيس عيلان وأن هذه الأخبار حول نسبهم توارثوها أباً عن جد ، وقد استدلوا على صلة الرحم بالكتاب والسنَّة ، ومن هنا ندرك أن هذه العلاقات كانت جد قديمة وليست وليدة اليوم . بل هناك من يرجع العلاقات العربية الأفريقية إلى أبعد من ذلك ، فكثير منهم يرجعونها إلى مجيء عقبة بن نافع سنة 64هـ/ 683م وموسى بن نصير 608م . ولكن من خلال استقراء الحوادث يتضح أن المد العربي كان قبل هذه الفترة بكثير ، فلو تتبعنا أنساب ملوك غانا ، وهي أولى الدول التي قامت بالسودان الغربي ، نجد أنهم عرب ، وأقرب دليل عاصمة غانا التي تعرف بكومبي صالح ، فكومبي مكان في لغة الزنج وصالح اسم عربي الأمر الذي يقودنا إلى أن العرب كانوا قبل هذه الفترة على صلة وثيقة بالسودان الغربي وخاصة المغرب الأقصى . ويمكننا أن نقسم العلاقات التي ربطت المغرب الأقصى بالسودان الغربي (مالي) إلى ثلاث مراحل . ويهمنا في هذه الدراسة مرحلتان فقط .

المرحلة الأولى : وهي التي قام فيها الدعاة داخل القبائل والمساجد ينشرون الدين الإسلامي ويعلّمون اللغة العربية ، ونتج عن هذه المرحلة أخذ العديد من السكان بالتعاليم الإسلامية والسلوك الديني .

---

(1) سورة النساء ، الآية (1) .

(2) عبد الهادي التازي ، «المغرب في خدمة التقارب الافريقي الغربي ، العلاقة بين الثقافة العربية والثقافة الافريقية» ، (تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ادارة الثقافة 1985م) ص95 .

المرحلة الثانية : وهي التي طبعت بتقوية العلاقات المغربية مع السودان الغربي ، حيث انتقل العديد من الفقهاء من علماء الحديث وبعض المهندسين المعماريين إلى مناطق السودان الغربي ونتج عن ذلك إدخال الثقافة والفنون العربية وتكوين مدرسة إسلامية - سودانية كان يغلب على مناهجها علوم الدين من فقه ونحو[1] . وكان من مظاهر تلك التأثيرات الثقافية في تلك المناطق سيادة المذهب المالكي الذي انتقل إلى السودان الغربي عن طريق العرب المغاربة .

ولعل ما يؤكد تلاحم الثقافة الأفريقية بغرب أفريقيا بالثقافة الوافدة من المغرب الأقصى ، هو تأثير الثانية في الأولى تأثيراً منقطع النظير ، فإلى جانب المذهب المالكي كان أسلوب الدراسة ووسائلها مغربي السمات ، كما تأثرت الكتابة في غرب أفريقيا بالقلم المغربي[2] . كذلك تشبهوا في زيهم وطرزهم المعمارية بالمغاربة وفي عاداتهم وتقاليدهم ولهجاتهم العامة ، ومن ثم أدى ذلك إلى ربط التعليم في غرب أفريقيا بأسلوب التعليم المغربي ومناهجه ؛ حيث انتقلت على سبيل المثال الخلوة من المغرب الأقصى إلى غرب أفريقيا وكانت نواة لتعليم القرآن الكريم للدارسين .

ويلاحظ أن الكتب التي وجدت رواجاً في غرب أفريقيا ، هي الكتب نفسها المتداولة في المغرب الأقصى . وعلى سبيل المثال لا الحصر كتب : عياض وسحنون وشرح ابن القاسم وخليل والونشريسي والمدوَّنة وموطأ الإمام مالك وكفة الحكام لإبن هشام[3] .

فكتاب الشفاء كان يدرَّس في مساجد ومدارس غرب أفريقيا ، إضافة لذلك كتاب نسيم الرياض ودلائل الخيرات للجزولي ومقدمة ابن حزم ، ثم شرح المكودي على ألفية ابن مالك ، والبسط والتعريف في علم التعريف

---

(1) محمد الغربي ، ص509-510 .

(2) القلقشندي ، ح5 ، ص298 .

(3) عبد الرحمن السعدي ، ص51 .

للمكودي ، ولامية ابن المجراد السلوي في الحمل ، والمرشد المعين لابن عاشر الفاسي .

إضافة إلى ذلك مؤلفات أحمد المقري ، والدرر اللوامع قراءة نافع لابن بريء ، وإضاءة الدجنة في قواعد أهل السنَّة للمقري[1] .

ولم يكتف أهل السودان الغربي (التكرور) بدراسة المؤلفات المغربية فحسب ، بل درسوها دراسة وافية ووضع الكثير منهم شروحاً واختصارات وهوامش وتعاليق على هذه المؤلفات ، أمثال (عبد الله محمد البوحسني) الذي شرح إضاءة الدجنة للمقري ، (الشريف محمد بن الإمام أحمد الإدريسي) الذي قام بشرح البسط والتعريف للمكودي ، و(ابن الحاج لمية التواتي الغلاوي) ونظم المقنع (لابن سعيد المرغيتي السوسي) ، وشرح أطلق عليه كشف الغمة في نفع الأمة ، ثم شرح كل من (عبد الله بن أحمد الولاتي) والقاضي (أحمد بن اندغمحمد) الآجرومية ، وهذه الشروح كانت من الكتب التي تدرَّس بالقرويين .

ومما يدلّ على التلاحم الثقافي والحضاري بين المغرب الأقصى ، والسودان الغربي وجود أساتذة من المغرب الأقصى ، كانوا يدرِّسون أهالي مالي شتى العلوم التي كان تدرَّس بالمغرب الأقصى ، وهذه الإجازة التي يشار إليها فيما بعد تؤكد دور المغرب الأقصى الفعال في مجال التعليم بالسودان الغربي ، فالفقيه (عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي) الذي ذهب إلى السودان الغربي وبالتحديد إلى مدينة تمبكتو ، قد منح إجازة ، أي شهادة ، في مجال التعليم السيد أبا بكر محمد بن محمد الشهير بآت التنبكتي في صحيح البخاري وغيره .

جاء في نصها ما يلي :

"الحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا ومولانا محمد خير خلق الله أجمعين والرضاء عن آله وأصحابه أجمعين وبعد .

---

(1) البرتلي ، ص10 .

«فيقول العبد المشفق من سوء كسبه المستغفر من ذنبه عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي ، غفر الله ذنوبه وستر عيوبه أن الفقيه المشارك الأديب الفاضل العلامة المعني الفهامة الري السنِّي الشريف الحسني السيد أبا بكر بن محمد بن محمد الشهير بآت التنبكتي الدار أدام الله توفيقه وهيأ لما يرضيه طريقه . قد سألني أن أجيزه في كتب الحديث ، كذا مثل الصحيحين وغيرهما»[1] .

من خلال هذا النص ، تميط لنا هذه الإجازة النقاب عن العديد من الجوانب المهمة في تاريخ العلاقات الثقافية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي وهي :

1 ـ اسم مانح الإجازة والديباجة التي كانت تكتب بها الإجازات .

2 ـ صفات هؤلاء العلماء الذين كانوا في تلك الفترة ، وما يتحلون به من تعمق في العلم وحسن في الأدب وتواضع جم .

3 ـ المؤلفات التي كانت تدرَّس ، مثل صحيح البخاري وغيره .

4 ـ إبراز الروابط الثقافية بين المغرب الأقصى ومالي .

هذا وقد كانت فاس قبلة للطلاب السودانيين الذين توافدوا عبر الصحراء الكبرى للنهل من ينابيع العلم ، والمعرفة خاصة أن المرينيين بداية من عهد (عمر بن يعقوب المريني) قد عملوا على توطيد مركزهم وذلك باحتلال مواقع استراتيجية مؤدية إلى غرب أفريقيا ، وفيها قصور (تاودت) و(تيكرراريه) و(تمتطيت)[2] ، مما سهَّل الحفاظ على أمن العابرين لشمال القارة وغربها . وتمخض عن الصلات الثقافية بين المغرب الأقصى وغرب أفريقيا ظهور علماء أفارقة أجلاء تفوقوا على كثير من أقرانهم في الشمال الافريقي من حيث المعرفة والعلم . وفي هذا الصدد أشار السعدي والبرتلي إلى الفقيه

---

(1) عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي ، مخطوطة إجازة علمية .
(2) عبد العزيز بنعبد الله ، «معلمة الصحراء» ، ملحق 1 ، ص154-157 .

(عبد الرحمن التميمي المكي) الذي قدم من الحجاز مع السلطان منسا موسى بعد رجوعه من الأراضي المقدسة ، فأقام بمدينة تمبكتو وعندما وجد رجالاً يفوقونه علماً ولم يستطع مجاراتهم في العلم ، ذهب إلى فاس لدراسة الفقه المالكي هناك ، وبعد تعلمه رجع إلى تمبكتو[1] .

وتجدر الإشارة إلى أن من العوامل التي ساعدت على عمق الروابط بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ، كون أغلب علماء وحكام مالي ينتمون إلى أصول عربية مغربية تجري في عروقهم الدماء الزنجية وهو ما أكده كعت حيث أورد النص الآتي :

«فاعلم أن شي واسكي محمد ومود هوكار جد أهل موركير ، وفقهاؤها كلهم من أصل واحد وجميع من يلقب بمن كميدع ومنينل وميهو وميكع وميعز وميتاص وميغي وميبور وميزع ، واسم بلدهم بروتل من كان في هذا الإقليم أصلهم من المغرب من وعكري»[2] .

كما كان هناك العديد من العائلات المغربية التي استقرت بالسودان الغربي ، نذكر منها على سبيل المثال (العائلة التواتية وعائلة القصري والياندبيوغي والفيلالي) في مدينة تمبكتو ، و(الهواري) في (دييني) و(عائلة الدليمي والكايري) انتقل جدها الأول محمد من المغرب ودرس في مدينة تمبكتو ثم تولى القضاء بها .

كما نجد من العائلات المغربية بالسودان الغربي (الزعزاني وعائلة الخضر) وهي حديثة العهد بالسودان الغربي ، فكان جدها الأول قدم من مدينة فاس ، اشتغل كاتباً خاصاً للملك منسا علي[3] .

وكان من نتائج التفاعل الثقافي والحضاري في السودان الغربي أن اللغة العربية أصبحت هي اللغة الرسمية السائدة في الدواوين الحكومية ودرست بها جلّ العلوم والمعارف .

---

(1) عبد الرحمن السعدي ، ص51-62 ، البرتلي ، ص13 .

(2) محمود كعت ، ص48 .

(3) ابن بطوطة ، 681 . أرنولد توماس ، ص241 .

وبالرغم من أن عامة الناس كانوا يتحدثون لهجاتهم المحلية ، فإنهم حرصوا على أداء شعائرهم الدينية باللغة العربية . وهذا ما أخبرنا به ابن بطوطة ، حيث قال إنه رأى بسوق مالي رجلاً ماسكاً رمحاً يترجم للأهالي كلام الخطيب[1] .

كل هذه الشواهد تدلّ على مدى تأثير العنصر العربي في السودان الغربي .

---

(1) المغربي ، ص186-190 .

الفصل الخامس

العلاقات الثقافية والاقتصادية
بين ليبيا ومملكة مالي الإسلامية

العلاقات الثقافية بين ليبيا ومالي

كان للرحالين المغاربة والمشارقة دور بارز في النهوض بالحياة الثقافية في ليبيا . فقد كانوا كثيراً ما يعقدون حلقات الدروس للطلاب الذين لم تتح لهم ظروفهم المادية والصحية السفر خارج بلادهم .

لقد اقتصر دور الفئة السابقة على الاكتفاء بمجالسة العلماء والحجاج المارين بوطنهم ، وعلى سبيل المثال العالم أبو إسحاق الأجدابي .

والجدير بالذكر أن بعض العلماء والحجاج كثيراً ما يستقرّ بهم المقام في إحدى المدن الليبية ، ومن ثم يصبحون أساتذة مقيمين ، يتتلمذ عليهم العديد من الطلاب الذين يتم تأهيلهم ليكونوا أساتذة ، فيما بعد ، يأخذون على عاتقهم مسؤولية التعليم .

أما الصنف الثاني من أبناء ليبيا ، فهم الذين أتاحت لهم أمور حياتهم السفر خارج بلادهم إلى البلدان الإسلامية ذات الإشعاع الحضاري ، سواء لغرض التجارة أو الحج . وهذا ما أكده الشماخي صاحب كتاب «السِّيَر» بقوله : «وكان المسلمون من أهل جبل نفوسة أكثر الناس حجاً وأزكاهم نهجاً ، وإنهم يحجون بالنساء والذرية ، وولد في ركب واحد ثلثمائة صبي ذكور»[1] .

[1] أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي ، «السير» ، ط حجرية (القاهرة : الطبعة البارونية 1301هـ/ 1899م) ص228 .

وهذه المعلومة تقودنا إلى عدة معطيات وهي :

خروجهم إلى الأراضي المقدسة في مجموعات وكل مجموعة تعرف بالركب ، ثم العدد الهائل الذي تحتوي عليه كل مجموعة . ويوضح ذلك أنه في ركب واحد ولد ، لهم ثلثمائة ولد ناهيك من النسوة اللاتي أنجبن إناثاً . كما أضافت المعلومة أن خروجهم للحج لا يقتصر على الرجال ، بل يشمل النساء والصبية . وبدون شك فإن وضع الركب بما يحمله من نساء وأطفال يحتم عليهم المكوث فترة طويلة في الأراضي المقدسة . ويقودهم بقاؤهم هناك إلى التزود من معين العلم ، ومن ثم يعودون إلى بلادهم وهم أكثر علماً ومعرفة .

وفي الحقيقة ، كانت الفئة الأولى أكثر الفئات في الوسط الثقافي الليبي ، فكان هؤلاء الطلاب يهرعون عند سماعهم برحالة أو عالم قدم إلى البلاد ، ليأخذوا عنه العلوم التي يحملها . بالإضافة إلى ذلك ، كان يتردد البعض منهم على المساجد والمدارس والزوايا التي كانت متركزة بالدرجة الأولى في طرابلس وجبل نفوسة ، وهي بمثابة المنارات العلمية .

ولكن ليس معنى هذا أنه لم تكن هناك مساجد ومدارس وزوايا ورباطات في باقي المناطق ، بل كانت هذه الدور منتشرة في أغلب مناطق ليبيا ، غير أنها لم تصل إلى المكانة العلمية التي كانت عليها في طرابلس وجبل نفوسة . والحركة العلمية التي شهدتها البلاد ، وخاصة في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، كانت جلها تبحث في العلوم اللغوية والأدبية التي تدور غالبيتها حول النص القرآني . وقد طغى على الشعر المناخ الديني السائد في تلك الفترة ، فأشعارهم طبعت بهذا الميسم ، ولذلك لا يبحث الشاعر في شعره عن الجمال والعاطفة ولا يناجي فيه القلب ولا يسعى وراء التعبير الفني إلا نادراً .

وكانت جلّ هذه العلوم تدرّس في المساجد والمدارس والزوايا والرباطات ، وسوف نذكر ما أسعفتنا به المصادر والمراجع من معلومات عنها .

يتصدر الرحالة التجاني 706-708هـ/ 1306-1308م[1] قائمة مصادرنا في الحديث عن الحركة العلمية في البلاد باعتباره شاهد عيان ورحالة مثقفاً ، كانت كتاباته أكثر رصانة وصدقاً من غيره من الرحالين الذين زاروا طرابلس بعده ، مثل العبدري . فقد كان التجاني خير معبِّر عن الحركة العلمية ، علماً بأن فترته قصيرة .

والتجاني عند زيارته لطرابلس استرعى نظره كثرة مساجدها ، حتى ذكرها بقوله : «مساجد البلد لا تحصى كثرة وهي تكاد تناهز الدور عدة» .

ومن أهم المساجد التي سنتعرض لها بمدينة طرابلس هي :

1 ـ مسجد الشعاب :

ذكره البكري بقوله : « . . . وبطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود»[2] .

وقال عنه التجاني أن بناءه يرجع إلى محمد بن عبد الله الشعاب ، ذلك الرجل الصالح الذي وصفه التجاني بأنه من الصلحاء والفضلاء من أهالي طرابلس ، وقد ألزم نفسه بالسكن فيه ، توفي عام 223هـ/ 837م[3] ، ومنهم من قال وفاته عام 343 هـ/ 954م[4] .

وذكر الزاوي أنه أُكمل بناؤه في أوائل المائة الثالثة للهجرة[5] .

2 ـ مسجد عمرو بن العاص :

يقع أمام باب هوارة وهو أحد أبواب مدينة طرابلس . وهناك مسجد

---

(1) أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني ، «رحلة التجاني» ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب (ليبيا ـ تونس : الدار العربية للكتاب 1981م) ص254 .

(2) البكري ، ص7 .

(3) التجاني ، ص247-248 .

(4) أتوري روسي ، «ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911» ، تعريب وتقديم ، خليفة محمد التليسي ، (بيروت : دار الثقافة 1974م) ص109 .

(5) الطاهر أحمد الزاوي ، «معجم البلدان الليبية» (طرابلس : مكتبة النور 1968م) ص313-314 .

يعـرف بنفس الاسم وهو خـارج مـدينة طرابلس . وبالتـحـديـد في مـدينة (جنزور)[1] .

3 ـ مسجد خطاب :

يقع خارج مدينة طرابلس من الجهة الشرقية على البحر ، يرجع بناؤه إلى الشيخ الصالح أبي نزار خطاب البرقي[2] .

4 ـ مسجد العشرة :

موقعه بمدينة طرابلس ، وقد عرف بذلك نظراً لأن عشرة من وجهاء البلدة ، كـانوا يجلسون فيـه للتشاور في شؤون المدينة ، قبل وقوعها تحت سيطرة الموحدين[3] .

5 ـ جامع الناقة :

هناك مسجدان يحملان الإسم نفسه في مدينة طرابلس ، أحدهما بناه الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي ، ويروى أن الخليفة الفاطمي ، وهو في طريقه إلى مصر عام 362هـ/ 972م ، مر بمدينة طرابلس ، ولما بالغ سكان المدينة في الترحيب به ، قدّم لهم هدية كانت عبارة عن ناقة محملة ذهباً ، فاستقر أمرهم على استغلال هذا الذهب في بناء مسجد أطلق عليه مسجد الناقة .

أما المسجد الثاني الذي يحمل الاسم ذاته ، فيقال إن الشيخ زروق عندما قـدم من المغرب ، في طريقه إلى الأراضي المقدسـة ، بركت ناقتـه في مكان بمدينة طرابلس ، فبنى الناس مسجداً بذلك المكان تبركاً به[4] .

---

(1) قرية تقع غرب مدينة طرابلس لا تبعد عنها كثيراً ، زارها الرحالة التجاني ومكث بها شهرين ووصفها بأنها شبيهة بمدينة تونس .

(2) التجاني ، ص248 . أحمد مختار عمر ، «النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي» ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية التربية ، (بيروت : دار الكتب 1971م) ص106 .

(3) التجاني ، ص237 . الطاهر أحمد الزاوي ، «معجم البلدان الليبية» ، ص314 . أحمد مختار عمر ، ص107 .

(4) الزاوي ص92-94 . أحمد مختار عمر ، ص107-108 .

6 ـ جامع طرابلس :

يقع في الجهة الغربية من المدينة ، وقد شيّده عبد الله بن أبي مسلم وخليل بن إسحاق عام 300هـ/ 912م ، ويتميز بمنارته الواسعة المرتفعة[1] .

7 ـ مسجد الجدة :

يقع خارج أسوار المدينة . قال عنه التجاني بأنه يشرف على المقابر ، قامت ببنائه إحدى جدات بني الأغلب الذين كانوا يحكمون المنطقة ، كما عرف بمسجد البارزي نظراً لأن أبا الحسن البارزي كان يقطنه . وفيه نزل العديد من رجال العلم والمعرفة ، مثل العالم أبي عثمان سعد بن خلفون الحساني الذي وصف بأنه رجل علم وأدب[2] .

8 ـ مسجد المجاز :

كان مأوى الفقهاء ، فقد نزل فيه أبو الحسن علي بن أحمد بن الخطيب أربعين سنة ، وكان عالماً بأمور الدين وله مؤلفات في الفقه[3] .

9 ـ مسجد أبو عبيد الله عبد الحميد الجناوني :

يقع بجبل نفوسة ، كان على درجة من الاتساع حتى قيل إنه اجتمع فيه سبعون عالماً من أكابر علماء قريته في آن واحد[4] .

10 ـ مساجد أبي مهاجر :

كما كان هناك ثلاثة مساجد لأبي مهاجر تؤدي نفس الدور في التعليم .

---

(1) التجاني ، ص253 . نجم الدين غالب الكيب «مدينة طرابلس عبر التاريخ» (ليبيا ـ تونس : الدار العربية للكتاب 1978م) ص53 .

(2) التجاني ، ص249 .

(3) نفسه ، ص251 . أتوري روسي ، ص109 . نجاح القابسي «لمحات حول الحياة الثقافية في طرابلس في العصر الوسيط الاسلامي» ، مجلة البحوث التاريخية (طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، يوليه 1980م) ع2 ، س2 ، ص215 .

(4) سليمان عبد الله الباروني النفوسي ، «كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية» (تونس : دار أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع 1986م) ، ص174 ، وأحمد مختار عمر ، ص108 .

11 ـ مسجد سعد بن يونس :

وهو في منطقة تمصحص ، بالإضافة إلى مسجد أبي محمد خصيب[1]

12 ـ الجامع العتيق :

أما في فزان فكان هناك الجامع العتيق بمنطقة الجديد ، وقد أسَّسه محمد ابن عبد الله إبراهيم الحضيري في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . وقام بالتدريس فيه أحمد بن إبراهيم الحضيري وأبو بكر بن امحمد الحضيري وحامد بن امحمد الحضيري ، وكانت دروسهم تتناول علم الفقه والميراث إلى جانب اللغة العربية وعلومها[2] .

وهذه المساجد السالفة الذكر لم يقتصر دورها على العبادات ، بل كانت تقوم بمهام أخرى لا تقل عن دور المدرسة في التعليم . فكانت تعقد فيها حلقات الدروس الدينية والعلمية . فاجتماع سبعين عالماً في مسجد أبي عبيد الله عبد الحميد الجناوني بجبل نفوسة يقودنا إلى معطيين :

أولاً : إن المسجد كان يؤدي الدور الديني إلى جانب الدور التعليمي .

ثانياً : إن الحركة العلمية في جبل نفوسة كانت على درجة من الرقي ، حتى إن قرية واحدة من قرى جبل نفوسة كان فيها سبعون عالماً من أكابر علماء القرية ، يجتمعون في مسجد واحد ، فما بالك بالأعداد الأخرى التي لم ترقَ إلى مستوى أولئك العلماء ! إنها بحق نهضة علمية تترجمها الأرقام ويتنكر لها الكثير من المؤرخين مشككين في قدرة ليبيا العلمية ، محتجين ببعدها عن مراكز الإشعاع العلمي في الوطن العربي ، كما وصفوها بجفاف حبر علمها ، وكأنهم يضعون يدهم في يدي الرحالة المغربي العبدري ، الذي زار البلاد ووصفها بالعديد من الصفات التي تنم على حقد دفين وسوء خلق .

---

(1) الشماخي ، «السير» ص599 .

(2) أحمد الدرديري الحضيري ، مخطوط مذكراته ، ورقة 14-15 . تعود إلى القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) ، مكتبة أبو بكر عثمان الحضيري .

وبما أننا بصدد الحديث عن دور العلم والعبادة ، فسنتحدث الآن عن أهم المدارس بمدينة طرابلس وجبل نفوسة .

ففي مدينة طرابلس كان هناك العديد من المدارس . وهذا ما أكده الرحالة التونسي التجاني حينما زار طرابلس ، إذ قال : وبداخل البلد مدارس كثيرة وأحسنها المدرسة المنتصرية . تم ذكر المدرسة المنتصرية التي قام ببنائها أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا[1] .

كان بناؤها بين عامي 655-658هـ[2]/ 1257-1259م[3] . وقد وصفها التجاني بقوله : «وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً وأظرفها صنعاً»[4] وهذا يدل على أن هذه المدرسة من أكبر مدارس طرابلس وأعظمها بناء وأكثرها طلاباً . فهذه المزايا طغت على ذاكرة التجاني ولم تترك مجالاً في كراسته الصغيرة ليصف دُوراً أخرى من دُور العلم بطرابلس ، رغم اعترافه في بداية حديثه بكثرة المدارس في المدينة .

يستطرد التجاني في الحديث عن المدرسة التي شدَّت انتباهه موضحاً أن المدرسة ملحقة بها حديقة جميلة يفوح عطرها خارج المدرسة[5] ، الأمر الذي يدل على تنوع الورود بها ، ووصفها الشاعر موسى بن سعيد[6] ، وذكرها الرحالة المغربي العبدري الذي مرَّ بطرابلس مرور الكرام خلال رحلته التي بدأها عام 688هـ/ 1289م ، وذكرها بعد أن تهجم على مدينة طرابلس وأهلها

---

(1) التجاني . ص252 . أحمد مختار عمر ، ص115 . عبد اللطيف البرغوتي «تاريخ ليبيا الاسلامي من الفتح الاسلامي حتى بداية العصر العثماني» (بيروت : دار صادر ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية التربية 1971م) ص491 ، ونجم الدين غالب الكيب ، ص101 .

(2) يذهب نجم الدين الكيب إلى أنها تأسست عام 558هـ/ 1162م . ص101 .

(3) إحسان عباس ، «تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري» (بنغازي : دار ليبيا للنشر والتوزيع ـ بيروت : دار صادر 1967م) ص218 .

(4) التجاني ، ص252 .

(5) نفسه والصفحة .

(6) من قوله : يا حبذا نسمة هبت لنا شقها   عب الكرى سحراً من روضة الحبق .

وقال : «ولم أرَ بها ما يروق العيون . . . سوى جامعها ومدرستها ، فإن لهما من حسن الصورة نصيباً ومن إتقان الصنعة سهماً مصيباً»[1] .

وهي المدرسة التي تحدث عنها ابن رشيد . وقد قال : «وبها مدرسة حسنة الوضع رائعة الصنع والمدينة بجملتها حسنة البناء متسعة الشوارع . . . اجتزت تلك الليلة . . . بشارعها الأكبر ، ولم أكن عرفت المدرسة ، فنفحني نسيم عاطر . . . فأقدمت على الدخول فوافيت وسطها روضة من ورد أحمر ، قد استوى على سوقه وناجى بعضه بعضاً في بسوقه»[2] .

ويعتقد الطاهر الزاوي أن هذه المدرسة هي التي قصدها ابن رشيد في حديثه .

كل ما تمَّ ذكره يدلنا على قيمة المدرسة ، وبأنها من أكبر مدارس طرابلس وأجلّها ، رغم أنهم ضنّوا علينا بمعلومات كنا نتوقعها منهم عن عدد الطلاب الذين كانوا بالمدرسة من الذكور والإناث وأسماء الأساتذة وعددهم وغير ذلك . ولكن رغم هذا كله ، فإن معلوماتهم المبتورة قد قدمت لنا شيئاً مهماً ، وهي كثرة عدد المدارس وما حظيت به من مكانة وما اتصفت به من قيمة علمية .

أما عن مدارس جبل نفوسة ، فكانت تربو على الثماني مدارس وهي :

1 ـ مدرسة عمر بن يمكن :

وتقع في قرية تعرف (ايفاطمان) من قرى جبل نفوسة وقد كان بناؤها في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، ويعتبرها الشماخي أول مدرسة في المنطقة تختص بتعليم القرآن الكريم[3] .

---

(1) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري ، «رحلة العبدري» ، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي (الرباط : 1968م) ص77 .

(2) الطاهر أحمد الزاوي «معجم البلدان الليبية» ، ص304 . أحمد مختار عمر ، ص115 .

(3) الشماخي ، «السير» ، ص142 . يحيى علي معمر ، «الأباضية في موكب التاريخ» ، (مكتبة وهبية 1964م) ج2 ، ص39-40 ، وأحمد مختار عمر ، ص16

2 ـ مدرسة أبي يحيى سليمان بن ماطوس :

وأبو يحيى هذا من أعلام النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، أطلق اسمه على المدرسة ، وقد كانت من أعظم المدارس التي عنيت بانتشار العلم في العديد من المناطق ، وتوافد عليها الطلاب من الكثير من المدن الليبية للدراسة ، لما نالته من شهرة علمية فائقة[1] .

3 ـ مدرسة أبي هارون بن يونس الجلالمي :

وهو من العلماء الأفاضل الأتقياء الذين كانوا يدرسون العلم هناك ، وهو معاصر لأبي يحيى سالف الذكر . وكان بهذه المدرسة قسم داخلي يأوي إليه الطلاب القاطنون بعيداً عنها . وقد تكفل بالصرف على المدرسة أبو هارون الذي عُرف بالصلاح وحبه للفقراء وأبناء السبيل[2] .

4 ـ مدرسة أبي يحيى زكريا بن إبراهيم الباروني :

شيَّدها أبو يحيى واتخذت من إسمه علماً لها ، وقد وصفت بأنها كبيرة وبها قسم داخلي ووصل تعداد طلابها إلى ما بين خمسين ومائة طالب . وكان أبو يحيى رجلاً ثرياً وظَّف جزءاً من ماله للإنفاق على قسمها الداخلي[3] .

5 ـ مدرسة أبي المنيب محمد بن يانس :

وهو من العلماء الذين لهم باع في العلم من أبناء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) . شيَّد هذه المدرسة وسبعة مساجد ، وكان يتبع هذه المدارس العديد من الفروع المختلفة في القرى والمدن بجبل نفوسة[4] .

(1) يحيى علي معمر ، ج2 ، ص157-158-255 .
(2) مقرين النفوسي ، «سيرة نفوسة» ، ورقة 16-20 .
(3) يحيى علي معمر ، ح2 ، ص197-198 .
(4) الشماخي ، «السير» ص580 . أحمد مختار عمر ، ص16 .

6 ـ مدرسة أمسين[1] :

وهي متخصصة في تدريس الفتيات فقط ، وبها قسم داخلي تنزل به الفتيات اللائي يسكنَّ بعيداً عن المدرسة[2] .

7 ـ مدرسة أبي محمد خصيب بن إبراهيم :

وهي تجمع في فصولها الذكور والإناث . وقد درست فيها أم ماطوس[3] أحد أعلام الجبل .

8 ـ مدرسة أبي عثمان سعد بن أبي يونس الطمزيني :

استمر إشعاعها العلمي حتى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بجبل نفوسة[4] .

9 ـ مدرسة عامر بن علي الشماخي :

تأسست في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) على يدي عامر الشماخي . فبعد أن أكمل دراسته في مساجد ومدارس العلم ببلاده ، رجع إلى جبل نفوسة حيث أسس المدرسة ورتَّبها ودرَّس بها ، ثم كلف زملاءه من أهل العلم وطلابه الكبار بالتدريس فيها[5] . وهذه المدرسة لا تزال موجودة إلى الآن ، وقد زارها الباحث .

كانت هذه المدارس المشار إليها سالفاً تؤدي دوراً جليلاً في سبيل النهوض بليبيا علمياً وكان الرجال القائمون على تمويلها والتدريس بها لم يألوا جهداً في تسخير جل إمكاناتهم في سبيل توفير المناخ الدراسي لتعليم الطلاب

---

(1) هذا الاسم ربما هو اسم امرأة اشتهرت بالجبل الغربي بعلمها وعقلها الراجح فأطلق عليها اسم المدرسة أو كانت غنية وبنت هذه المدرسة فحملت اسمها . والاحتمال الأخير هو الأقرب إلى الصحة .

(2) يحيى علي معمر ، ح3 ، ص85 .

(3) مقرين بن محمد البغطوري ، ورقة 56 . أحمد مختار عمر ، ص117 .

(4) الشماخي ، «السير» ص170 . يحيى علي معمر ، ح3 ، ص64-65 .

(5) عامر بن علي الشماخي ، «كتاب الايضاح» (بيروت : مطبعة الوطن 1970م) ح1 ، ص9 .

والطالبات . فقد ألحقوا بجلّ هذه المدارس أقساماً داخلية يأوي إليها الطلاب والطالبات الذين لم تكن تمكنهم ظروفهم من العودة إلى ذويهم بعد انقضاء اليوم الدراسي .

وكانت هذه المدارس تدرِّس العديد من صنوف العلوم وخاصة علوم الدين واللغة العربية . إضافة لذلك كان بمدينة (سروس) خزانة تضم الآلاف المؤلفة من الكتب تُعرف بخزانة جبل نفوسة[1] ، وكانت هذه الخزانة تغذي المدارس بالكتب ومركزاً يلتقي فيه أرباب العلم ؛ ومن ثم فقد أسهمت هذه الخزانة جنباً لجنب مع دور العلم السابقة في بناء العديد من الكوادر العلمية المؤهلة ، التي قامت بدورها على أحسن وجه ليس على الصعيد الداخلي فحسب ، بل إن العديد منهم اجتازوا الصحراء الكبرى ووصلوا إلى مناطق في السودان الغربي ، مثل تمبكتو وجاو وغيرهما ، يؤلفون الكتب ويدرسون العلم . إنهم كانوا بحق رسل حضارة ، ولو أن التاريخ لم يكشف لنا إلا عن القليل منهم .

نذكر علمين منهم على سبيل المثال لا الحصر ، لكل حقبة زمنية .

أعلام القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) :

1 ـ أبو محمد بن عبد الحميد بن أبي الدنيا ، من أهل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) . ولد بمدينة طرابلس عام 1209م من أسرة عريقة ، تلقى تعليمه الأول بمساجد ومدارس طرابلس[2] .

---

(1) سليمان عبد الله الباروني النفوسي ، ص209 .

(2) أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي ، «المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب» (طرابلس : دار مكتبة الفرجاني ، بدون تاريخ) ص163-164 . أبو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون الطرابلسي ، «التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار» ، صحّحه وعلق عليه الطاهر أحمد الزاوي ط : 2 (طرابلس : دار مكتبة الفكر 1972م) ص227 . محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج ،« الحلل السندسية في الأخبار التونسية» ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة (بيروت : دار الغرب الاسلامي 1985م) ح2 ، ص154 . علي مصطفى المصراتي ، «أعلام من طرابلس» ، ط : 2 (طرابلس : دار مكتبة الفكر 1972م) ص88-91 .

حفظ القرآن الكريم ودرس الحديث والفقه . وبعد أن أخذ قسطاً لا بأس به من العلم في بلاده ، تطلعت عبقريته للمزيد من ينابيع العلم ، فرحل إلى الأزهر بمصر لينهل من علمه ، ثم شدّ الرحال إلى الأراضي المقدسة للحج ، ودرس العلم هناك . وبعد فترة من الزمن قفل راجعاً إلى مصر حيث الأزهر منارة العلم هناك ، فتتلمذ على أشهر علمائه ، مثلاً العلامة الصفراوي[1] . فكان يميل إلى دراسة علم التصوف والحديث وأصول الفقه والأدب الصوفي[2] ، فدرس هذه العلوم وغيرها ، واشتهر بين أقرانه برجاحة العقل والاستنباط ، فكان يلجأ إلى التفكير المنهجي السليم . وقد انبثقت عبقريته وذاع صيته ، فبدأ مرحلة التأليف وألّف كتاباً سماه «مذكرة الفؤاد في الحض على الجهاد» ، كما ألّف رسالة سماها «حل الالتباس في الرد على نفاة القياس» .

وبعد هذه الرحلة الممتعة بين العلم والعلماء والتأليف بالأزهر ، رحل (ابن أبي الدنيا) إلى تونس لكي يلتقي هناك بالعلماء ويناظرهم وينشر علمه بينهم . وكان مجيئه إلى تونس في فترة حكم الأمير (أبي زكريا بن أبي حفص) فمكث مدة هناك ، ثم عاد إلى وطنه الأصلي طرابلس ، وبدأ بتعليم أبناء جلدته العلوم التي تلقاها خلال دراسته في طرابلس والأزهر والحجاز وتونس . وما هي إلا فترة قصيرة حتى استدعاه الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بعد أن بلغ أسماعه تبحُّره في العلم ، وأسند إليه منصب القضاء والأنكحة والخطابة ، وكان عمره إحدى وسبعين سنة بعد أن عزل الفقيه (أحمد بن حسن الغماري) عن القضاء في شهر رجب من سنة 679هـ/ 1280م[3] .

---

(1) أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي ، ص163-164 وأبو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون الطرابلسي ، ص227 ، علي مصطفى المصراتي «أعلام من طرابلس» (طرابلس : دار الفكر ، 1972م) ص85-86-87 .

(2) طرق السلامة والفلاح قناعة ولزوم بيت بالتوحش مؤنس . التجاني ، ص273 . أحمد مختار عمر ، ص240 .

(3) أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي ص163-164 . ابن غلبون ، ص227 ، محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج ، ح2 ، ص154 . علي مصطفى المصراتي «أعلام من طرابلس» ص-91 88-89-90 .

وبعد هذا العمر الطويل الذي ناهز الثماني والسبعين سنة من العلم ، توفي ابن أبي الدنيا في سادس ربيع الأول سنة أربع وثمانين وستمائة / 1285 684م ، بتونس ودفن بمقبرة الزلاج[1] .

2 ـ أبو موسى عيسى بن عيسى الطراميسي ، حمل اسم القرية التي ولد بها ، وهي إحدى قرى جبل نفوسة . تتلمذ على الشيخ يحيى بن وحديش واشتهر بالورع والعلم واشتغل بالتدريس وأنشأ مدرسة بين جادو وطرميسة لتدريس العلم فأخذ العلم ، كل وقته حتى إنه لم يتزوج طيلة حياته .

رحل أبو موسى إلى الحج عام 704هـ/ 1304م ، وبعد رجوعه من الحج نذر حياته لمجال التدريس ، فدرَّس بمدرسة أبي زيد المزغورتي ، ومن ثم وقف حياته على خدمة العلم ، وقبل وفاته حبس كل كتبه على طلبة جبل نفوسة وفقهائها . وقد اختلف في تاريخ وفاته بين 720هـ و722هـ ، ولكن الأقرب إلى الواقع ما ذهب إليه الشماخي في «السِّيَر» من أن وفاته كانت عام 722هـ/ 1322م[2] .

أما عن أعلام القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، فنجد من بينهم :

1 ـ يوسف بن علي الجعراني المسلاتي ، وهو من الذين اشتهروا في علوم اللسان . ألّف العديد من التآليف ، نذكر منها : «القرطبية» و«شرح الآجرومية» . ولم نعثر على تاريخ وفاته ، وقبره موجود بمدينة مسلاته[3] .

2 ـ أبو ساكن عامر الشماخي ، عاش في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) . كانت دراسته الأولى بمدرسة (الخانحة) ثم درس بعد ذلك في مدرسة الطرميس وبعد حصوله على إجازة في العلم

---

(1) محمد بن محمد الأندلسي ، ح2 ، ص158 . ابن غلبون ، ص288 . أحمد بك النائب الأنصاري ، ص163 .

(2) الشماخي ، «السير» ، ص522-553 . علي يحيى معمر ، ح2 ، ص102-105 .

(3) عبد اللطيف البرغوتي ، ص504 .

أنشأ مدرسة حملت إسمه ، درَّس بها ثم انتقل إلى مدرسة أبي زيد المزغورتي ، ومنها إلى رميتيون بمنطقة الرحيبات حيث بقي ثلاث عشرة سنة يدرِّس صنوف العلم ، ثم رجع بعدها إلى مدرسته بيفرن ومكث بها يدرِّس . وقد تتلمذ عليه العديد من رجال العلم ، وأخذ عنه صاحب كتاب «السِّير»[1] .

أما عن أعلام القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، فإن الباحث سيركز على الأعلام الذين أدوا دوراً في جنوب الصحراء .

التأثير الليبي في جنوب الصحراء

لو تتّبعنا التأثير الليبي في جنوب الصحراء ، فإننا نجده موغلاً في القدم ، فقد أمدتنا المصادر بأن هناك العديد من القبائل الليبية انتقلت من ليبيا إلى منطقة جنوب الصحراء منذ فترة طويلة ، وقد عملت على نشر الإسلام في ربوع تلك المناطق ، وقد ازدادت هيبتها في أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وبالتحديد في فترة منسا علي 1464-1493م . فقد اقتسمت القبائل الخمس فيما بينها بعض المناطق ، فأخذت كل قبيلة ثلاثاً منها ، وبالتالي هيمنت على المنطقة ، وكان لكل قبيلة منها رئيس يسيِّر شؤونها[2] .

كما نجد من بين الأسر التي نزحت منذ أمد طويل إلى منطقة السودان الغربي أسرة (ضياء) التي رحلت من طرابلس الغرب إلى المنطقة[3] ، وربما كان وصولها إليها قبل فترة دولة غانا أو في أثنائها ، لأنه كان لأبنائها مكانة رفيعة لدى قبائل سنغي .

والجدير بالذكر أن هذه الأسرة أخذت على عاتقها نشر الإسلام في تلك الربوع . وقد أثرت بشكل أو بآخر في المنطقة حتى إنه كان من أبنائها قيادات

---

(1) الشماخي ، «السير» ، ص566-567-569 . علي يحيى معمر ، ح2 ، ص112-113 . عبد اللطيف البرغوثي ، ص505 .

(2) الحسن الوزان ، ح2 ، ص162 .

(3) نعيم قداح ، ص67 .

أسسوا أمبراطورية مترامية الأطراف أمثال منسا علي مؤسس أمبراطورية سنغي التي قادها إلى المجد .

وتأكيداً على التأثير الليبي في المنطقة ، فإن قبيلة أولاد سليمان التي هي فرع من قبائل البرابيش ، المتمركزة في كل من سرت وفزان ، كانت قد انتقلت من ليبيا إلى جنوب الصحراء ، إما لغرض السيطرة الاقتصادية أو لنشر الدين الإسلامي أو كلاهما معاً . وقد كان لهذه القبائل وما زال ثقل سياسي في منطقة جنوب الصحراء يحسب حسابه فكانوا كثيراً ما يقومون بتأديب القبائل الخارجة على طاعتهم ، مثل الرقيبات[1] . كما نجد من القبائل الليبية المتوطنة هناك قبيلة أولاد غنام وهم ضمن البرابيش ، كذلك من القبائل الليبية قبيلة أولاد يعقوب المنتشرين في شمال مالي وموريتانيا[2] .

إضافة إلى ذلك قبيلة أفوغاس المتوطنة هناك الموجودة إلى الآن في مدينة غدامس[3] ، وقبيلة المحافيظ وكل السوق التي يعود نسبها إلى برقة بليبيا[4] . وقبيلة كلنتصر وغيرها من القبائل[5] .

إن الوجود الليبي في تلك المناطق كان واضحاً وجلياً ، فما شجرات النسب للأسر الليبية التي كانت متوطنة هناك ، مثل عائلات البليلي والغدامسي والجحري ، إلا دليل واضح على تسرُّب المدّ الليبي إلى تلك المناطق .

كما نجد من بين الأعلام الليبيين الذين كانت لهم علاقات ومراسلات مع السودان الغربي أفلح بن عبد الوهاب ، الذي كان من أعلام جبل نفوسة

---

(1) تاريخ أزواد ، ورقة 2-3 .
(2) محمد سعيد القشاط ، «جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى» ، (طرابلس : مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء 1988م) ص57 .
(3) محمد سعيد القشاط «التوارق عرب الصحراء» ط : 2 (طرابلس : مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء ، مطابع أديتار 1989م) ص23-24 .
(4) محمد سعيد القشاط ، «جهاد الليبيين» ص59 . و«التوارق عرب الصحراء» ، ص24 .
(5) محمد سعيد القشاط ، «جهاد الليبيين» ، ص58 .

وحاكمها ، علا نجمه بين أقرانه حتى أصبح محل استشارة لدى أهل نفوسة ، لما تميز به من علم وأخلاق حميدة ، جعلاه محل ثقة لديهم .

لقد ارتفع شأن مُلكه وبنى القصور الفخمة وجعل أبوابها من الحديد وبنى الجفاف ، وكان بيته بيت كرم ومأوى الفقراء والمساكين . وقد حدث في عهده رخاء اقتصادي ملحوظ ، ومن ثم اشتهر خارج بلاده ، وتقاطرت عليه الوفود من كل الأمصار ، كما قدم عليه التجار من العديد من البلدان حتى كان للعجم مقدم يقال له (ابن وردة) كان له سوق خاصة به تعرف بسوق ابن وردة مبجلة من الأمير أفلح ، فكان صاحب الشرطة لا يدخله للتفتيش[1] .

وارتبط أفلح بعلاقة حميمة مع أغلب ملوك جيرانه وخاصة ملكي (صوصو) (وكوكو) بالسودان الغربي . وكانت بينه وبينهم وفود تأييد وصداقة ، فقد أرسل أفلح (ابن عرفة) رسولاً له إلى ملك (صوصو) محملاً بهدية تعبيراً عن المودة والأخاء ، وقد أعجب ملك صوصو بفروسية وجمال (ابن عرفة) . وقد ركب ابن عرفة على الخيل أمام ملك صوصو بطريقة لم يألفها ذلك الملك ، فقال له ملك صوصو باللغة المحلية : أنت حسن الوجه حسن الهيئة والأفعال[2] .

وهذه الوفود توضح ما كانت عليه العلاقات الليبية الأفريقية (السودان الغربي) من حب ووئام .

أما عن حياة أفلح العلمية ، فإنه كان على درجة من العلم . فقد برع في عدة علوم ، منها علم الرياضيات والتنجيم ، وله عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة تحتوي على الحكمة والنصائح والوعظ . وقد ذكره الباروني بقوله : «وله . . . عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة جامعة لنصائح ومواعظ وحكم دلت على ما له في الفضل والكمال والعدل من طول الباع وفي غزارة العلم وقوة الإدراك من الاتساع»[3] .

---

(1) الباروني ، ص182 .

(2) نفسه ، ص184-223 .

(3) نفسه ، ص187 .

وكان على درجة من علم البلاغة ، فرسالته التي هي ضمن العديد من الرسائل التي نحن بصددها ، التي بعثها إلى البشير بن محمد ، توضح قوة الأسلوب وبلاغته . فقد قال فيها : «ألبسك الله عافيته . . . وفكر في صغير خلقتك . . . وأذكرك ما أعده الله لابن آدم من الكرامة التي تكل الألسن عن وصفها»[1] .

كما اشتهر الأمير أفلح بالأدب ، وله قصيدة طويلة بلغت ثمانية وثمانين بيتاً ، تجمع بين الحكمة والنصيحة وترغب في طلب العلم ، وهي تبدأ بالبسملة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

لقد تربى أفلح في بيت علم ، وكان والده كثيراً ما يختبر علمه . وذات مرة كان أفلح يتأهب للخروج إلى مدينة (صوصو) لغرض التجارة ، وعندما خرج براحلته وقف له والده عند باب المدينة ، وأخذ يسأله ويناقشه في مسائل الربا والبيع والشراء إلى أن غفل في مسألة فأخطأ في إجابته فأمره والده بالرجوع عما هو قاصد إليه وقال له : «إرجع يا أفلح عما قصدته حتى تستعد لهذا الأمر ، وإلا أطعمتنا الحرام من حيث لا تدري» ، فرجع امتثالاً لأمر والده[3] .

وهذا يدل على أن هذا البيت بيت علم وصلاح ، كما يتبين من هذا الخبر أن جبل نفوسة كان على علاقات تجارية بمنطقة السودان الغربي .

مكث الأمير أفلح يحكم جبل نفوسة خمسين سنة من العمل الدؤوب إلى أن وافته المنية .

وقد كان جبل نفوسة إحدى نقاط عبور حجاج التكرور ، والدليل على ذلك أن الشيخ أبا عمرو أحد حكام جبل نفوسة قد قام باستضافة الحجاج القادمين إليه من بلاد التكرور ، وتزويدهم بما يحتاجون إليه لمواصلة سفرهم ،

---

(1) نفسه والصفحة .

(2) مطلعها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا ... وليلهم بشموس العلم قد نارا

يحيى به ذكرهم طول الزمان وقد ... يريك أشخاصهم روحاً وابكاراً

(3) الباروني ، ص195 .

وامتناعه عن أخذ أي مقابل عن ذلك رغم تقديمهم له مبلغ أربعمائة دينار ، وهذا يدل دلالة واضحة على عمق الصلات بين ليبيا والسودان الغربي[1] .

كما نجد من الأعلام الليبيين الذين ظهروا بمدينة (جناون) بجبل نفوسة (أبو عبيدة الجناوني) الذي كان يتحدث عدة لغات ، من بينها اللغة الكانمية ، تعكس الدرجة الممتازة التي بلغتها الاتصالات بين شمال الصحراء وجنوبها[2] .

كما نجد من بين الأعلام الليبيين الذين أدوا دوراً علمياً بارزاً في المنطقة في القرن الثاني عشر الميلادي ، وبالتحديد في عام 575هـ/ 1179م الشيخ أبا الحسن علي بن يخلف النفوسي ، الذي يرجع أصله إلى جبل نفوسة ، وذهب إلى تلك المناطق للتجارة ونشر الإسلام والعلم هناك وقد عرف بين السكان بطيبة خلقه وحسن معاملته وبالأمانة والعلم الغزير . وقد سمع بتقواه وصلاحه سلطان مالي وهي مقاطعة ضمن نطاق دولة غانا الوثنية في تلك الفترة ، فأحضره إليه ، واختبره وأسلم على يديه هو ورعيته ، ومن ثم استخلفه لنفسه وأصبح يشاوره في كل أموره وقد بلغ عند السلطان المالي منزلة لم يبلغها حتى وزراؤه . ومن هنا بدأ الإسلام يسري بين الرعية وتجاوز مقاطعة مالي إلى المناطق الأخرى فاستضاءت المنطقة بذلك المشعل بالنور والهداية[3] .

ومن الأعلام الليبيين الذين أدوا دوراً بارزاً في نشر الإسلام والثقافة العربية في السودان الغربي أبو يحيى الفرسطائي من أعلام القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، والذي ارتحل من جبل نفوسة إلى بلاد السودان الغربي ، حيث التقى بأحد ملوكها الذي اعتقد أنه أحد ملوك غانا الوثنية ، والذي أسلم على يديه بعد أن ناقشه كثيراً في أمور الدين الإسلامي الحنيف[4] .

---

(1) مقرين النفوسي ، ورقة 74 ، والباروني ص172 .

(2) الباروني ، ص172 .

(3) علي يحيى معمر 3/128-129 والحبيب الجنحاني ، «كتاب طبقات المشائخ لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني» ، القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، حوليات الجامعة التونسية ، (تونس : كلية الآداب والعلوم الانسانية 1977م) ع15 ، ص164 .

(4) مقرين بن محمد البغطوري ، ورقة 52 .
الشماخي ، «السير» ، ص456-457 .

كما نجد من الأعلام الليبيين الذين أدوا دوراً في المنطقة المهندس عبد الله الكومي الموحدي الغدامسي ، الذي ذاع صيته في فن المعمار ، فعند رجوع ملك مالي منسا موسى من الحج مرَّ بمدينة غدامس حيث اصطحب معه المهندس عبد الله الكومي الموحدي الغدامسي ، الذي كان مقيماً بمدينة غدامس . فذهب إلى مالي[1] وشارك في بناء مسجد منسا موسى بمدينة تمبكتو مع المهندس أبي إسحاق الساحلي ، كما شارك في بناء العديد من المساجد حيث أضفى عليها لمسات معمارية أندلسية . وقبره موجود إلى اليوم بمدينة تمبكتو .

كما نجد من أعلام القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) الشيخ أحمد زروق[2] ، وهو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الشهاب البرنسي المغربي الفاسي ، عُرف بالزروق . كان مولده يوم الخميس الثامن عشر من المحرم سنة ست وأربعين وثمانمائة[3] .

عاش زروق يتيماً فقد توفيت أمه يوم الثلاثاء لثالث يوم من ولادته ،

---

(1) ابن خلدون ، ح6 ، ص301 .

(2) ذكره علي فهمي خشيم أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق علي فهمي خشيم ، «أحمد زروق والزروقية» ، (طرابلس : المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والاعلان 1980م) ص21 .

وذكره أحمد بابا بأنه أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق . أحمد بابا ، «نيل الابتهاج» ص84 . أحمد بك النائب الأنصاري ، ص156 ، وورد أنه أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي . ابن غلبون ، ص22 ، عبد اللطيف البرغوتي ، ص505 .

كما ذكره عبد الله كنون ، الشيخ أحمد زروق دفين مصراته ، عبد الله كنون ، مجلة كلية الآداب (بنغازي : الجامعة الليبية 1968م) ع2 ، ص129

محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني ، دوحة الناشر (الرباط : دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر 1976م) ص48 .

(3) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» ، (بيروت : دار مكتبة الحياة ، بدون تاريخ) ح1 ، ص222 .

وتوفي أبوه خامس يوم من الأسبوع نفسه ، وعمه في نفس المدة ، فكفلته جدته أم البنين التي كانت على درجة من الورع[1] .

إلى أن وصل عمره عشر سنوات حفظ القرآن الكريم وتعلم الخرز . وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره أخذ يطلب العلم ، فقرأ على العديد من المشايخ ، فدرس الرسالة على الشيخين علي السطي وعبد الله الفخار ، ودرس الرسالة القدسية وعقائد الإمام الطوسي على شيخه عبد الرحمن المجدولي ، كما أخذ بعض التنوير على الغوري ، كما سمع عن البخاري ، وتبحر في كل أحكام (عبد الحق الصغير) وجامع الترمذي . كما درس على عبد الرحمن الثعالبي وإبراهيم التازي والمشدالي والشيخ حلولو والسراج الصغير والرصاع وأحمد بن سعيد الحباك والحافظ العنسي والإمام السنوسي وابن زكريا وأبي مهدي عيسى المواسي . كما درس بالمشرق عند رحلته للقاهرة على السخاوي «بلوغ المرام» والنور السنهوري وأبي العباس وأحمد بن عقبة الحضرمي والشهاب الأفشيطي[2] .

ومن سيرة حياته نعرف أنه تأثر بـ «أبي عبد الله محمد الزيتوني»[3]

---

(1) أحمد بابا ، «نيل الابتهاج» ، ص84 .
أحمد بك النائب الأنصاري ، ص194 .
عبد الله كنون ، ص130 ، أحمد مختار عمر ، ص157 .
وأحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي ، «شرح العطائية لقدوة السالكين» ، حققه وضبطه أحمد زكي عطية ، منشورات الجامعة الليبية كلية الآداب (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1971م) ص4 .

(2) أحمد بابا ، «نيل الابتهاج» ص84-85 ، السخاوي ، ج1 ، ص222-223 ، أحمد بك النائب الانصاري ، ص194 .

(3) يورد صاحب الدوحة رواية عن خروج الزروق من المغرب مفادها أن الشيخ زروق بلغ منه حب الزيتوني مبلغاً عظيماً ووصل نبأ الحب إلى شيخه الزيتوني فأراد أن يمتحن حبه له ، فذات يوم دخل الزروق على شيخه فوجد عنده امرأتين متزينتين واحدة عن يمينه والأخرى عن شماله وشاهد الشيخ الزيتوني يقبل التي عن يمينه ويلتفت ويقبل التي عن شماله فأثر الموقف في نفس الزروق من شيخه فرجع . فناداه الزيتوني وقال له : ارجع يا كاذب فعندما رجع لم يجد ما شاهده ، فعلم أنه امتحان من شيخه . وقال له الزيتوني أما المرأة التي عن يميني فهي الآخرة أما التي عن شمالي فهي الدنيا وقال له انك كاذب في حبك لي وعليه لا تبقى في المغرب ساعة واحدة فاخرج وخرج الزروق إلى المشرق . «دوحة الناشر» ص48-49 . أما علي فهمي فيقول ان سبب خروج زروق من المغرب أن شيخه قال له سراً وادعى الأول أن الثاني أفشى السر فطرده . علي فهمي خشيم ، ص33 .

وصحبه في بداية شبابه ، وفي تلك القصة حسبما أرى شطحات خيالية تحاول التقليل من قدر الزروق ، لتثبت أركان التدجيل الذي كان الزروق يقف ضده . فقصة رحلاته للمشرق لا يكون وراءها محرك إلا محرك طلب العلم بمجالسة العلماء والأخذ عنهم .

ووصف العديد من المؤرخين شمائله ، منهم أحمد بابا الذي قال عنه بأنه «الإمام العالم الفقيه المحدث الصوفي الولي الصالح الزاهد القطب الغوث العارف بالله الحاج الرحالة المشهور شرقاً وغرباً ذو التصانيف العديدة والمناقب الحميدة والفوائد العديدة»[1] .

أما عن مؤلفاته ، فقبل أن نتحدث عنها ننوه بأسلوبه وطريقته في الكتابة ، فقد كان يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير وجله فوائد صحيحة وتحقيقات مفيدة وخاصة في التصوف ، فقد انفرد بمعرفته وجودة التأليف فيه[2] . وأطلق عليه «محتسب العلماء والأولياء»[3] ، كما وصف بأنه ذو حس مرهف وتذوُّق لكلام الناس وكان كثيراً ما يبتعد عن الحشو في كتاباته ، ويهتم بالجوهر دون الاعراض . كما أنه كان دائماً متحفظاً في مجال قوله وعمله ، فكان يصل إلى الحقيقة عن طريق المعرفة واليقين .

كما كان زروق يحكِّم الشرع في كتاباته وأحكامه الظاهرة والباطنة . فكان يعارض البدع التي كانت منتشرة في المنطقة ، ويحاول إزالتها ومن ثم جعل له ذلك أعداء صوروا لنا بأنه خرج من فاس طريداً .

رحلاته :

جاءت جلّ الكتابات التي تتحدث عن رحلاته التي اطلعت عليها موضحة رحلاته للمشرق والمغرب وتوطنه بليبيا . ففي المشرق كانت مصر والحجاز من الدول التي تحدثت عنها الرحلة . أما الرحلة المغربية ، فتشمل

---

(1) أحمد بابا ، «نيل الابتهاج» ، ص84 .

(2) نفسه ، ص85 .

(3) عبد الله كنون ، ص136 .

الجزائر وتونس وليبيا . كما جاءت بعض الإشارات التاريخية غامضة . فقد نقل عن أحمد بابا حول رحلات الزروق بأنه طاف شرق الأرض وغربها في طلب العلم .

استقينا بعض معلوماتنا عن رحلاته إلى المشرق من أستاذه السخاوي ، حيث أوضح أن موطنه الأصلي كان مدينة فاس ، ثم خرج منها إلى مصر ، ثم إلى الأراضي المقدسة لغرض الحج . ورجع بعدها للقاهرة ، ومكث فيها حوالى سنة تتلمذ فيها على العديد من رجال العلم[1] .

وأما علي فهمي خشيم ، فإنه يصل بنا إلى رحلات الزروق موضحاً أن زيارتيه الأولى والثانية لمصر إنما كانتا منصبتين على تلقي العلم ومواصلة الدروس .

أما زيارته الثالثة لمصر فكانت عام 884هـ/ 1479م والرابعة عام 885هـ/ 1489م . فتركز اهتمامه على تدريس العلم الذي تلقاه في السابق[2] ، وحظي الزروق بمكانة مرموقة لدى أهالي مصر ، ووجد كل ترحيب . وقد ذكر أستاذه السخاوي بأن له مريدين ومحبين . وأشار عبد الله كنون أن عدد طلاب دروسه بالأزهر قد وصل إلى ستة آلاف طالب . وكان له كرسي بالأزهر[3] .

وبصرف النظر عن مدى صحة هذا الرقم ، فإنه يوضح المكانة العلمية التي كان عليها الزروق .

أما رحلاته للجزائر ، فكانت بعد رحلته الثالثة وبالتحديد لمدينة (بجاية) . ويبدو أن رحلته هذه لم تكن الأولى للجزائر ، بل سبقتها رحلات قبل هذا التاريخ عندما كان مبعوثاً (لأحمد الحضرمي) وقد عاد للجزائر للمرة الثانية والثالثة .

وأما مكوثه في ليبيا فكان منذ عام 886هـ/ 1481م .

---

(1) السخاوي ، ج1 ، ص222-223 .

(2) علي فهمي خشيم ، ص152 .

(3) السخاوي ، ج1 ، ص222-223 ، عبد الله كنون ، ص142 .

ونضيف إلى رحلاته المتعددة الشيء الجديد الذي طالما غاب عن أنظار من تناولوا أحمد زروق . فقد عثر الباحث على إجازة علمية بمدينة تمبكتو يذكر فيها الشيخ أحمد زروق ، وهي تبدأ بالبسملة ثم الثناء والحمد إذ تقول : «الحمد لله على ما ألهمني لذكره تزداد نعمه بشكره . . . أما بعد فهذه طريقة أشياخ شيخنا السيد عبد القادر بن عبد الوهاب عن شيخه . . . أحمد زروق البرنوسي الفاسي دفين مسراته» .

فهذه الاجازة تدعم ما ذهبت إليه الرواية الشفوية الصحراوية ، التي تذكر بأن الشيخ أحمد زروق من العلماء الذين ارتحلوا إلى مدينة تمبكتو ، ودرسوا بمساجد وجامعة سنكري .

والباحث لا يستبعد ذلك بدليل :

1 ـ الإجازة العلمية التي تذكر أحمد زروق ، والتي عثر عليها الباحث في مدينة تمبكتو في صيف عام 1985م .

2 ـ أن جنوب الصحراء في تلك الفترة متمثلاً في مدينة تمبكتو وجامعة سنكري ، يعتبر مركزاً علمياً لا يقل قيمة عن الأزهر وجامع الزيتونة وجامعة القرويين ، ومن ثم فإن حب أحمد زروق لشدِّ الرحال لطلب العلم والتعليم ليس بغريب ، فهو الذي ارتحل إلى القاهرة عدة مرات وإلى الأراضي المقدسة ناهيك من تونس والجزائر ، فالأحرى به أن يرتحل إلى تمبكتو باعتبارها مركز إشعاع حضاري أقرب مسافة من غيرها .

3 ـ عند اطلاعي على أرشيف المخطوطات بمركز أحمد بابا التنبكتي ، عثرت على الكثير من المؤلفات تحمل اسم أحمد زروق التنبكتي . وعندما سألت عن تعدد هذا الاسم اتضح للباحث أن من يرزق إبناً من أهالي تمبكتو ويريد أن يكون صالحاً ، فإنه يطلق عليه اسم أحمد زروق ، تبركاً به .

أما عن مؤلفاته ، فإنه ليس بالأمر الهيِّن تناولها ، بل إنها تحتاج إلى دراسة بذاتها . ولكن ما يهمنا هو أن نذكر بأن أحمد الزروق بدأ التأليف منذ وقت مبكر من عمره . نذكر من مؤلفاته على سبيل المثال لا الحصر شرحين

على الرسالة وشرح مختصر خليل وشرح القرطبية وشرح الحقائق والدقائق للمقري وكتاب القواعد في التصوُّف وغيرها[1] .

وقد استقرَّ به المقام آخر الأمر بمدينة مصراته ، وتوفي عام 899هـ/1493م[2] ، ودفن فيها وما زال ضريحه معروفاً .

ونتحدث الآن عن عَلَم من أعلام القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، وهو (يحيى بن محمد بن عبد الرحمن الخطاب) . لم تسعفنا المصادر بتاريخ ولادته ، ولكن أجداده رحلوا منذ فترة طويلة من ليبيا ، إما لغرض التجارة أو طلب العلم في تلك المناطق ، وعرف بيتهم بأنه بيت العلم والصلاح ، فظهر منهم العديد من الأقطاب الذين عملوا على نشر العلم هناك . وتتلمذ العديد منهم على بعضهم البعض فبرعوا فيه ، وقد كشفت لنا إجازتان منحهما يحيى الخطاب إلى تلميذين من أبناء تمبكتو توضحان أنهما كانا مدرِّسين في تلك البقاع وأن الأثر الليبي كان راسخاً هناك . كما توضحان المواد التي كانت تدرَّس في تلك الفترة إضافة إلى أسماء المدرسين الذين كانوا يدرسون العلم[3] .

ولم يكن تأثير الليبيين في السودان الغربي في مجال العلم فقط ، بل كان تأثيرهم حتى في مجال الأدب . فقد كان أبو علي بن الحسين ، وهو من أبناء القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) عَلَماً من أعلام الأدب في مدينة تمبكتو ، ذاع صيته وكان له العديد من المؤلفات ، لم نعثر إلا على

---

(1) ابن غلبون ، ص222-223 ، أحمد بابا «نيل الابتهاج» ص85 ، السخاوي ، م1 ، ح1 ، ص-223 222 . المكناسي ، ح1 الأول (أ - ص) ص129 - دليل المؤلفين العرب الليبيين ، (طرابلس : أمانة الإعلام والثقافة 1977م) ص31 .

(2) علي فهمي خشيم ، ص63 ، وأحمد زروق ص8 . عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري ، «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» ، ط : 2 (الدار البيضاء : دار الكتاب 1960م) ، ح1 ، ص262 ، الطاهر أحم الزاوي ، «أعلام ليبيا» ، ط : 2 (طرابلس : الفرجاني 1971م) ، ص85 ، ودليل المؤلفين العرب الليبيين ص29 .

(3) إجازة علمية ، مكتبة الباحث ، رغم أنها ليست من القرن الخامس عشر إلا أنها تأتي باسم الخطاب وإجازته لأهل الصحراء إجازتين .

قصيدة واحدة في الأدب مرتبة هجائياً ، تحتوي على مائة وواحد وخمسين بيتاً ، تتناول الأمور الدينية بدأها بالبسملة ، وقد قال في مطلعها :

كتاب فيه أشعار تجلى عن القلب المقفل كل رين
توالى قولها نسفاً ووعظاً وبذكراً علي بن الحسين[1] .

العلاقات التجارية بين طرابلس وغدامس ومالي

أظهر تدفق التجارة بين طرابلس وغدامس من جهة ومملكة مالي الإسلامية من جهة أخرى في القرون الوسطى حقيقة هامة هي أن الصحراء الكبرى لم تكن حاجزاً في يوم من الأيام[2] بين أبناء القارة الواحدة . كما أوضحت الدلائل أن العلاقات التجارية واكبتها علاقات ثقافية ودينية ، إذ تجلت لدى أهالي مالي مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التي أعطت هذه العلائق الموغلة في القدم دفعة قوية لا سيما أن روح الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة تدعو إلى الألفة والمحبة والمساواة بين كافة الشعوب .

ويلاحظ أن التجارة والعلاقات الثقافية والفكرية كانت مزدهرة بين طرابلس وغدامس وبين مدينة تمبكتو في المقام الأول . وقد أعطت مخطوطة أحمد بلعراف صورة واضحة لذلك حيث ذكرت قائلة : «يرد الرفاق من الآفاق البعيدة ، وسكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد من أهل (وجل)[3] وفزان وغدامس»[4] .

---

(1) علي بن الحسن ، مخطوطة «في الوعظ» ، مكتبة الباحث ، يرجع تاريخها إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، باتفاق أحمد سالم الشود وعمر سيسه .

(2) جون رايت ، «تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور» ، تعريب عبد الحفيظ الميار وأحمد الباروني (طرابلس ، مكتبة الفرجاني 1972م) ص87 .

(3) يقصد بذلك مدينة أوجلة .

(4) أحمد التكني ، ورقة 3 .

يتضح من ذلك أن أهالي فزان وغدامس وأوجلة كانوا يتوافدون على مدينة تمبكتو لغرض التجارة والاستقرار ، مثلما توافد على تلك الأصقاع العلماء والصالحون الذين مهمتهم نشر العقيدة والثقافة الإسلاميتين بين تلك الشعوب الأفريقية والدعوة إليهما ، مما جعل مالي مملكة إسلامية منذ نشأتها الأولى ، وتصل درجة من الرقي والعظمة والحضارة لم تصل إليها مملكة ولا أمبراطورية في غرب أفريقيا من قبلها .

وقد ورد أن تجار طرابلس وغدامس كانوا أكثر التجار تردداً على مدينة تمبكتو ، حيث كانوا يجلبون السلع من بلادهم إليها ، ومن بعد توزع في أقاليم المملكة . وتشتمل هذه السلع على المنسوجات والأحذية والملح ، وتتم مقايضتها بتبر الذهب والصمغ والعاج وريش النعام والبخور[1] . كما كان تجار التكرور على اتصال دائم بجبل نفوسة يحملون البضائع[2] .

لقد كانت الحركة التجارية بين طرابلس وغدامس من جهة وبين مالي من جهة أخرى نشطة جداً ، إذ كانت طرق القوافل التجارية التي تربط المنطقتين زاخرة بحركة التجارة المستمرة ، متمثلة في البضائع الوافدة من الأسواق الأوروبية عبر البحر المتوسط وكان تجار طرابلس وأوجلة وفزان وبرقة هم حملة هذه البضائع إلى السودان الغربي[3] . وقد ساعد على ازدهار الحركة التجارية بين غدامس ومالي المصنوعات الغدامسية التي فاقت نظيراتها في إتقان الصنعة ، فكانت الجلود الغدامسية من أجود أنواع الجلود في تلك الفترة . وكانت تدخل في صناعة الأحذية التي تصدَّر إلى مالي عبر دروب الصحراء .

فقد ذكر البكري ، وهو من أهل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، والحموي من أصحاب القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) شيئاً عن ذلك .

---

(1) أحمد التكني ، ورقة 4-20 .

(2) الشماخي ، «السير» ، ص273 .

(3) حسن ابراهيم حسن ، ص104 .

فقد قال البكري : «وعلى وادي درعة شجر كثير وثمار عظيم ، وهناك شجر التاكوت يشبه شجر الطرفاء ، وبهذا التاكوت يدبغ الجلد الغدامسي»[1] .

أما الحموي المتوفي عام 606هـ/ 1229م فقد قال : «تدبغ فيها الجلود الغدامسية وهي من أجود الدباغ لا شيء فوقها (يفوقها) في الجودة كأنها ثياب الخزّ في النعومة»[2] .

وهكذا يوضح لنا كل من البكري والحموي عدة أمور حول الجلد الغدامسي ، الذي يعتبر من البضائع المهمة التي اكتسبت بها غدامس شهرة عظيمة ، وهو من أفخر أنواع الجلود وأرقاها جودة فهو ناعم الملمس براق يشبه حرير الخز في نعومته وإشراقه .

إن الشواهد كثيرة على النشاط التجاري بين ليبيا ونظيراتها في السودان الغربي . فهذا ابن بطوطة ، وهو من أبناء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، يؤكد عمق الاتصالات الاقتصادية بين غدامس ومالي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بقوله :

«ثم سافرت منها برسم تكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين ، دليلهم مقدمتهم الحاج وجين»[3] .

يوضح لنا ابن بطوطة من خلال النص السابق كثرة البضائع التي تحمل من ليبيا عبر دروب الصحراء إلى منطقة السودان الغربي ، وما تأتي به هذه القوافل التي كانت تسير في الصحراء بأدلاّء لهم خبرة في الوصول من أقرب الطرق وأسهلها وآمنها .

هذا عن الصلات التجارية في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) .

---

(1) البكري ، ص152 .

(2) الحموي ، ج4 ص187 .

(3) ابن بطوطة ، ص696 ، ابراهيم حركات ج2 ، ص6 .

أما في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، فإن هذه المراسلات التي نوردها توضح لنا جانباً مهماً في العلاقات الاقتصادية بين الطرفين .

ولعل هذا النص يبين نوعاً من أنواع المعاملات التجارية متمثلة في شركة تجارية . الأول منه رأس المال ، والثاني يتاجر به تحت ضوابط وشروط يتفق عليها الطرفان ، وتكتب رسمياً وفيها يتفق الجانبان على كل صغيرة وكبيرة . وهذا نصها :

«الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده . وبعد ، فقد أقر لدي وأشهدني أيها الكاتب المنتمي اسمه عقب تاريخه المختار بن حماد الأطرش أنه قبض عند البركة الحاج محمد بن أحمد بن أبي بكر البلبلي الغدامسي[1] ميئتان (200) ريال فضة سكة قراض قبضها قبضاً تاماً معاينة على أن يتاجر بها في الساحل بأنواع المتاجر وأصناف المكاسب بما يرى ويظهر له في الحضر والسفر . ومما آفاء الله عليهما في الربح يقتسمانه بالسوية بينهما بعد نضوض رأس المال كاملاً وبه كتب وشهد عليهما بما فيه عنهما وهو بمال»[2] .

تكشف لنا مثل هذه العقود عن الديباجة التي كانت تكتب بها العقود التجارية وأسماء طرفي العقد والكيفية التي تتم بها المبادلة ونوع العملة التي كانت مستعملة في تلك الفترة بشروط المتاجرة وعن الطريقة التي توزع بها الأرباح بينهم بعد إخراج رأس المال . وأهم شيء توضحه هذه المخطوطة هو مدى الاتصال والامتزاج بين الشعبين المالي والليبي .

وللأسف فإن هذه المعاملة كانت مبتورة في نهايتها الأمر الذي حرمنا من معلومات أخرى كانت ستضفي الشيء الكثير عن المعاملات التجارية في تلك الفترة .

---

(1) لقد عثر الباحث على شجرة نسب لهذه الأسرة في مدينة تمبكتو تعود إلى ستمائة سنة تقريباً الأمر الذي يوضح استقرارهم هناك .

(2) عقد تجاري بين المختار بن حماد الأطرشي والحاج محمد بن الحاج محمد بن أحمد بن أبي بكر البليلي .

والبراهين كثيرة عن الصلات التجارية بين ليبيا ومالي . فالمراسلة التالية توضح جانباً من الجوانب المضيئة ونصها :

«الحمد لله وكفى أنا بوجمة بن عبد الله ولد الحاج محمد بن علي الغدامسي على قبض خمس مثاقيل وثلث ذهباً بذمة سيدي علي بن سيدي عمر الرقادي حسبما في عقده وكالة تامة مضوضة (مضبوطة) القبض وعلى المحاكمة والمخاصمة وسائر فصول الخصام إقامة مقامة وبدلاً منه ما لم يصرح بعزله وبه كتب من سمعه منه بحال يتم به الإشهاد تاريخ ثاني ربيع النبوي»[1] .

تميط هذه المراسلة اللثام عن معطيات هامة بين تاجر ليبي وآخر مالي ، إذ تحدد العملة الذهبية المتداولة ، كما توضح الأوزان التي كانت مستعملة في تلك الفترة ، إضافة إلى قيمة المبادلات التجارية التي كانت تتم بين تجار من ليبيا ومالي وكيفية إعطاء التوكيل . كما توضح لنا عن الثقة المتبادلة التي كانت سائدة بينهم والرباط الروحي الذي كان يربط بينهم ، متمثلاً في الإسلام ، وفوق ذلك فإنها تدل على أمانة التاجر الغدامسي الذي كان بحق تاجراً ورسول علم وأخلاق ، وهذا ليس بغريب عن التجار المسلمين ، فالإسلام دين أمانة ومعاملة حسنة .

لقد استمرت هذه العلاقات التجارية حتى بعد عام 873هـ/ 1468م قوية متينة ، بل إنها ازدادت ازدهاراً وتقدماً . فقد شجع منسا علي التجار الوافدين من ليبيا بأن رفع عنهم قيوداً وإجراءات كانت متبعة في العلاقات التجارية ، وفتح أمامهم كل أرض السودان الغربي يجولونها شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً . ويعزو الباحث ذلك إلى روح العاطفة التي هيمنت على منسا علي باعتباره من أصل ليبي ، وبذلك يرى أن التجار الليبيين من بني جلدته على خلاف غيرهم من التجار الآخرين .

---

(1) (مراسلة) من بوجمعة بن عبد الله ولد الحاج محمد بن علي الغدامسي إلى سيدي علي بن سيدي عمر الرقادي .

لقد كانت هذه التجارة الضخمة سالفة الذكر ، التي قامت بين طرابلس وغدامس وفزان من جهة ومالي من جهة أخرى ، قد سلكت عدة دروب معروفة لدى التجار . وكان لتلك الدروب مميزاتها الخاصة بها ، وهي قصر الطريق وسهولة العبور والأمن والماء . وأهم هذه الدروب هي :

1 ـ طريق من تادمكة ـ القيروان مروراً بورقلة ومن تادمكة إلى طرابلس مروراً بغدامس[1] .

2 ـ طريق جاو ـ تادمكة ـ فزان .

3 ـ شبكة من الطرق تنطلق من طرابلس وتسير بواحة مرزق وتعبر الجانب الشمالي من جبال تبستي إلى إقليم بحيرة تشاد ، ومنها تتحرك شرقاً وغرباً داخل أراضي السودان .

4 ـ طريق تبدأ من ساحل البحر المتوسط عند تونس ، فتسير للجنوب مارة بغدامس وغات وأجادس ، ثم تتجه منه إلى الغرب مارة بتكدا إلى جاو على نهر النيجر وإلى تمبكتو[2] .

5 ـ طريق غدامس ـ تادمكة ـ مالي .

6 ـ طريق ورغلة (ورجلة) ـ تادمكة ـ كاغو[3] .

حي الغدامسية بمدينة تمبكتو

من المعروف أن التجار في العصور الوسطى عندما كانوا يزاولون مهنة التجارة بعيداً عن بلادهم ، فإنهم عادة ما يمكثون لفترة من الزمن لعدة أمور تحتم عليهم ذلك ، فالتاجر من غدامس أو طرابلس أو فزان أو من فاس ، عندما يسافر لغرض التجارة إلى السودان الغربي ، فإن مشقة الطريق التي يقطعها قد تنهك جزءاً من صحته وتضني بعيره ، الأمر الذي يفرض عليه

---

(1) البكري ، ص164 .

(2) محمد عبد الفتاح ابراهيم ، ص72 .

(3) البكري ، ص164 ـ ابراهيم حركات ، ح2 ، ص20 .

الاستراحة في المكان الذي يبيع فيه تجارته . وفي هذا المكان لا بد له من بناء مسكن يقيه برد الشتاء وحرّ الصيف طيلة فترة إقامته . كما أن ضعف راحلته قد يفرض عليه الإقامة ريثما يحصل على البديل أو يتحسن حالها .

وبما أن الغدامسيين من أكثر التجار وروداً على منطقة السودان الغربي (تمبكتو) ، فالأمر يقتضي منهم إقامة حي يأوون إليه ، لأن البضائع قد تستمر أشهراً بدون بيع ، أو قد يطيب للتاجر المقام في هذه البلاد ، ويتحول إلى تاجر محلي ، أو داعية للإسلام ومدرّس إلى غير ذلك من الأعمال ، وقد يتزوج من السكان الأصليين . ولا يقتصر هذا على من يفضل البقاء في السودان الغربي فقط ، بل حتى التاجر الذي ينتقل بين البلدين ، فعادة ما تكون له زوجة في غدامس وأخرى في مدينة تمبكتو .

وحي الغدامسية[1] الذي نحن بصدد الحديث عنه هو واحد من أرقى الأحياء في مدينة تمبكتو ، يقع في جنوب شرق المدينة حيث يبلغ طوله حوالى نصف كيلومتر مربع تقريباً ، وكان على درجة من الأناقة وحسن البناء وتناسق في شوارعه[2] .

ومما يؤكد أهميته الاستراتيجية أنه عند مجيء الحملة المراكشية إلى منطقة السودان الغربي ، في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، اختارت موضع حي الغدامسية لإقامة قصبة الحكم فيه ، لما يمتاز به من موقع ممتاز وكثرة البناء واستراتيجية لا تعادلها قيمة .

وقد أوضح لنا ذلك المؤرخ عبد الرحمن السعدي حين قال : « . . . ثم إنهم دخلوا في داخل المدينة يوم الخميس السادس من شعبان المنير وطافوا في المدينة وطالعوها ووجدوا أكبرها عمارة حومة الغدامسيين فاختاروها للقصبة»[3] .

---

(1) بول مارتي ، «البرابيش» ، تعريب وتعليق ووضع ملحقه محمد محمود ولد ودادي ، (دمشق : مطبعة زيد بن ثابت 1985م) ص80 . أحمد الفيتوري ، «الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان» ، مجلة البحوث التاريخية (طرابلس : مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي ، يوليه 1981م) س3 ، ع2 ، ص25 .

(2) السعدي ، ص142 .

(3) السعدي ، ص142 .

والذي جعل حي الغدامسية بهذه الدرجة من الرقي كان مردّه إلى مكانة وثراء التجار الليبيين بالنسبة للسكان الأصليين ، وهذا طبيعي نظراً لما كانت تمثله التجارة في حياتهم من قيمة ، ولذلك ازدادت ثروتهم وكثر بناؤهم وعرفوا لدى العامة والخاصة بالثراء ، فلم تقتصر تجارتهم على مدينة تمبكتو فقط ، بل تجاوزوها إلى المناطق الأخرى فتعاملوا مع مدن السوق وجاو وجني وغيرها من الأماكن الأخرى[1] .

وقد عرفهم أهل تمبكتو وباقي المناطق بكثرة حفلاتهم وأعيادهم وولائمهم . فكانوا يطعمون الطعام في المناسبات المختلفة ويدعون إليها خاصة الناس وعامتهم[2] ، الأمر الذي يعكس درجة الغنى التي وصلوا إليها ، كما يوضح ذلك حبهم للفقراء والمساكين ودعوتهم لمشاركتهم في أعيادهم وحفلاتهم ، وهي سمة من سمات التقوى والورع وعمق الصلات التي كانت تربط بين أبناء الشعب الواحد .

خير شاهد على صحة ما نقول العديد من الأسر الليبية القاطنة بالسودان الغربي التي ترجع في أصولها إلى فترة موغلة في القدم .

فمثلاً أسرة ضياء التي ينحدر منها الملك منسا علي ملك سنغي . وشجرة نسب (عائلة البليلي الغدامسي)[3] التي ترجع إلى أكثر من خمسمائة سنة ، إذا حسبنا متوسط عمر الواحد منهم سبعين سنة ، فإنهم يكونون قد استقروا بمدينة تمبكتو حوالى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) .

وأسرة الحاج محمد سليمان بن عب التي ترجع إلى حوالي ستمائة سنة تقريباً أي حوالى القرن السابع الهجري (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) . وشجرة عب بن مخلوف هي أيضاً موغلة في القدم . والشواهد مليئة بالأدلة على عمق الصلات بين أبناء ليبيا والسودان الغربي (مملكة مالي الإسلامية) .

---

(1) محمد محمود ، ورقة 4 .

(2) نفسه والورقة 4 .

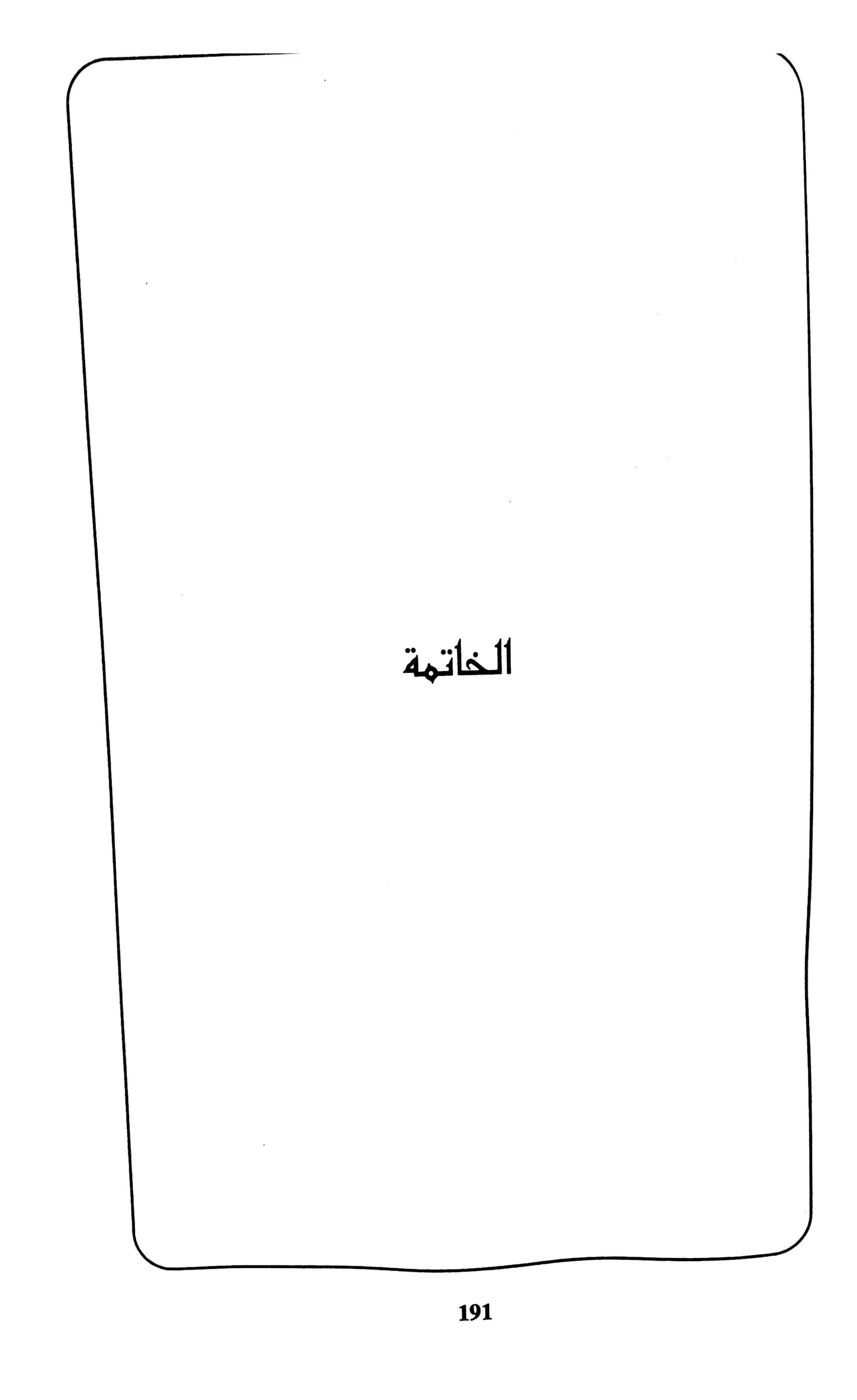
(3) وأصل هذه العائلة ما زال مقيماً إلى اليوم بمدينة غدامس حيث يوجد لهم شارع بهذه المدينة يحمل اسمهم .

فقد ورد أن الذين أسسوا مدينة جاو هم دعاة إلى الدين الإسلامي من طرابلس الغرب ، فانضم إليهم السكان الأصليون وجعلوهم حكاماً عليهم .

من هنا ندرك قيمة العلاقات الحميمة القديمة جداً بين ليبيا والسودان الغربي (مالي) التي كان من نتائجها انتشار الثقافة العربية الإسلامية والدين الإسلامي ، وكان للغة العربية والخط العربي أثر جد بالغ في اللغات الأفريقية المحلية ، فاكتسبت منهما العديد من مفرداتها[1] .

---

(1) يوسف فضل ، «الجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية» ، مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع منتدى الفكر العربي ، ط : 2 (بيروت 1987م) ص28-29-39 .



الخاتمة

لقد اتضح لنا من خلال فصول الدراسة أن مملكة مالي الإسلامية إحدى الدول التي قامت بمنطقة السودان الغربي في أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وقد تميزت عما سبقها وكثير مما عاصرها من الدول .

كما يستفاد من وصفها بالإسلامية ذروة مجدها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، وخاصة في عهد عاهلها منسا موسى . وذاع صيتها فعرفت لدى الشرق العربي وبعض دول أوروبا ، فضلاً عن الشمال الأفريقي ، وارتبطت بعلاقات حميمة مع عدد من مراكز الشمال الأفريقي ، في مقدمها فاس وسجلماسة وغدامس وطرابلس وجبل نفوسة .

وأبرز ما تمخضت عنه هذه الدراسة من نتائج ما يأتي :

- أثبتت الدراسة بطلان مزاعم الأوروبيين الذين يقولون أنهم هم مكتشفو أفريقيا جنوب الصحراء ، بل إن العرب من شمال أفريقيا هم الذين سبقوا غيرهم من الأمم إلى اكتشاف أفريقيا جنوب الصحراء وارتياد مجاهلها .

- إن منطقة جنوب الصحراء قد تعاقبت عليها عدة دول مثل غانا ومالي وسنغي كانت على درجة من الرقي السياسي والاقتصادي والعلمي أهّلها لأن تكون في مصاف الدول المتقدمة بمقياس ذلك العصر .

ـ إن مملكة مالي اشتهرت بثرائها لدى الشرق العربي والشمال الأفريقي وبعض دول أوروبا ، ورسمت في خرائط البرتغاليين في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) .

ـ المساحة الشاسعة التي بسطت عليها سيادتها جعلتها من كبريات دول تلك الفترة .

ـ طبيعة العلاقات السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية الوثيقة ، التي ربطت مملكة مالي بالعديد من مراكز الشمال الأفريقي في مقدمها المغرب الأقصى وليبيا ، مكّنت للعروبة والإسلام ، وسادت اللغة العربية والثقافة الإسلامية في تلك المنطقة من غرب أفريقيا .

ـ أكدت الدراسة حقيقة أن الصحراء الكبرى قد ربطت بين المناطق الواقعة في شمالها وتلك التي في جنوبها ، ولم تكن حاجزاً بينها في يوم من الأيام ، بل كانت ـ ونأمل أن تظل ـ منطقة حياة وجسراً تعبره الأجيال في حركة مزدوجة ملؤها المحبة والخير والعلم والسلام .

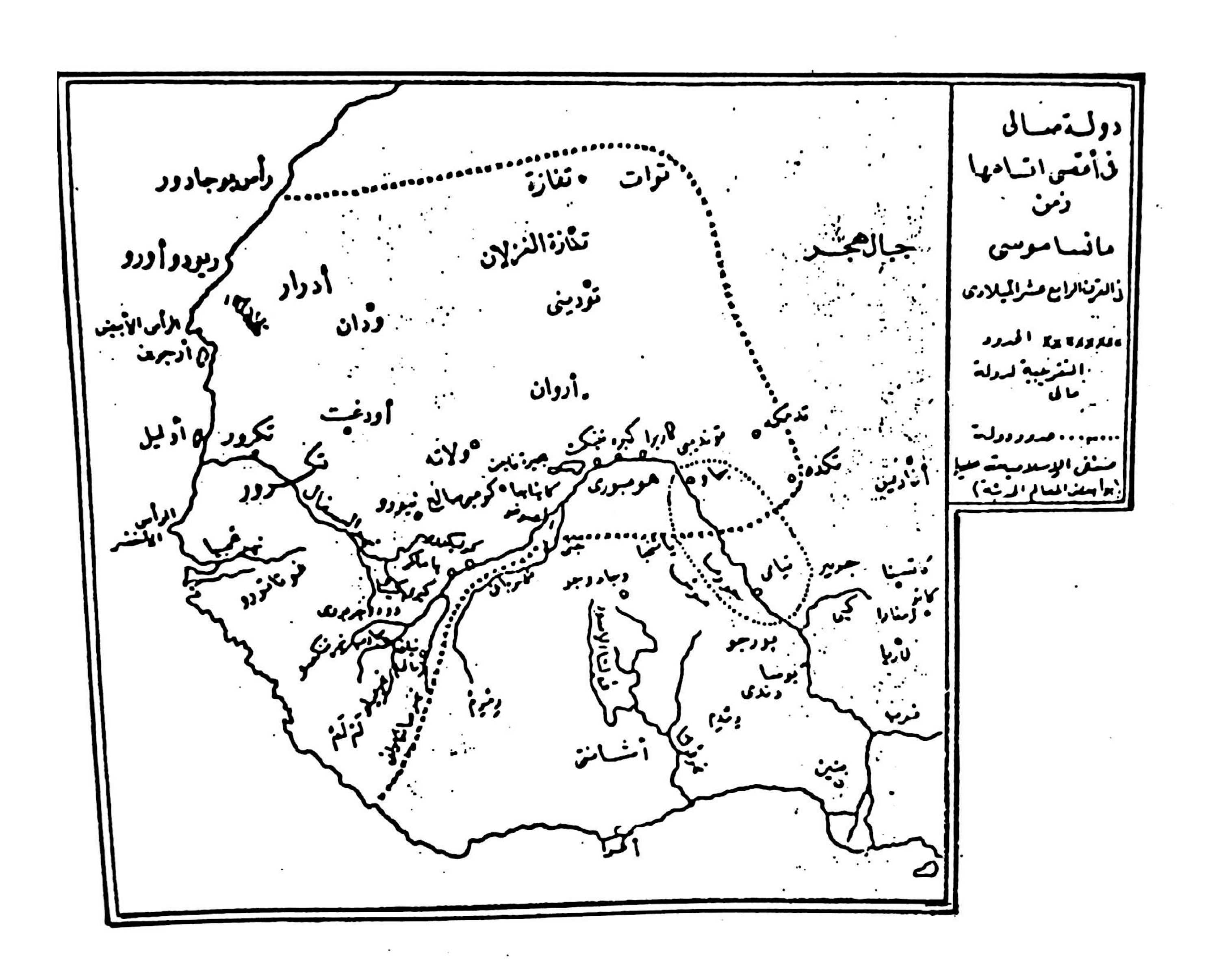
ـ أماطت الدراسة اللثام عن أن الصحراء الكبرى لم تكن في أي وقت منطقة طرد ، بل كانت منطقة جذب وإنتاج ، فما استغلال مناجم الملح في تغازا وتاودني ومعدن النحاس في تكدا والزراعة في التكرور إلا دليل قوي على ذلك .

إن العلاقات العربية الافريقية الحميمة الموغلة في القدم ، التي أبانت عنها المخطوطات العربية التي أمكن الاطلاع عليها ، تنكّر لها الاستعمار وأدبرت عنها أدواته ، في محاولة مبيتة لطمسها كلية أو تحريفها ، لأنها تفند مزاعمه وتدحض افتراءاته .

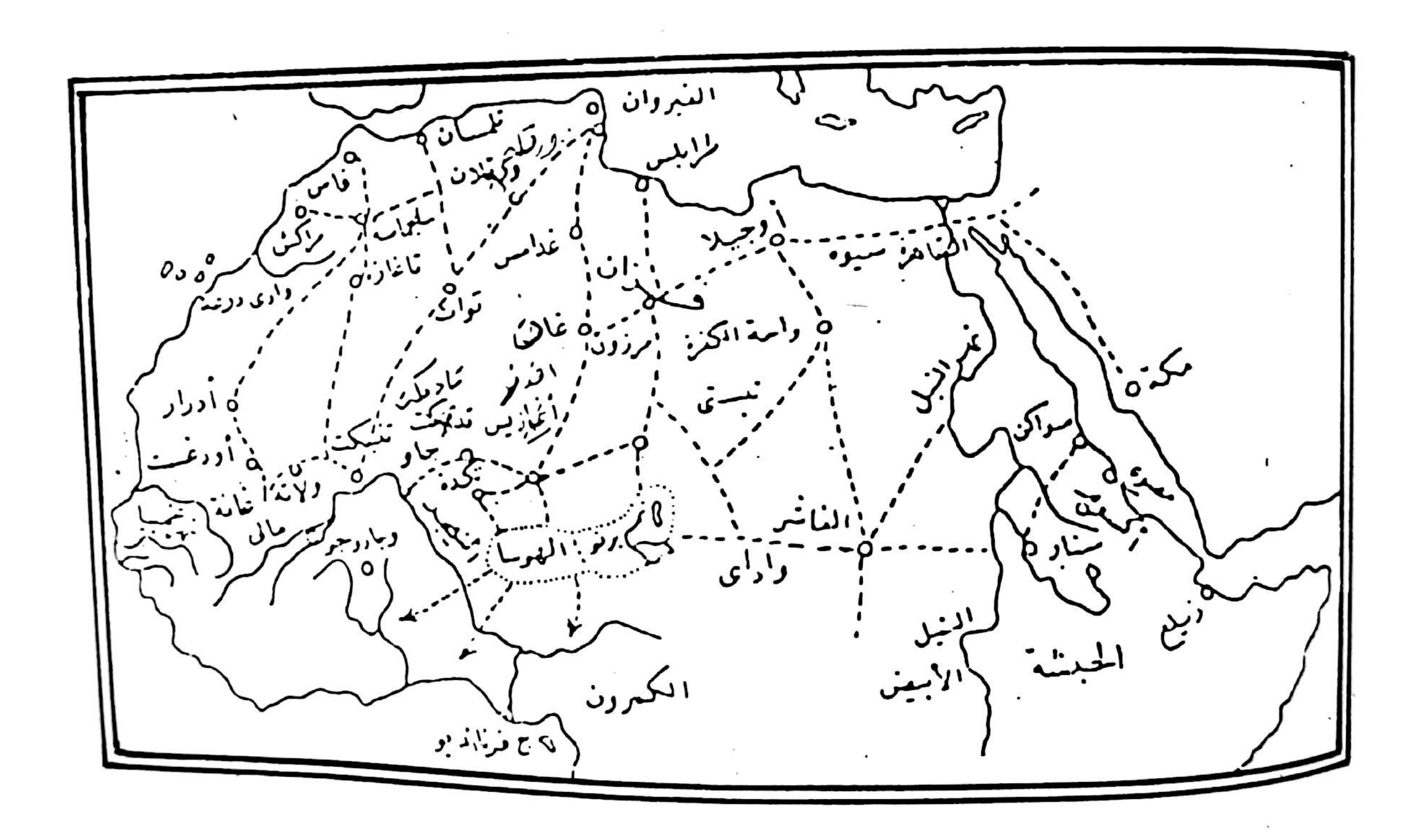
لعله من نافلة القول أن نذكر عدم وجود أية حدود حائلة بين أفراد الشعب الواحد في شمال الصحراء وفي جنوبها . بيد أن الباحث حين تجواله في المنطقة مستقصياً المعلومات مجالساً أهلها ، اكتشف أن ما لا يقل عن 70% من سكان كل من تمبكتو وجاو وجني وكبدال وقندام وأروان هم من أصول

عربية صحيحة ، ويتكلمون العربية وإن اختلطت الدماء العربية والزنجية . وخير الشواهد على عروبة هذه المنطقة محافظة أهلها على العربية إلى اليوم ، بالرغم من محاولات الفرنسة التي طالما استهدفتها .

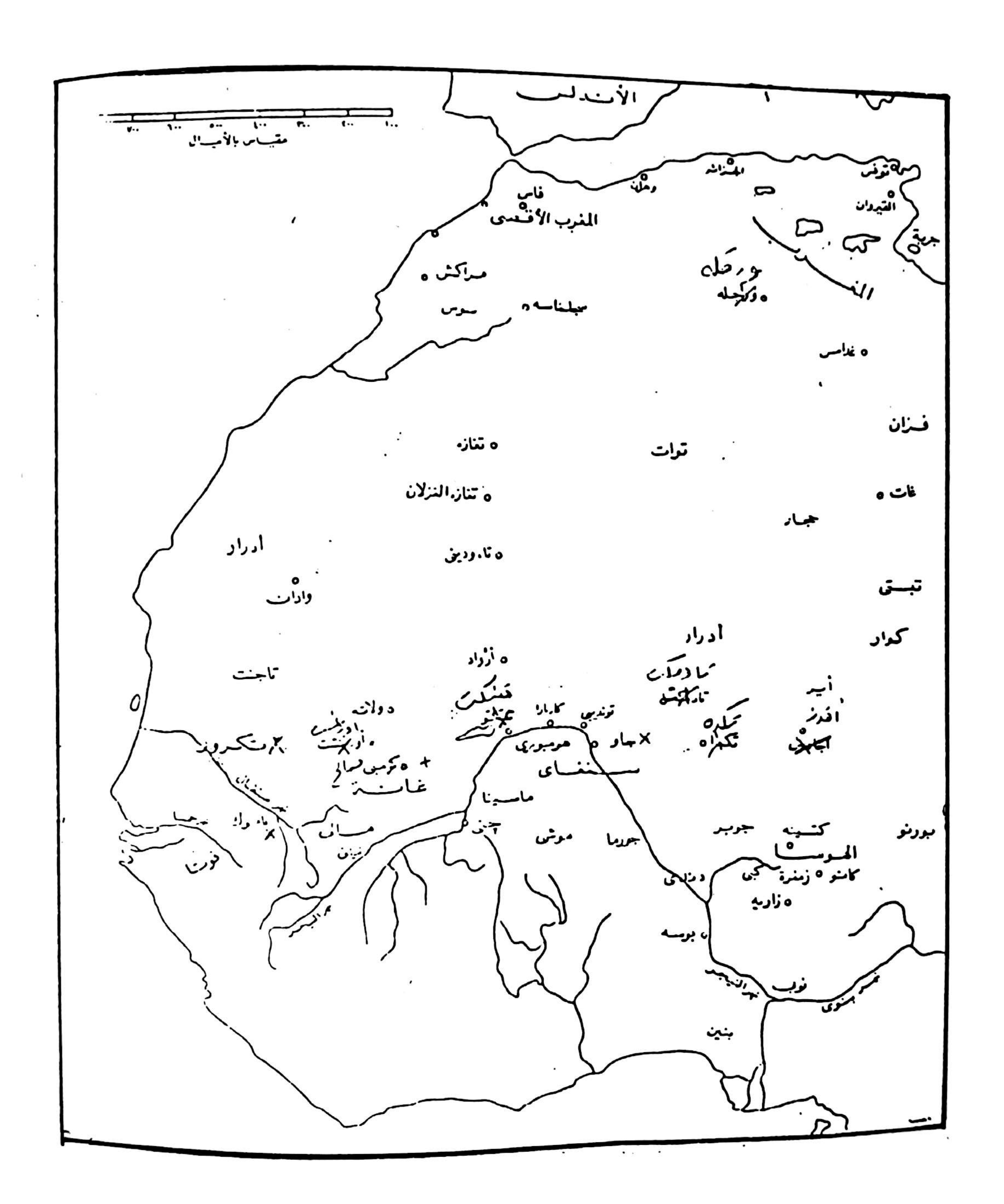
بيَّنت الدراسة أيضاً أن غالبية من حكم هذه المنطقة من السودان الغربي ، كانوا عرباً ومن الشمال الأفريقي خاصة .



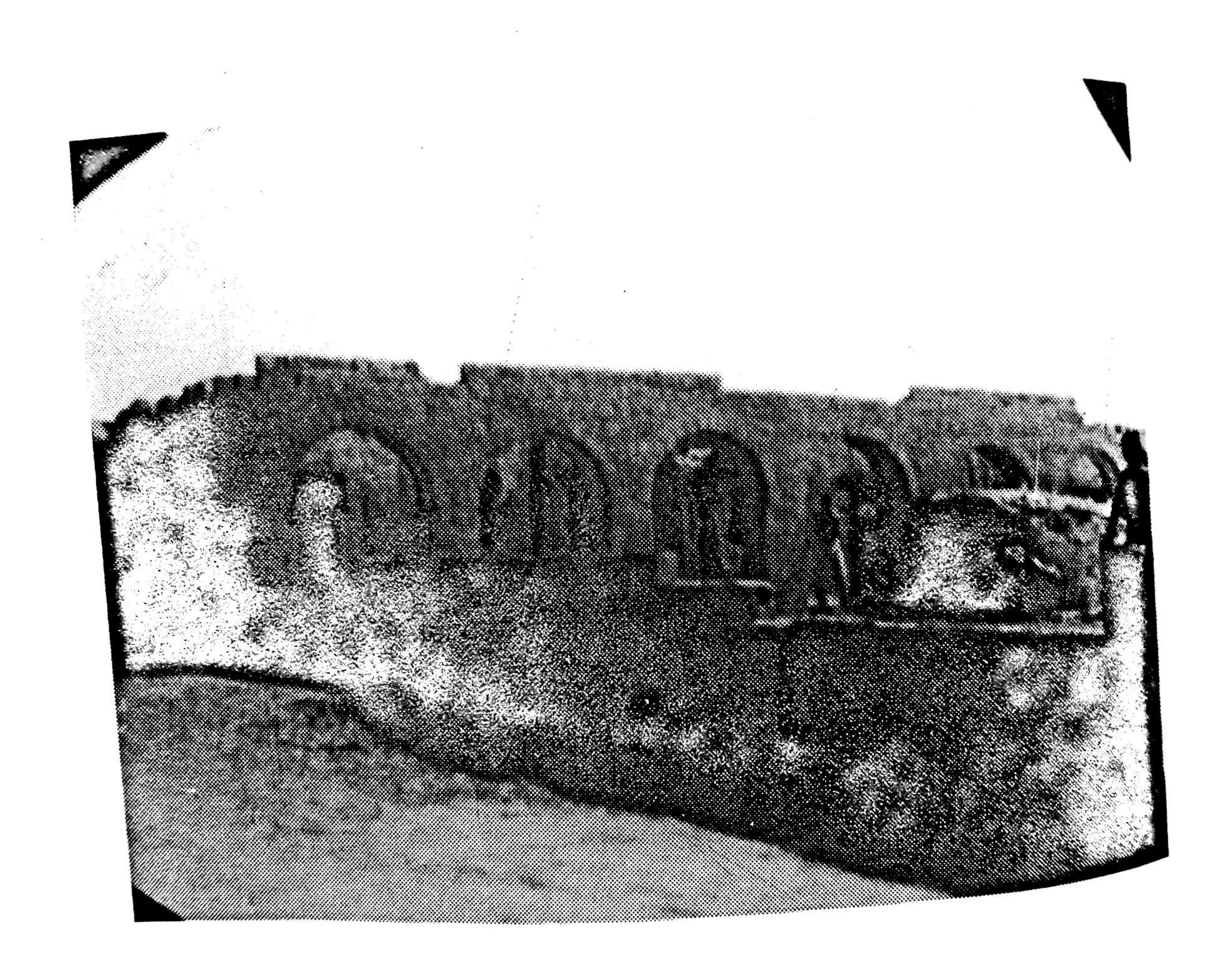
دولة مالي في أقصى اتساعها زمن منسا موسى
في القرن الرابع عشر الميلادي



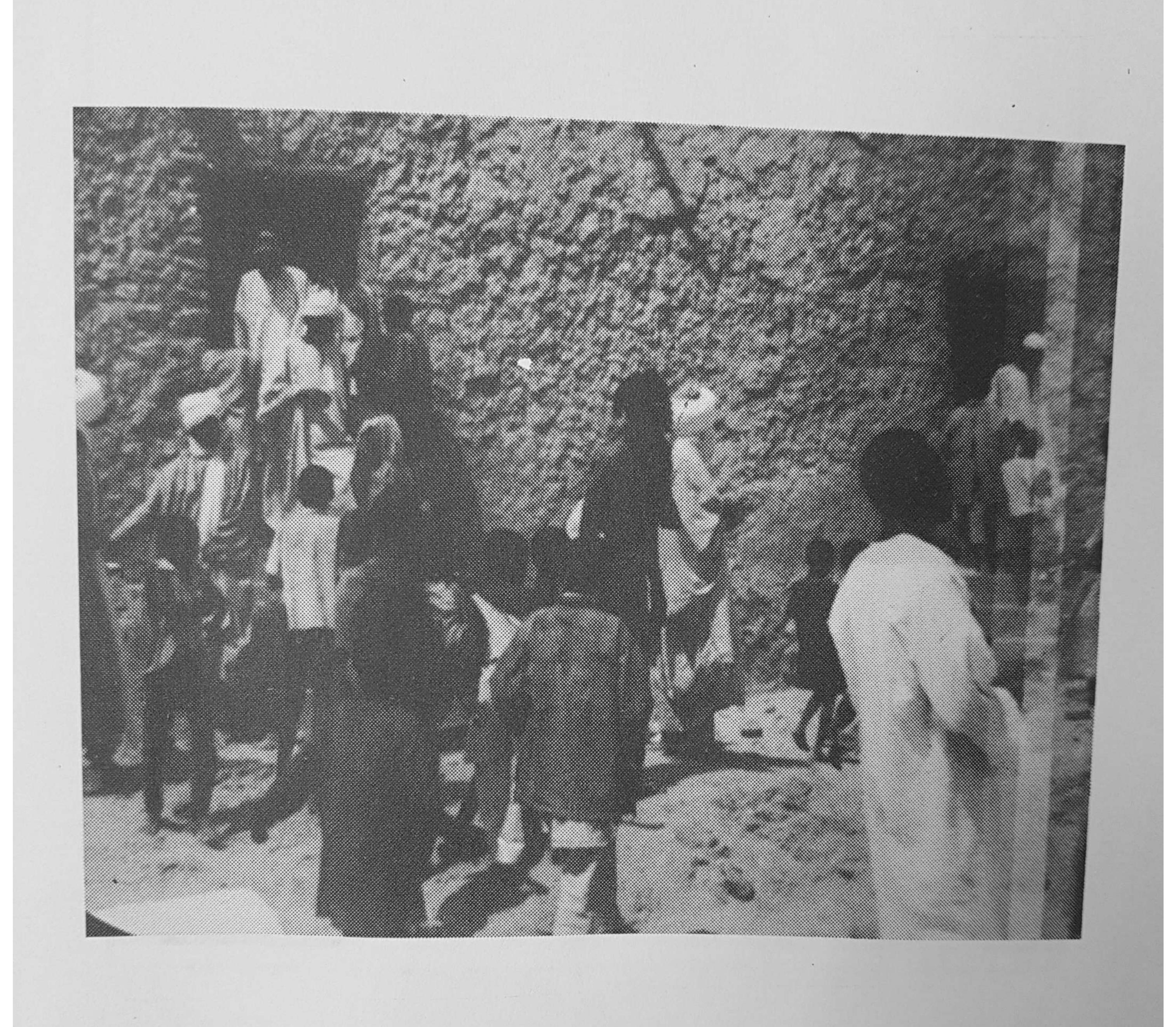
طرق القوافل الرئيسية بين بلاد السودان وشمالي أفريقيا



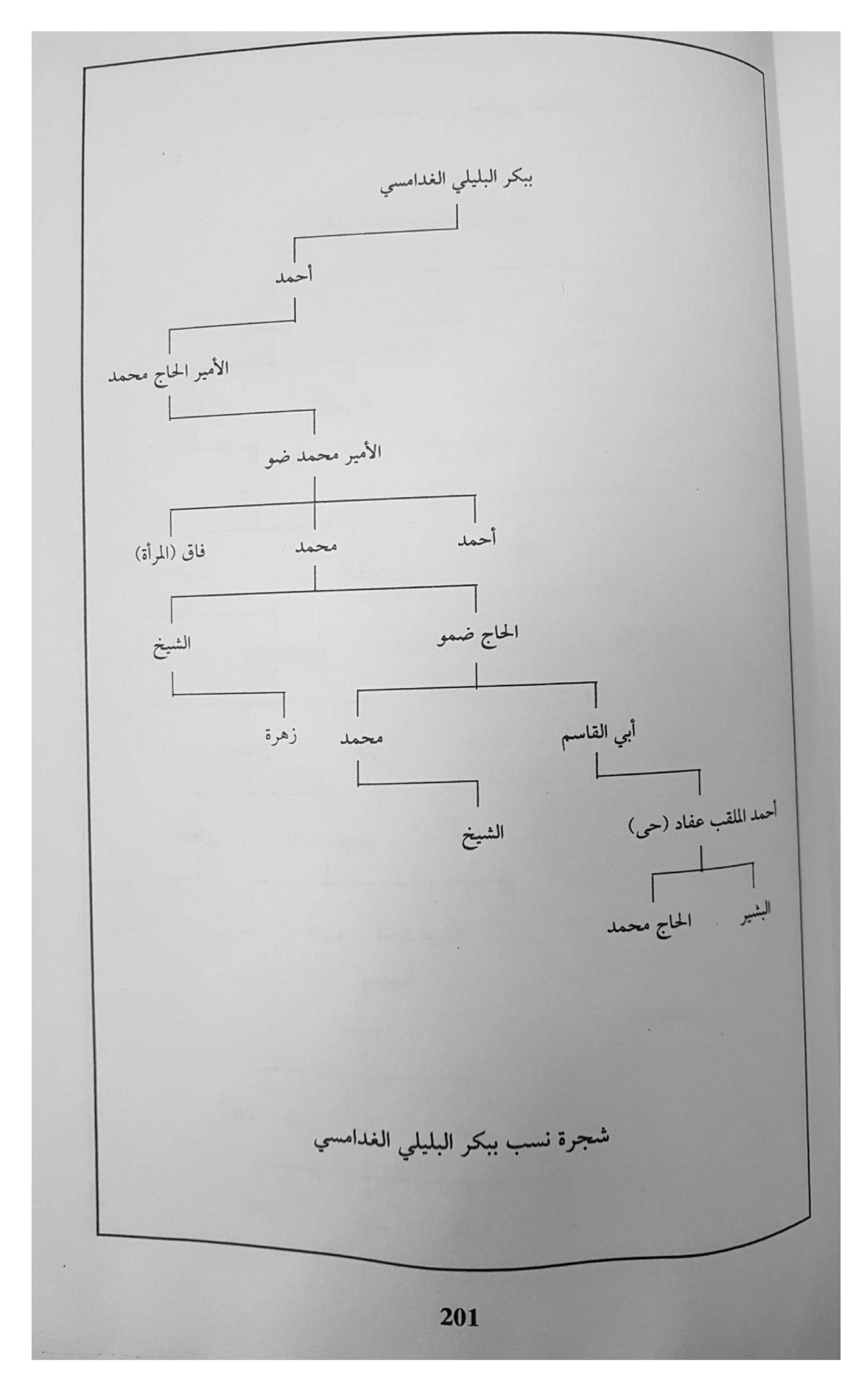
أهم الدول والمدن في غربي أفريقيا



حي الغدامسية بمدينة تنبكتو

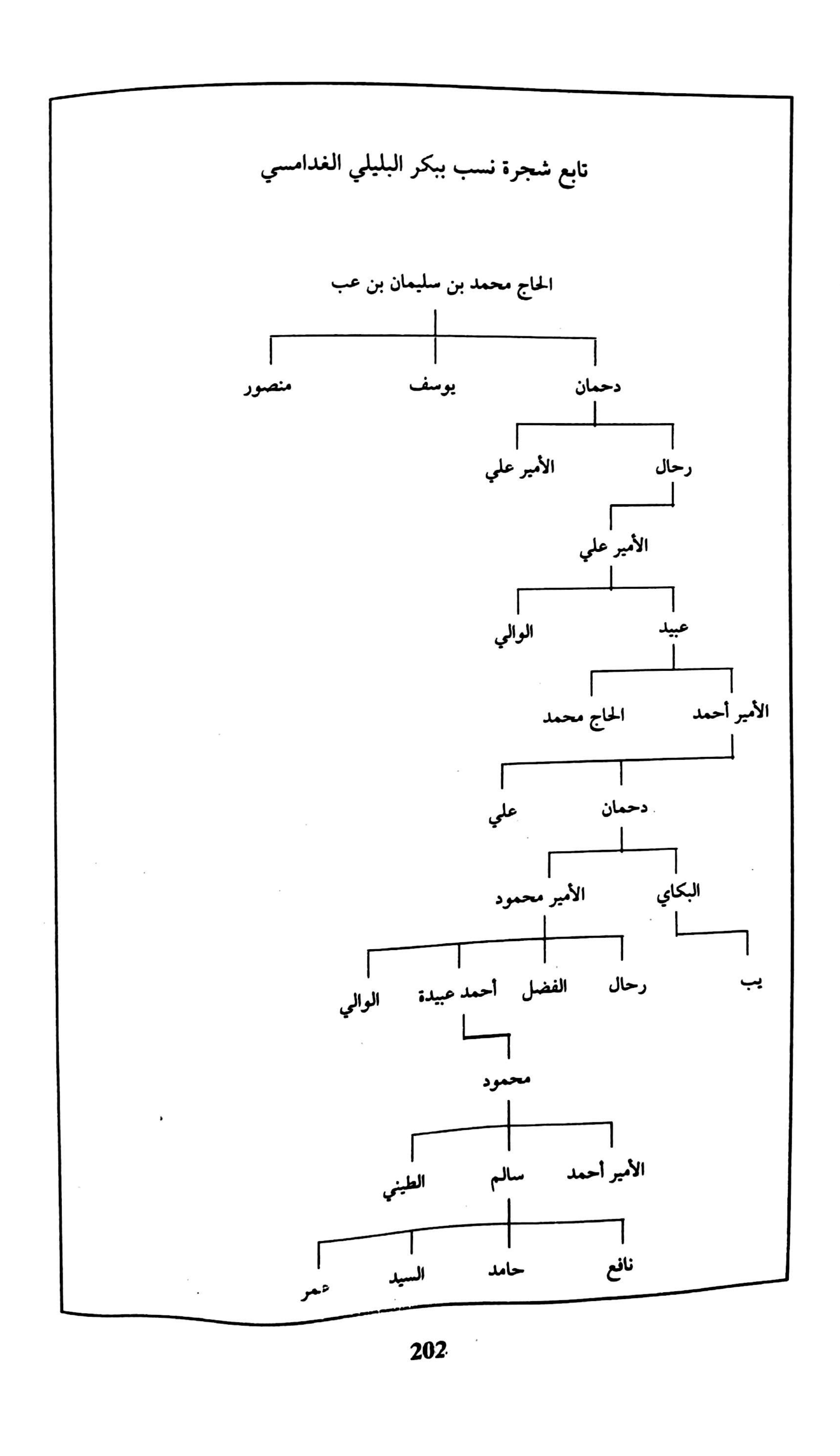


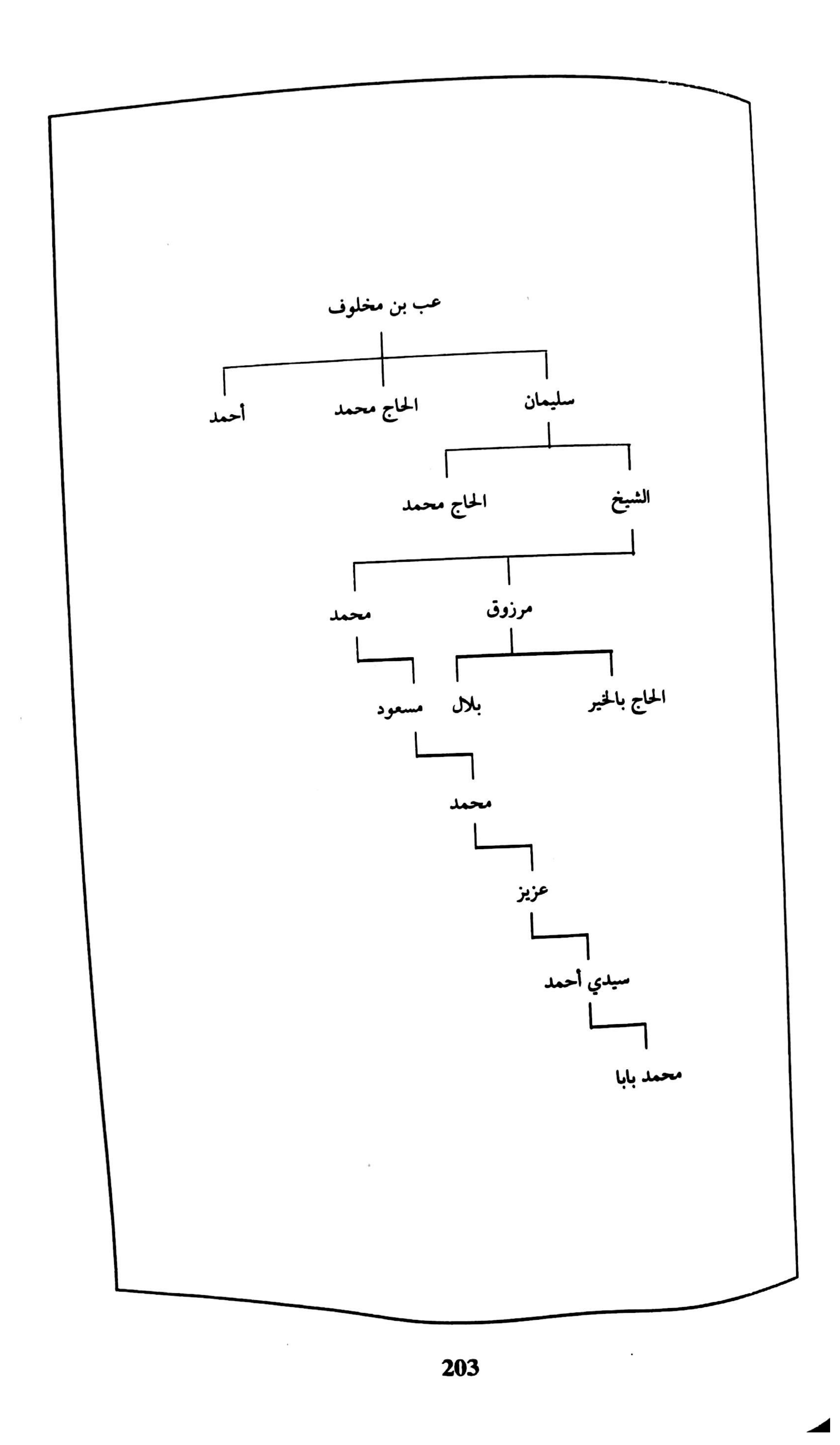
مسجد منسا موسى بمدينة تنبكت



شجرة نسب ببكر البليلي الغدامسي

تابع شجرة نسب ببكر البليلي الغدامسي




عب بن مخلوف
سليمان
الحاج محمد
أحمد
الشيخ
الحاج محمد
مرزوق
محمد
الحاج بالخير
بلال
مسعود
محمد
عزيز
سيدي أحمد
محمد بابا

المحتويات

الفصل الأول
العوامل التي أدت إلى قيام مملكة مالي الاسلامية

الفصل الثاني
الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية
في مملكة مالي الاسلامية

الفصل الثالث
مدينة تمبكتو
مركز حضاري هام

الفصل الرابع

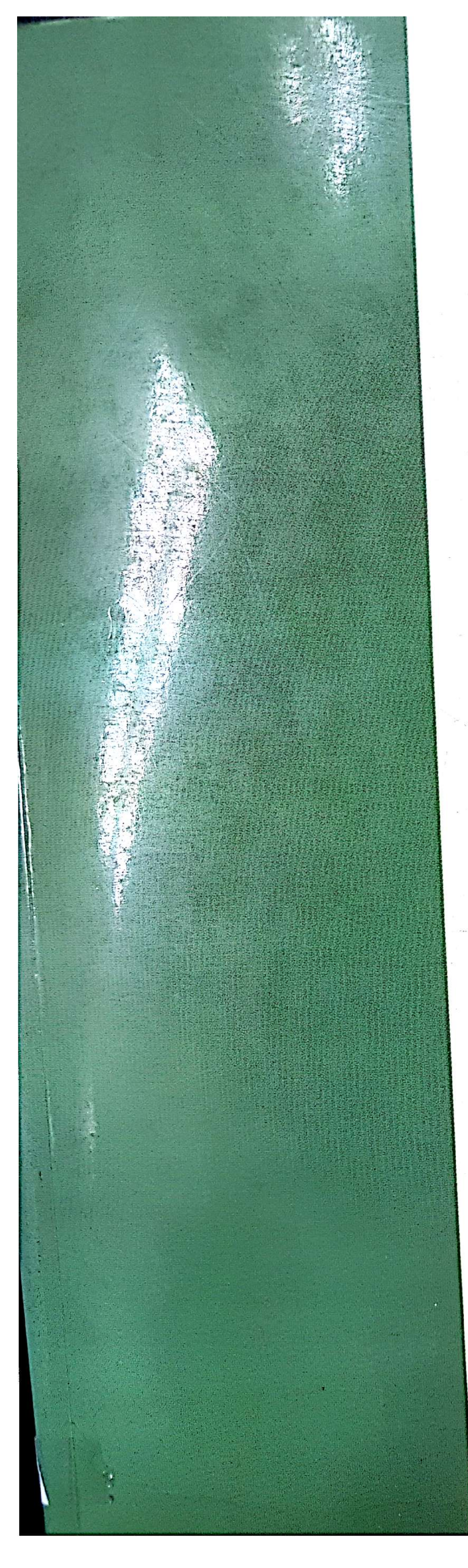
العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية

بين المغرب الأقصى ومملكة مالي الاسلامية

الفصل الخامس

العلاقات الثقافية والاقتصادية

بين ليبيا ومملكة مالي الاسلامية



مملكة مالي الإسلامية
وعلاقاتها مع المغرب وليبيا

اهتم الأوروبيون منذ وقت غير يسير بدراسة التاريخ الافريقي، فدرسوا عادات وتقاليد وديانات المجتمعات الأفريقية في اتجاه خدمة أغراضهم. وكثيراً ما لمحوا ـ وأحياناً أخرى أظهروا ذلك صراحة للأفارقة ـ بأن سبب تخلفهم هو هذه الحضارة الإسلامية التي اعتنقوها منذ قرون عديدة، وأن الحل يكمن في التخلي عنها وتقمص الحضارة الغربية الطارئة. وقد تصدى عدد من المصلحين الأفارقة أنفسهم لذلك، فكتبوا ووعظوا الناس، واتجهوا إلى الأقطار الإسلامية لدق ناقوس الخطر على ما يتهدد أفريقيا المسلمة من أخطار، لكن المساعدات كانت ضئيلة، والاستجابة بصفة عامة لم تكن في مستوى دقة المرحلة التي كانت تجتازها أفريقيا. وزاد الأمر سوءاً أن الكتابات العربية عن أفريقيا المسلمة قليلة وقليلة جداً إذا ما قورنت بما كتبه الأوروبيون، إذ الأصوات الثقافية التي تنادي بضرورة وضع العلاقات العربية الأفريقية في إطارها الصحيح قليلة جداً.